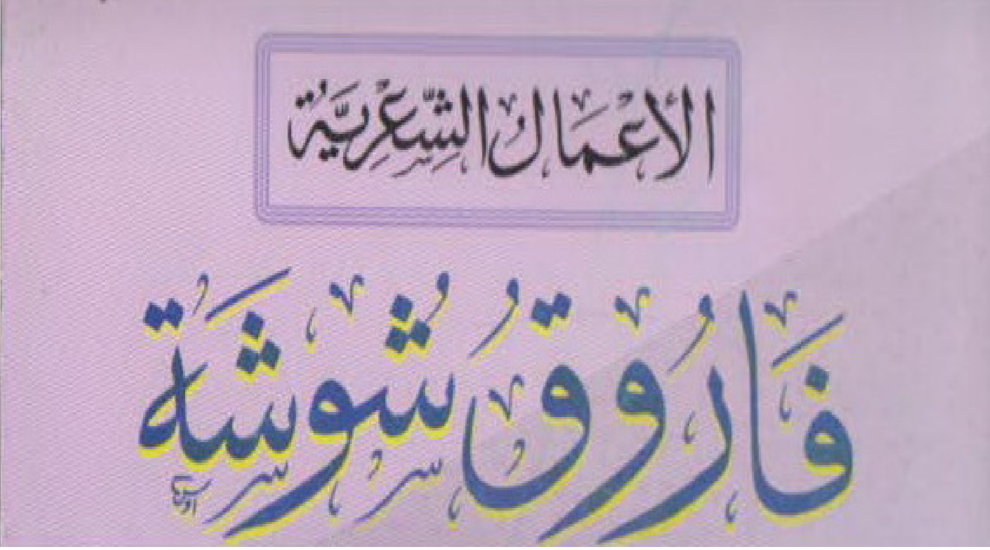


شوشة، فاروق

الأعمال الشعرية / فاروق شوشة. ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

مج ٢؛ ٢٤ سم.

تدمك ٨ ٤٠٩ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ الشعر العربى ـ تاريخ ـ العصر الحديث.

(أ) العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٨٥٢ / ٢٠٠٨

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 409 - 8

ديوى ٨١١,٩

الإشراف الفنى

صبرى عبدالواحد

تصميم الغلاف : الحبيبة حسين

- إلى مسافرة
- العيون المحترقة
- لؤلؤة فى القلب
- فى انتظار مالا يجىء
- الدائرة المحكمة
- لغة من دم العاشقين

إلى قريتى «الشعراء»
أمومة الأرض
والأهل
والشعر

فاروق شوشة

«أيها المسافرون، المثيرو الدّهْشة:

أية حكايا نبيلة نقرأ فى عيونكم العميقة كالبحار.

أرونا عُلب ذكرياتكم الثريًة، حلىّ الأعاجيب

المصوغة من النجوم والأثير.

نريد أن نُسافر بلا بخار ولا شراع.

فدعوا ذكرياتكم فى أطُرها، تنْسم من الآفاق

على أفكارنا الممدودة كالأستار، لتغمر بالبهجة

مضيق سجوننا. وقولوا: ماذا رأيتم؟...»

«بودلير»

إلـى مسافـرة

أغنيـة مسافرة

إليك ... يا مسافرة
أغنيةً مسافرة
ليس لها أرضٌ ولا قرارْ
الشطُّ ناءٍ، والمزارُ يا فريدتى مزارْ!
وغُنوتى قصيرة، وعابرة
لكنَّ فى أعماقها انتظارْ
إليكِ يا مسافرة...

* * *

الحلم أثقل الجفونَ،، فلْنَنم

وعشّشت فى المقلتين زُغبُ أمنياتنِا الصغارْ

وديمة الفد الفريق فى رحابة العيون، والألم...

وَالَهفْتَا...

لو أقبل النهار..

طارت، وزفَّ خافقٌ لدىَّ مستطارْ

يا ليل: يا حكاية الفراغ والشجونْ

يا أنتَ

ملتقاىَ والهموم والصحابْ

وموعدى مع السرابْ

مازال بين راحتى كتابْ

أوراقه البيضاء فى نقاوة العذراءْ

والأحرف العجماء فى سطوره شتاءْ

كئيبةٌ كمقبرة...

والهفتا...

لم تنخلع لومضةٍ أو خاطرة
ولا انتهت إلى كُليمةٍ تضىءُ فى الضباب
حياتىَ المهاجرة....
إليك يا مسافرة...

* * *

اللفظةُ التى تموت دون أن تمسّها شفة
وكان فى أعماقها بحار
والهمسة التى وراء مقلتين تختنقٌ
وملءُ صدرها انبهارٌ...
وغنوةٌ قصيرة وعابرة،
وسيلتى إليك
لو يُسعف النهارا
تهاوت السنونٌ
واحترقت عيونٌ
وانهار من سقيفتى جدارٌ

يا طول أن يلفنا انتظارٌ
إليك يا مسافرة!

(سبتمبر ١٩٦٠)

شىء يولد

أُحس التفاتَتَهُ..

همسةُ...

خطاهُ الحييات ِتنقر صدرى

ووقع أنامله الحانيات

فأغفو

وتشردُ عيناىَ، تشرد

أين القرار...

وهذا الفراغ بنفسىَ،

يفزعُ فى مقلتىَّ
ويحجب ضوء النهار
أُحسُّ انبجاسته
ملء جدران نفسى
يُثقّل خَطْوى
يشدُّ رؤاى الصغارْ
فيغمر نفسى انبهار
أَأَنت؟
أأنت الذى أرقبُ؟
على بابك الموصدِ
خطاى، وأمسى، ولون همومى
وطرْق يدى
وأمنيةٌ خفقتْ مرَّةً
وغابت على حسرة المشهد
ولمحة شك
فيا ربما

أطل الرجاءُ بلا موعدِ
ويعبر يومٌ
ويا ربما
تسرب شئٌ وراء الغدِ
أطلَّ... وطار
أأنت؟.. أأنت الذى أرقب؟
أأنت الذى أرَّق المقلتين
لكى يسفر الأفقُ الغيهبُ
رويدك
إنى ألوك الحنين.. وأستعذبُ...
عرفتك من خفقةٍ فى البعيدِ
وأخرى بجنبىَ... لا تكذبُ
عرفتك فى دفقةٍ كالحياة
تصب الحياةَ، ولا تنضبُ
فيافرحى أنت.. يا مولدى!
أأنت؟.. أأنت الذى أرقب!

يثقّلُ خطوى

يشدُّ رؤاىَ الصغارُ

وقد كان محض انتظارٌ

* * *

سأدعوك توأمَ نفسى

وأُفسح من غوْرِ قلبى وسادا

ومُتّكأً.. أن يقرَّ الشعاعُ

ويسكنَ.. يسكنَ فى مقلتىّ

خفضتُ الجبينْ

وأغفيتُ.. علَّ الحنين

يبلُّ اللياعْ

طويت يدىَّ..

لعلك تدنو؛

وترفعُ هذا القناعْ!

(نوفمبر ١٩٦٠)

إلى مسافرة

لأن فى عينيكِ شيئًا غير روعة الألمْ
شيئًا نبيلا، عاريًا، بلا قناعْ
وعدًا حزينا، صامتا، كأنَّهُ حُلُمْ
لأن مقلتين ناءتا بثقَلِ الوداعْ
فارتختا ذليلتينِ
وانثنت ذراعْ
باردةً، مغلولةً، وأطرقت قدمْ
نظرتُ، فاتكأتُ، فاستدرتُ للضياعْ

ولفظةً تساقطت.. كأنها العدمْ
لأن فى عينيك كلَّ ما قرأتُ من عيونْ
وكلَّ ما صعدتُ من قممْ
لأن فى غَوْرَيهما تتابعت ظنونْ
واتَّشح الطريق بالسأم
أظلُ ها هنا... أطالع السنينْ
وانطوى.. مخافةَ التدمْ

* * *

قديستى !....
مازال صوتك الندىُّ فى دمى
شيئًا أثيريًا .. أضمُّه واحتمى
رنَّاتُه تدق أيامى.. تصبُّ فى غدى
تدّفق من أعماق نبع دافىء القرارْ
بالأمس ضمنى هُنَيهةً.. وطارْ
فرفَّ خافقى الملحُّ واستدارْ

وكدت ألمسُ النداء باليدِ

وأودعُ الليلَ حديثَ مطلعِ النهارْ

وهمسُك الرطيبُ ما يزال فى فمى

شلال تاريخ صنعناه بألفِ موعدِ

شيئا طفوليًا، برىء السمت، ناعم الإزارْ

واحة أمنٍ لم يزل

ولم نزل صغارْ؟

ياكَمْ تعرَّينا أمام مقلتيهْ

ياكم بكينا ومسحنا دمعنا فى راحتيهْ

ياكم حملنا وهمنا، ثم أرحناهُ عليهْ

عرفتُ فى خطاهُ وقع مولدى

ودفقةَ الحياةِ فى غدى

ذات مساءٍ

حين دق سمعىَ البعيدَ.. دقتينْ

طفلا حيّيا، مستطار القلب، هامس اليدينْ

مازلت أذكر السلام، أذكر النغمْ
ولفظةً تفجؤنى، تنفضنى من العدمْ
وموطنًا على القمم
وواحةً نديّةً كأنها حُلُم
بالأمس ضمنى هنيهةً وطار
أدرتُ عينىّ، وكدت أن أعانقَ النهارْ
فانسدّت الطريق بيننا كأنها جدارٌ!

* * *

يا طائرى... يا طائرى
خطاك فى دمى تسوخ، تنفض الأمان
وقع خُطاك فى الدَّرَجْ
وطرقةٌ.. وطرقتان...
يابابىَ الصغير، يا جدارىَ الكبيرْ
تألّق الطريقُ بالوهَجْ
وأشرقتْ من كُوَّةٍ يدانْ

نديّتان بالحنانْ

يا طائرى.. يا طائرى...

شىءٌ بأعماقى اختلجْ

تفتحت فى الصدر شرفتانْ

وانسكبت أفراحنا الصغار دمعتينْ

يا فرحَنا الصغير، يا عزاءَنا الكبيرْ

يا وهمنا الذى أضاء ساعةً وطار

تهدَّمت جوانبُ الأسى المريرْ

وارتفعت مآذنُ النهارْ

واتّسع الحلم.. وأورق المكانْ

ودوَّت الأجراسُ فى البعيد

وطرقةٌ.. وطرقتان

شىءٌ بأعماق يدقُّ من جديدْ

* * *

طوَّفتُ فى دمشق

فتشتُ عن فيروزتينْ

فى الأعين التى تكاد تحترقْ

وخلف هالات السواد والأرقْ

طوَّفت فى الوجوه، مرةً، ومرتيْن

عبرتُ كلَّ عينْ..

لا شىءَ فى دمشقْ

إلا انتظارٌ وقلقْ

وأغنياتٌ لم تزل على الشفاهِ تختنقْ

وجبهةٌ شماءُ تَمْضى لا تقول أينْ

رخامُها أضاء واحترقّ..!

مدينتى التى تغيبُ فى لزوجةٍ بلا عرقْ

فى حضنِ عاشقٍ يناطحُ الهضاب والقممْ

ويغمرُ المدى البعيد.. يغمُر الأفقْ

بصفرةٍ لهيبةٍ.. كأنها مزقْ

بيت على الهضابِ، وارتفاقةٌ على السحاب
وموجةٌ خضراءُ تغمرُ السّهوبَ واليباب
ولوعة تغيب فى الحدقْ
الليل فى مدينتى كأنه سردابْ
طرقت، وانتظرت أن أخوضَ فى الضبابْ
فانشق من خلفِ الجدار بابْ
بابٌ حزينٌ صامدٌ، كصفرةِ الشفقْ
عبرتُه إلى دمشق
عاريةً، كعانسٍ تحلم بالشبابْ
لا عارَ فى دمشق
العارُ فى صمتِ العيون قد غرقْ
طوفت فى دمشق
فتَّشت عن فيروزتينْ
وكدت أن أغيبَ فى السرابْ
متكئا إلى يدينْ..

كومضةٍ، أطلَّ وجهُك الصغيرُ، كالشهابْ
أطل برهةً، وغابْ

* * *

فى لحظةٍ كنا نرودُ عندها الغروبْ
ونعبر الصمتَ الحزينَ فى جنازة المساءْ
قلبين هاربين من حكايةِ القلوبْ
وتائهَين.. ضائعَين.. فى العراءْ
فى اللحظةِ التى تحدثيننى وأستديرْ
لأدفىءَ الجناحَ خلفَ همسِكِ الوثيرْ
كأننى أطير :

«عيناكِ يا فيروزتى.. معبدایْ
قرأت فى عمقيهما عمرى
وقصة أفرغت فيها أسایْ
ينثال فى غوريهما .. يجرى
يا طائرى ضلت طويلا خطای

واقـــتــادنـى الماضـى إلـى الأســـرِ

إن ألْتَفتْ تلفحْ جـــبـــيـنـى رؤاىْ

منقـــوشـــةً فى ذلك الصـــخـــرِ

دفـــقًا أثيـــريًا، يغطى هـواىْ

وينفض الأحـــزانَ فى صـــدرى

تمتـــدُّ من خلف الليـــالى يداىْ

لتطلقـــا الأشـــواق فى فـــجـــرى

عـيناك لم تعـبـرهمـا مـقلتـاىْ

إلا وضـــجَّ الـوهــمُ فـــى فـكـرى»

* * *

هذا أنا..

فى اللحظة التى نكأتُ عندها الغروبْ

فى نَفَّس موطىء القدمْ

تحدَّرت غيومه الثقال دمعتين

وارتفعت هواجس الظُّلَمْ

وأنتِ، وارتماشة اللقاء فى اليديْن
كأنَها حُلُم
تساقط المساء، وامتدت جنازة الشحوب
لم يبق لى غير الهروبْ!

(فبراير ١٩٦١)

فـى الليـــل

كــمـــا يتـــسلّلُ حـــزن المســـاءِ

وتــرتجـف الـفـكـرة الـعــــــابـرةْ

ويســـقـط شـىءٌ ثقـــيلُ الخـطـى

يقـــيّد فــــرحـــتَنَا الـغـــامـــرةْ

وتمـتـــــــــدٌّ مـن خلـفِ أيـامِنـا

رؤى غـــائمـــاتُ الأسـى والحنينْ

وأطيـــاف ليلِ بعـــيـــدِ القـــرار

حكاياتُه رســبـت فى الجـــبـــينْ

مددت يدىّ

حملتُ الذى ضاع من وهمِنا

وجئتُ إليك

وقفتُ على ذلك المنحنَى

أنادى عليك

وأهتف: قد تَعِبَتْ مقلتايا

وأنَّ طريقا بلَونِ أسايا

قطعت، لعلّى أرى شاطئيك

وأن انهمارَ الليالى

يُباعدُنى عن يديك...

وأنكِ فى كل شىء تبقى

لدىَّ، وفى كل نبض حزينْ

خطاكِ، وأنت، وشىء حيىٌّ

تسرَّب فى صفحات العيونْ

وأوغل فى عمق أيامِنا

يداه تشيران للمستحيلْ

وتستشرفان الوجودَ البْعيد
كما تتلاشى أغانى الرحيلْ
أيحملنى الصمت فى وحدتى؟
أيقذفنى للقرار البعيدْ؟
لعلّى إذاما دنوت إليك
جثوْت.. بكيت..
نكأتُ جراحى...
وأسعفتُ بالدمع قلبى
وحبّى الوحيدْ
وفى كل منعطفٍ... والتفاتة
سكبت نواحى
وهدَهدتُ فى أذنيك النشيدْ
لعلك تغفو
وتصبح فجرى الجديدْ...
نحبٌّ، وتنأَى مسافاتُنا
وتجمعنا الغربةُ اللافحةْ

ونطفـو على غـيـمـة كـالأثيـر
تهـدّمـهـا الرغـبـةُ الجـامـحـةْ
وتفــجــؤنا لحظة كــالمحــال
وشىءٌ نــدىٌّ كـوجـهِ الطفــولةْ
وتُرْعــشنا رجــفــةُ الذكــريات
تعــيــد حكايا الليــالى الطويلةْ
لأنى وحيدْ
سأَبقى طويلا ببابكْ
لأنى بعيدْ
سأرقب فجر إيابكِ
لأنى صغيرْ
سأعزف لحن شبابك
لأنى تعرَّيْتُ دهراً
ستدفئنى فى إهابك
لأنى حزينْ
سأجرع نفْس شرابك

(مارس ١٩٦١)

قطرتا سلام

لو قطرتان من سلاْم
تركتَ يا مودعى
سكبتَ بين أضلعى
حين استدار محملك
وخفَّ من بين الضلوع خافقٌ يظلّلك
وارتفعت شعاعةٌ إلى البعيد... تحملُك
وغامت العيونُ... لا كلام
الشوقُ والأحزانُ واستدارةُ النسيانْ

كلُّ الذى معى...

ووهمُ شىء غامضٍ فى صدرنا استكانْ

والهفتا...

من ساعةٍ تفجؤنا فى مُقبل الزمانْ

تهدَّمت على جدارها مشارفُ الأمانْ

من لحظةٍ ممرورةٍ كألفِ عامْ

عن العيون.... تفصلُك....

* * *

يا حُبَّنا.... يا حُبَّنا....

إنا جحدناك... تركناك وحيدًا للرياح

وعاريًا بلا جناحْ

غبنا مع الضباب، عدنا عند مطلعِ الصباحْ

لكى نراك مشمسًا وضاحيا

تمد راحتيكَ بالأمانْ

يا حبنا....

لم يبق إلا الليلُ والفراغ والأحزانْ

وساعة على الجدار مات فوقها الزمانْ

مكبَّلاً... وخاويا....

إنا أتيناك يتامى مجهدين غرباءْ

فهل يضيق صدرك النبيل عن مكانْ؟

يا غافر الذنوب يا مُجدِّدَ الرجاء

إنا ترصَّدنا خطاك فى رحابك الفساح

ثم التفتنا لم نجدْكَ... لم نجدْ عزاءنا

لا تنسنا...

نحن الذين كم حَملْنا وهمَنا المباحْ

فى مقلتيك...

وكم رشفنا قطرتىْ ضوء وقطرتىْ حنانْ

من راحتيك

أيام كنا عند بابك الوثير

التابعينَ.. الأوفياءْ..

إنا نسيناك... وجئناك عرايا تعساءْ

لا تنسنا...

حتى وإن عدت إلينا يا ربيعنا المطيرْ

مخضَّبا كالذكرياتْ

وقاسيا كالذاكرة

وباردا كصفحة الرخامْ

حتى وإن حدثتنا دون كلامْ

ابقَ هنا...

فلم يعد لنا سواك... لم يعد لنا

من أجلنا...

من أَجل كل المتعبين فى الظلامْ

والظامئين مثلنا...

لقطرتين... من سلامْ

(اكتوبر ١٩٦٢)

الصمـــت

لا تصمتى...

الصمت يفضح العيونَ،

يُشعل الظنونَ

يهدم الجدار بين عاريينْ

عيناه تكشفان وجهىَ الحزينْ

وتبصران فى المدى... دروب لوعتى

حديثكِ العقيمُ يا ثلجيةَ العيونْ

يا طالما نَسجت من حروفه رداءْ

لأتّقى عيونَهم... دوَّامة السكون بين واجفيّن
وهمًا حسبناه يذيب قبضة الشتاء
ويَنُفض الحياة فى عروقنا
يا طالما كتمت خلفه أساىٌ
لأن طعمَه المرير فِى حلوقنا
لأنَ جرحًا فىَّ ما يزال
أحّذر أن تلمسه الأكفٌّ والعيونٌ
وقد تسيل من فمى حكايةٌ عجوز
وقد أقول ما يقول الناس ساعةً ويلغطون
شيئا غريبا... شائها
يفصلنا كأنه جدارٌ
يسترنا كأنه إزارٌ
يقتاتُ فى الظلام من دمائنا
ويستحى أن يطلع النهارٌ
تضمُّه يداكِ... تحسبانِه كنوزٌا

لكننى أقسمُ لك

بكل لفظ لم أقله، لو أقوله لكان سجنىَ الكبيرْ

فإن فى ألفاظنا مكامنَ الأعداء

الصوت ليس صوتىَ القديم

ولا الحديث بهجتى وسلوتى

ولا الذى قلناه نَمَّ عن غرامِنا الدفينْ

محض اشتهاء كان يومها، محض اشتهاءْ

وقد صحوت بعدها...

وانهار وهمىَ العظيم..

* * *

صديقنا الحزين يتَّقى العيونَ بالسؤال

يلقيه فى وجوهنا

يفجؤنا...

يُطير من رءوسنا الملال:

«ماذا لو احتضنتُ رأسها الصغير فى يدىْ

مَسَّحتُ بالعينين مرةَ على الجبين
نفضتُ من طريقنا المحالْ
لو استدرتُ فى الطريق مرةً وصحْتُ فى الجموعْ
بأننى لمستُها...
قبَّلْتُها...
أسمعتها لواعجَ الشجونْ»
وبلَّلت حديثَه الدموعْ
يا صاحبى، يا صاحبى الحزينْ
الصمت فى الطريق قيَّد الشفاهَ والعيونْ
تصدُّنا الأحزانُ والجدرانُ والسكونْ
وكل شىء واجف كأنه يموتْ
حتى غرامنا صموتْ!

* * *

الصمت ظَلّىَ الخجولُ.. كم أُحسه وراءَ خُطوتى
هذا الفضولىُّ الذى تشوقه حكايتى

أهرب من عينيه.. من ظلاله على الطريق
لأنه هنا.. لأنه هناك
أراه فى الأحزان، والأشواق، فى استدارة الشروق
فى كل ما تنطقه الشفاهُ والعيونْ
مُمدَّدًا ... بلا حراكْ
من طول ما ملَّ حديثَنا العتيقْ
وصوتَنَا الذى تنوشه الظنونْ
كأنه جنونْ

* * *

الصمت منطق الحياةِ فى زماننا
لأن كل شىء فى شفاهنا نباحْ
الصمت مجدنا وعارنا
صمودنا الجليل.. وانكسارُنا
لأن بيننا الذى قضى
وبيننا الذى أصاب، فاستراحْ

الصمت مهما طال تيهنا، ملاذنا
لأننا مُغلّلون بالجراح....
الصمت يأسُنا الكبير... وانتصارنا
لأن شيئا قادمًا... كأنه صباحْ!

(ديسمبر ١٩٦٢)

بكائية

لأن الصمت يُرّهقنا، ويفصلنا، ويقصينا

لأنَّا لم يعد وعدٌ ولا وهمٌ بأيدينا

لأن متاهة النسيان تجرفنا

وتلفحنا...

وقد مات الصدى فينا

لأن العمر ما عشناهُ إلا خَطْوَ مرتعشين

ليلا واجف الرؤيا

يُغلّلنا ويشقينا

حملتُ الأمس، والذكرى، وصوت المجهد الوانى
وجئت طريحَ أسفارٍ
وأغوارٍ تناديناً
كأنا ما قطعناها هوى فى القلب مكنونا
ولا كنا هنا يوما
عل يدها مصلّينا
ولا انسكبت على أحجارها أبدا مآقينا
كأنا ما التقت راحاتنا إلا مُعزِّينا
لقد مات الأسى فينا!

* * *

الريح عند بابنا
هناك تعوى ما تزالْ
فى صمتها اللجوج فى ارتطامها العنيفْ
بقية من السؤال...
أين انتهت أقدامنا

وكيف أطبق الزوالْ

وانسحقت من خلفنا

يدٌ تطوّق المحالْ

الريح عند بابنا

الريح ما تزال

ووحشة تقيِّـدُ الزمان، تُخْرِس الظلال

وألف صوت قادم من لا مكانْ

فحيحها كأنه مغارة النسيانْ

وأعولَتْ عين... وأطبقت يدانْ

الحزن دق بابَنا

والصمت والملالْ

* * *

لأنَّا ما عرفناهُ

هوى قد كان يملؤنا ونرعاهُ

لأنَّا حينما اضطربت ملامحنا افتقدناهُ

وكان بلَوْنِ رؤيانا

برىء السمت، تطربنا حكاياه

نزلنا عند سَفْحتهِ

وغبنا فى حناياه

وقلنا : نحمل التذكار والأمس الذى فاتا

وجرحا خلف ماضينا دفنّاهُ

لعل يديه تتسكبان أفراحا وميلادا

يُعيد الصحو والأنفاس للوهم الذى ماتا

ولكنا حملناهُ

وقلنا : نسأل الخلانَ عن شىء نسيناهُ

لعل الصفو يُعْوِزنا

لعل الفجر نلقاهُ

وقلنا نعبر الأيامَ والأبعادَ متئدِيْن

عجوزىٌ حكمةٍ شاخت

وعند صحائف الأحزان متكئِين

لتسعفنا بقاياهُ

وقلنا .... آه كم فاضت بلاغتنا وقلناهُ

وحين التفتت عينٌ ورفَّت ما وجدناهُ

لأنا ما عرفناهُ!

(يونيو ١٩٦٣)

اعتـــراف

قف...

لم يعد سواك فى نهاية الطريق ... قف

وذلك الذى حسبْتَهُ الرفيقَ دار وانعطفْ

ودون لفظة الوداع غابْ

لا خَطْوَ... لا ظنونَ... لا ارتيابْ

إلا صدى يئزُّ قبل مطلع النهارْ

ولعنةٌ معادة كأنها دوارْ

لم يَبْقَ فى أكوابهم ما يُحتسى

ولم يعد فى قَبْوهم من يرتشفْ

قف...

لم يعد سواك ينثر المحارْ

فى قاع وهمه المغلَّف القرارْ

ولم تزل يداك عند كل بابْ

تعانقان شوقك البعيد للإيابْ

ورعدة باردة كأنها تذكارْ

وظلك الذى استطال ساعةً على الجدارْ

أراه من حول السنين يرتجفْ!

* * *

يا مُخجلى!..

متى أراك ترفع الغطاء، تكشف الستارْ

عن لون ما تراه فى العيونْ

متى أراك يا مُعَلِّلى

تقول للمسىء: قد أسأْت

لقاطع الطريق: أنت قاطع الطريقْ
متى أراك... لا تهون
لو مرة تقول: أنت
أنت الذى أعنيهِ بالكلامْ
غدرتَ بى يا أيها الصديق
طعنْتنى يا موئلى...
فلا تُدر خطاك... وارفع اللثام
عن وجهكَ المحجّب العميقْ

* * *

يا مخجلى
متى أراك تنفض البلى الذى أصابنا معا
أصابنا فأوْجعا
تعيدنا لجوهر الحياة فى عروقنا
تقول أنت كِلْمَتك
تسمعنى حكايَتك

تزيل عارنا.. غبارَ عصرنا

لأن حقدَنا نما وأمرعا

متى أراك قد خطوت خُطوتَكْ

مددتَ للحياة عزمةً بعمق يأسنا

لم تفقد الرجاء... لم تخف

يا مخجلى يا لعبة الصغارْ

قف... لم يعدْ سواك فى نهاية الطريق... قف

متى تصيح مرة.... وتنفض الغبارْ

متى... متى.... وكيف!

(سبتمبر ١٩٦٣)

تائـه على الخليـج

عند المدى المسدود ألقينا الرحالْ
جَمَحت مراسينا....
لوت أعناقَنا ريحُ الزوال
ماذا؟... وأطرقت العيون
وتحدَّر الصمت الحزينْ
وامتدَّ من خلف الظلال
شىء يشد الراحلين
يلقى بهم فى هُوَّة المجهول، فى رعب المحال

شئٌ كخطوهمو سجين

لم يبق غير صدى لهاثٍ.... وقع أيام ثقالْ

وعزيف لحن خافت... عبر المفاوز، فاستحالْ

بعضَ اصطبار، بعض تأساء، وحشرجة ابتهالْ

يا عابرين متاهة النسيان من خلف الليالْ

يا راكضين مع الشعاب مضرَّجين بلا ملالْ

الهاربين إذا رؤى الماضى تمطَّت فى العيون

أنا بعض رحْلكمو على ظهر السفين

لو أنها طافت على البلد الأمينْ

يا جانحين إلى الخليج... كأنَّ فردوسَ السنين

هبطت به الدنيا على قاع التلال

فإذا الذى يوما ظنناه يُنال

وهم خَريفىٌّ... تسرّب فى الرمال!

* * *

هذا المسجَّى... شاحبا أبدا أراهْ

فى وجهه الزيتىِّ شىء قد تقلص فى الشفاهْ

شىء يغيم... ولا يبينْ

وكأنه ثأر قديم... كم تنوء به يداهْ

وأمرُّ تلطمنى صواهُ... كأنَّ كفيه سؤالْ

أو لعنةٌ جمدت على وجه تسربل بالضلالْ

جمدت وأدركها الملالْ

هذا المسجّى تحت مجداف السنين

فى صمته اللجىِّ قاع سرمدى كالخيالْ

مخرتْهُ أحزانُ الرجال... طوته أنيابُ القرون

يعطى ويمنح لم يزل.... دنيا من الورق الحلال

إلا بقايا ثورةٍ... هو بانتفاضتها ضنين

يا ويحه... خطوى المهين

وأنا أَشد إليه أَيامى... فيدركنى الكلال

هيهات ترتعش الحياة

وهنًا وترتفع الجباهْ

عن حفرة عبر الرمالِ... تشدُّ أعناق الرجالْ!

* * *

يا تائهًا عند الخليج.... يكاد يلفظك الخليج

أبدًا تُهاتى بالحكايات الطوال

وتظل تهرف والأكف تشير نحوك بالجنونْ

فإذا الحقيقة فى عيونهمو خَيال

وإذا التغنى فى قلوبهمو نشيجٌ

والهفتا... لو أنقذتْك يَدُ السنينْ

وعرفت أن هناك شيئًا لا يقال

الوهم يعصف بالرجال!

الكويت (ديسمبر ١٩٦٣)

كلمات للعار

لأنه عارى..

عارى المدلّى فوق أقدارى

أُخفيه حتى لا يمر الزمان

يوماً على أنقاض تذكارى

كى لا تُحَيِّينى طويلا يدانْ

قد ناءتا من رحلة الثارِ

ملقى به نِسّياً وراء الرمال

حتى تعود الخيل بالغار

يطفـــو عليـــه من أســـانا ظـلال

وصـــفـــحـــة شــوهاءُ كـــالقـــارِ

لأنـه عـــــارى الـذى مـــــا يـزال

جـــرحـــا ســـديمـــيًا بـأغـــوارى

وعـــاركم، يـا جـــامـــعـــين الغـــلال

مـن كل حـلقــــــومٍ ومـنـقـــــــارِ

يـا طـامـــعـــين ـ الدهـر ـ غِـبَّ الـزوال،

بعضَ انسكاب الـوهم، بعض الخـيـال

فــى عـــــــــــودةٍ لــلأهـل والـدارِ

يـا حـــاملين الأمنيـــات الـثـــقـــال

عـــبـــئًا توارى خلف أســـتـــارِ

وجـهــا ذليـلا واجـمـا مــسـتـعـارْ

لمَ يـخـــتـلـج فى لفح إعـــصـــار

الأفق كــابٍ... يـا شــذا الـبـــرتقـــال

أزهِرْ وأمـــرع فـــوق أشـــجـــارى

وانشـــر جناحىْ نضـــرةٍ وازدهارْ
عـلـى روابـى حـلـمـنـا الـعـــــارى
الـموسم المخـــبـــــوء، أثقـــالـه
تـنـعـى دواليــــه، وتـبـكـى الـرجـــال
والـهــفــتـــا والـهــدب عــار كــســيـحْ
والموسـم الدانـى خـــصـــيب الـتـــلال
والـهـــفـــتـــا والحـــزن ثاوٍ طريحْ
وقـــبـــضـــتـــاه تنشـــدان المحـــال
وبـــارقٌ طفْنا بـــه.. فـــاســـتـــحـــال
بُقْيَـــا رمـــاد.... لم يـعـــد فـــيـــه روح
لا نـبض فـى عـــروقـــه.... لا جـــروحْ
يافـــا... ومـــازالت عـــيـون الـصـــغـــار
مـــشـــدودةً للشـــمس كـفّىْ مـسـيح
أخـــفـــيـــه فى أعـــمـــاق أســـرارى
لأنـه ـ واخـــــجـلـتـى ـ عــــــارى!

* * *

مَنْ لى بمن يستوقف الحائرين -
يوما إذا ضلوا.... فلم يعبروا
من لى بمن يوقف زحف السنين
تراكمت ثكلى... فلا أُبصرُ
إلا خطايا، عشّشت فى جبين
جاثٍ على الأعتاب يستغفر
من لى بمن يفضح زيف الحنين
إلى ديار فى المدى تخطر
لما نسينا أننا عائدون
وأن يوما قادما يثأر!

* * *

يا شيخنا... فى خيمة الشتاءِ
ذُبالةٌ تهتز... كارتعاشة المساءِ
يَوْماً حملناها... وسار واحدٌ
منا.. يدق أَرض كبرياءِ

ولم نكن ندرى بأن زيْتَها
معلق بلفحة الهواءِ
تنداح منها للطريق شعلة
مخنوقةٌ كشهقة البكاءِ
يموج أَلف فارس... وفارس
على دوالى نورها الظِّماءِ
ويستفيق غافل وهاجع
يعانقان صحوة النداءِ
ولم نكن ندرى بأن دربنا
تقودنا للأمس... للوراءِ
تعيدنا لساحةٍ مهجورة
أنكرت فى شعابها دمائى
تعيدنا للحظةٍ ممرورة
فقدّتُ عند بابها رجائى
حتى صحونا.... فاكتست رؤوسنا

لما اشرأبت.. ومضة العزاءِ

ذبالة كانت لنا ولم تزل

يا شيخنا... فى خيمة الشتاءِ!

* * *

قوافل الحجيج فى العراء ما تزال

عازا مبعثرا على الرمال

عارا مُلحًّا.. كاسف السؤال

يسألنى... يسأل عن رجال

نجيعهم كم خضَّب التلال

وسال يسقى «الكرْمل» الأمين

يا عارِنا... يا عارنا الحزين:

أنا وأنت والكروم والظلالْ

بقيةٌ من السؤال!

الكويت (يناير ١٩٦٤)

دعـوة إلـى النسـيان

دموع بكائنا، وصراخنا المحموم، والأحزانْ
وسرٌّ قد قد كشفناه...
نضوّنا عنه أستارا مضللة وأعمارا
وحدقنا إلى أعماقنا نجلو خفاياهُ
لكل الناس نمنحه، ونُقْعى فى زواياهُ
ونسأله عن الأحباب أخبارا
وكنا نحفظ العهد الذى باحت به شفتانْ
ونملك هامة الرؤيا التى ما طالها إنسانْ

مجنّحة تلامس أفْقَنا الساجى... وترقاهُ

حملناه على أعناقنا حتى ألفناه

وعَوَّدناه أن يُلقى بنا قسرًا ويطرحنا

وأن نجثو إذا صرنا على بابه

وعودناه أن يعصى أمانينا، ويفجأنا

وأن يطغى فنهواهُ...

ألسنا بعض أحبابه!

تلقفناه... لا يرتاح إلا بين أعيننا

وفى أهدابنا عَلقَتْ مُباركةً بقاياهُ

وأرضعناه من جوع السنين ويتْمها العارى

وواعجبا.... تبدلَ ما صنعناهُ

فأمسى محْضَ تذكارِ

وصرنا بعدُ نخشاه

دموع بكائنا.... من ذا يكفكف فَوْرة الطوفانْ

ويمسح وجهنا المطموس بالعارِ

ويحملنا على كفّيـن صامدتين للنارِ

وغافرتين... للنسيان!

* * *

أتينا بابكم، يا أهلنا الأحباب، جئناكم

فهل فى أرضكم عن حُلمنا المخبوءِ أخبارُ؟

طرقْنا، لم نجد صوتاً ولا ضوءًا ولا نأمة

وحين تحشرج الصبر الطويل، وغاضت البسمة

تقلَّص فى جوانحنا هوى مُضنىً وتذكارُ

وفاضت من محاجرنا رؤًى لهفى وأسرارُ

كتمناها وراء الصمت، خوف الصمت يفضحها

وخوف تلفُّتِ العينين فى أحداقنا الجهمة

سنرجع، لا دليل يؤنس السارى ولا نجمة

وقبض الريح والأحزان ما ملكت مصائرنا

ولا وجه يطل على مآسينا، ألا نسمة؟

تعود لتمسح الهدب الكسيح وتغفر الظلمة

ألا إعصار

عتيُّ الخطو، يذرو عن أسانا ما عَلِقناهُ
فطعم الصفو والبشرى نسيناهُ
سنرجع دونما حذر، ووجهَ الموت نختارُ
ونصرخ أَننا ضعنا، وأن الليل غدارُ
ونُلقى فى فم الذكرى عزاءً يائس النقمة
سنرجع دونما ظفر، فقد دميت أظافرنا
وأقعدنا أسًى عارٍ، وَجوع صارخ فينا
وتاريخ قطعناه، وداسته حوافرنا
من الأعصاب والأحزان صُغْناهُ
وعشنا الدهر نكتم فى قرار حلوقنا سهمه
ونطرح عبئنا ملقى على وهمٍ عبرناهُ
وتُسقطه شجًى مرا .... مرائرنا
دموع بكائنا تنهلُّ... لا صوتٌ.... ولا رحمة!

* * *

دموع بكائنا، وصراخنا المفجوع، والتذكارْ
وليل قد حشوناه، ملأناه أَسى وغبارْ

وعِفْناهُ...

وكان عزاءنا المخضوبَ بالشكوى

لعل مآتمَ الأحزانِ تمنح يأسنا مأوى

وتسدل فوقه الأستارْ

سنفسح من مآقينا، ومن أكبادنا سلوى

ونضفى من ظلال الموت، من جدرانه مثوى

لعل الموت يرجعنا إلى شىء نسيناهُ

عبرنا برزخ الموتى.... وطعم الموت ذقناهُ

ومن آثاره الحمقى... حملنا ما حملناهُ

وجئناكم على يدنا بقايا رحلة للعارْ

وألقينا إلى النيران شيئا لاهثا كالنارْ

هشيما نحن سميناه: ما نهوى!

لقد ماتت بقاياهُ

ومات «الليلُ» و «الآهُ»

الكويت (مارس ١٩٦٤)

تحت سماء رمادية

يالىَ!...

وقد تقصّفت على سياجنا جدائل الهشيمْ

وانهار ما خلناهُ مرةً عزاءنا

لما عرفْنا صوتهُ ووجهه الدميمْ

فلم تعد تشدُّنا سيقانُنا

يؤودنا العبء الذى رمى بنا

نسوخ فى مخاضة الشتاءْ

فننحنى...

مكابرين... نُمسك الهواء
عاريةً ظهورنُا
تلَسَعُها سياط كبرياءُ
يا ويلتا وأوجه الأساةِ لا تريمْ
لو كان يجدى مرةً حديثنا العقيمْ!
من بعد أن تمزقت وحشرجت حلوقنا
لعلّهُ يعود صوتُنا القديمْ!

* * *

عينى على نجم بآخرِ السماء
فى هَدأةِ السكون جاس برهةً وغاب
لو يستطيع! مَدَّ لى شعاعتينْ
وأغرق العيون بالضياءْ
لو أستطيع! لو خطوت خطوتين
إذن لبدَّدتْ خطاى قبضةَ السحابْ
وفَرَّ من أصابعى السرابْ

وانكشفت غشاوةٌ عميقةُ العماء

وكيف؟

والطريق بيننا صقيع...

من يوم غاب وجهه الوديعْ

واصطدم الخريف بالشتاء!

* * *

أجناسنا شتى ... حديثنا شتات

لن يسمعَ الذى تقولُ مَنْ سمعتَه يقولْ

فاللفظةُ الوعاءُ أصبحت رفاتْ

ولن يمد طَرْفا من حملْتَهُ وفاتْ

فكل ما تبقى فى أكفهم فُتاتْ

وليس ثَمَّ ساحة.... ولا دليلْ

فبارك الجميع، بارك النعيب والهديل

وغَنِّهم، بكاؤك اليتيمُ أُغنيات!

(يناير ١٩٦٥)

كلمات مرتعشة

منذ أعوامٍ...

وكان الحب يأتى بابَنا...

طارقاً، يسأل عن مأوى وأمنٍ وظلال

لم يكن يخطىء يوما دربّنا...

قادماً... أروعَ من كل خيالٌ

ينفض الفرحةَ فى أيامنا

صلواتٍ.... وحكايات.... وابتهال

منذ أعوامٍ غفونا مرةً

وتحدَّيْنا بكفَّيْه المحالْ

* * *

منذ أعوام غريباتٍ... سحيقة

كان شىء ملء عينيْنا .... صغيرٌ ووديع

هامسٌ... يلمس فى الدنيا طريقه

وعلى كفَّيْه.... أحلامٌ وزهرٌ وشموع

نحن صورناهُ من أوهامنا

وحملناهُ على أهدابنا

طفل دنيانا البديع

نحن أطعمناهُ من جوع السنين

وسقيناه جراحات الحنينْ

وجعلنا شَدْوه قيثارَنا

نَغَماً يطفر من بين الضلوعْ

قبل أن يُفلت منا ويضيعْ!

* * *

لم أزل أرقب فجرا غارقا فى خاطرينا
ضمَّنا يوما، وغنَّيناهُ، فاهتز إلينا
عُدْ لنا... لا تنسنا... فى شفتينا
لك نجوى، وشكاوى، ودموعْ
عد لنا أنت ولو غاب الجميعْ
أنت يا أول حُلْمٍ... وربيعْ!

«٢»

لأنى جئت عُريانا... وقلت ألوذُ فى بابِكْ
ومسَّحتُ الجبينَ الرطبَ فى لثماتِ أعتابِكْ
لأنى لم أزل مستوحشَ الأيامِ والرؤيا
تغرَّب فى عيون الناس، واهتزت به الدنيا
أظل هنا.. أتمتمُ باسمك الغالى.. ومحرابك

* * *

لأنك لم تزل فَرحَى وجوعى السَّاغب الظامىءْ
وسراً ملء أيامى يغلِّف وجهكَ الدافىءْ

وتاريخا من الآباد والأشواقِ والذكرى
أخوض به مسافاتٍ وأطوى نحوه العمرا
وأسأل نفسىَ اللهفى: متى نرسو إلى شاطئٍ

* * *

لأنك أنت تاريخى، وأعماقى، وأسرارى
لأنك فجر ميلادى ووجهُ ربيعىَ العارى
عبرت إليك أياماً مفزَّعةً... بلا معنى
وجُزْتُ إليك أحزان الغريب التائه المضنى
أفتش عنك! كيف! وأنت مخبوءٌ بأغوارى

* * *

ملاذى... لم أزل أهفو إلى آفاقك النشوى
متى يرتاح هذا الخافق الدامى.... متى يَرْوَى
جناحك أين ضمَّتُهُ، وأين حفيف أنسامكْ
ودفء خطاك، والأيدى تبث خفىَّ أنغامِكْ
متى! وإلامَ! إنى أُغرِق الأحزانَ بالسلوى

«٣»

بيتُنا...

غاب عنه القمرْ...

بيتنا...

لم يزل ينتظرْ...

صوت أحجارِهِ

همسُ أَستارهِ

مقعدٌ كان مِلْءَ البصرْ

معبدٌ كنتَ تهفو لهُ

قد نما حبُّنا حولَهُ...

حدَّقت كلُّها تسألُ:

أين يا طائرى ترحلُ؟

أوْجَسَتْ حين طال المغيبْ

وأنا حيرةٌ لا تجيبْ

فى يدى من هوانا أثرْ

يا تُرى، كم يغيبُ القمرْ!

* * *

أمس...

حين استدار الشعاع

ونطَقَتْ الوداعَ...

كان شئٌ حزينْ

غارقٌ فى العيونْ

وانطوى مشهدٌ لا يغيب

وحكايا مساءٍ كئيبْ

غاب فيه القمرْ

حين جاء الصباح...

كان صوت الجراحْ

صوت ماضٍ عبرّ...

فى دمى.. لا يقـرّ...

* * *

صوتك الوادعُ

همسك الرائعُ

بسمة أسكرت مقلتىّ

وسرى دفؤها فى يدىّ

كل شىءٍ هنا...

شاهدٌ أَننا

مرةً قد نعودْ

ويعودُ الوجودْ

فى غدٍ.. حلم عينْ

رعشةً فى يدين

خفقة فى جناحْ

هل يجىء الصباحْ

حاملا غنوتينْ

يا صديق الرياحْ

أَين مسراك... أَين

كم عبدّنا خطاك

خطوةً.. خطوتينْ..

يوم طافتْ يداكْ..

طرقةً... طرقتين

عُدْ إلى عشنا...

عُدْ فإن المنى...

لم تزل تنتظرْ

عُدْ... فإن الحنين

وانهمار السنينْ

واحتراق العيونْ

ظامئ للمطر

عُد لنا... يا قمرا!

«٤»

ماذا أَحكى! ماذا أَحكى!

وعلى صدرى، وبكفّىَّ.. بقايا أطياف الأمس

أشياءُ تغيبُ بأعماقى، وتظل حكايا فى نفسى

ماذا أحكى!

يا مالئتى أسراراً فى طعمِ الهمسِ

لحناً... أُغنيةً... موسيقى

تصَّاعدُ دوماً فى كأسى...

* * *

خَطْوكِ.. هذا التوقيعُ الراقصُ.. هذا المخمورْ

ينزع أعماقى... يغرقنى فى وهج النور

يحملنى خلف شعاعات أندى من لمسات الحورْ

لمسافات.. لمسافات.. أرتاح عليها وأدورْ

خطوك، هذا النغم الهارب من كونٍ مسحورْ

* * *

لو طالت جلستنا.. ماذا كان يقول القلبان؟

اثنان وراء الليل... وراء الأبد الغافى الوسنان

ونسيْمات أندى ما عانق روحى من ألوانْ

وحديث يقطر فى سمعى كلمات نشوى.. بل ألحانْ
حتى لكأنَّ الزمن الهادر كفَّ عن الدورانْ
وانطلقت أمنيَةٌ ظمأى، وارتعشت بالحب يدانْ
وهفا فى صدرينا شىء يمسح تذكار الأحزانْ
شىء يرسب فى الأغوار، ولكن تكشفهُ العينانْ
ماذا أَحكى! ماذا أَحكى!..
ما زالت ملْئى كلماتٌ.. أغلى ما يحملهُ إنسانْ
تصَّاعدُ من عينيك... وتنقلها حتى الجُدران
وخطى تنسابُ مع الأنغام ويزحمها شوقٌ لهفان
وذراعان التقتا مثل عناق الموج أو الطوفانْ
وانسابت فى الضوء الوانى من جُرحينا أُغنيتان
وعطورٌ لا أدرى كانت همس حديث أَم ريحْان!

* * *

ماذا أَحكى...

يا مالكة الفيروز.. ويا دافئة الألوان

يا عبقا عانق أنفاسى.. فجَّر فيهن التحنانْ

يا أعمق أعماقى.. يا واحة خِصْبٍ وأمانْ

سيظل هوانا.. ما دامت فى صدر هوانا رئتانْ

سرًا يحكيه القلب... ولا ترويه الشفتانْ

«٥»

من أى أُسطورة... من أى قيثار

أشعلتِ أُنشودة ظمأى إلى النارِ

يا مرفأً لا تضل النفس ساحته

وكيف يخفى شغافٌ خافقٌ عارِ

رأوْكِ فى كلّ لفظ قد نطقتُ به

وتوَّجوكِ على شدوى وأَشعارى

أبّحتُ أيامهم شجوى.. فوافرحى

أَنى أبحتُ لهم دنِّى وأوتارى

وجئتِ من قاع أيامى على وتر

تهتز أعواده فى كف جبّارِ

يا صورةَ الأبد الحانى.. ويا ألَقاً

مَشتْ خطاهُ على غَيّبى وأعمارى

طيف من الذكرى يسرى بأعتابكْ

إن طاف أو مرّا فى كأس أحبابكْ

أبصرتهم هاموا فى قدس محرابكْ

أرواحهم نشوى ظمأى لأعتابِكْ

يا ليتنى أبقى وحدى.. على بابك

عيناك فى خاطرى دوما وفى خَلَدى

دنيا كنوز وأشواقٍ وأسرارِ

يا صَوْتَهَا فى ضميرى: لم تزل نغما

يفجّر الشَّجْوَ فى أعماق أعماقى

ويا خطاها على سمعى موقّعةً

كأنها نبضُ أرواحٍ وأشواقِ

ولفتَةً من حياة لستُ أذكرها

إلا كما اكتحلت بالنور أحداقى

وأسـتـفـيق على عـينيك، يا حُلُمى

ويا مـــزامـــيـــر أيامى وأوراقى

وبارقًا كم سـقـانا خـمـر نشـوته

رفـقـا بألأفِهـا يا أيهـا السـاقى

مـــاذا لـو اتحـــدت أبعـــادُ غُرْبتنا

وطوّف العطرُ فى وهمى وآفـاقى!

«٦»

إلـيـكِ اتجَّهـتُ : خـطـاىَ.. يـداىَ..

وأطيـافُ وهمى الجـريحِ الحـسـيـرْ

وأنشـــودةٌ نســجـــتْهـــا الظـلالُ

على مـعـبـدٍ فى خـفـايا الضـمـيـرْ

تلفّـتُ حـيثُ اسـتـبـدَّتْ خطاكِ

وأطرقْتُ حـيث اسـتـراحَ الأسـيـرْ

وحـــيث أضـــاء بأغـــوار نفْسى

هـوىً عـاصفٌ، صـارخٌ، مـسـتجـيـرْ

تسـرَّب حـتى القـرارِ البـعـيدِ

وأشـفق حـتى الـرجـاءِ الأخـيـرْ

ولم يبْق حـــوْليـــه إلا شـظايا

تـخلَّفْنَ بعـد انتـهـاءِ المســيـرْ

وكـيف احـتـوائى لصـمْت الليـالى

وليْلُ المحــبــين قــاسٍ ضــريرْ؟

* * *

إلْيكِ.. وقـــد كُنْتِ أغلى العطايا

ومــازلتِ أغْلى الكنوزِ الثــمــينهْ

وأخلدَ مـــا وَقَّعَتْ من لحـــون..

بأسـمـاعنا : أمـسـيـاتُ السكينهْ

إليكِ.. وقـــد كنت عِطر الليــالى

رحـيـقًا على شـفـتى تسكبـينهْ

ومـــازلْتِ أكـــبـــر من ذكـــرياتى

وأبقى من النور إذْ تمنحـــينهْ

ومــــازلْتِ أعـــمقَ من أغنيـــاتى

وأضْواً من خــــاطراتى الحـــزينة

ويا مـــرفـئى من وراء العـــبــاب

لقـــد آن أن تســتـريح الســفـينة!

* * *

هنا مـــوضـــعى .. صـــوت أقـــدامـــيـــه

هنا خـــفـــقـــةٌ .. فى دمى باقـــيـــة

هـنـا شـــجْوُ مــــا فــــات من عُمْرنـا

وبــــات يُحــــلّقُ فـــى وهـــمـــنـــا

ضـــمـمْناهُ قـــبل اشـــتـــعـــال السنين

وقــــبـل تشـــــتُّتِ أحـــــلامنـا

حـــــملناه ذكـــــرى، ورؤيـا .. ودنْيـــا

تُفــــجّرُ أعـــــمـــــاقَ أعـــمـــاقنـا

ولم ننْس قـــبل افـــتـــراق العـــبـــيـــر،

وقــــبـل تـفــــرُّق أقــــدامنـا

حـكـايـةَ يـومٍ.. وعُمْرٍ .. وفـــــــــجْرٍ
أضــــاء علـى أفْق مــــيــــعـــادنـا

شهيد الكلمة

لم يكن شيئا غريبا

لا،

ولا كان رسولا فى يديه المعجزةْ

لا، ولا باركت الشمس جبينَهْ

كان إنسانا..

ودودًا كالنسيمْ

دافئا كاللمحة المتَّقدةْ

---

* «إلى روح نسيب المتنى، الصحفى الشهيد ورمز الثورة العربية فى لبنان».

عاريًا كالأَرْزِ... معروقًا كلبنانَ المُدَمَّى
حاملا فى قلبه الغائرِ دنيا موصدة
وذراعا مُجهدةً
وكما تولد فى قلب العراء الأمنيةُ
ثم تنمو...
فإذا الحب جناح
وإذا الإِصرار قلب
والبطولاتُ ذراعٌ...
وكما يولد بعض الناس ميلادًا جديدا
وُلدت قصة ثائر..
حاملا فى شفتيه الكلمةَ!

* * *

يا شهيد الكلمةْ...
أصبحت بعدك ثأرا ولهيبا
أصبحت تسحقُ «نيرون» وتبنى كلَّ «روما»
أصبحت تغسل بالنور الدروب المظلمة

والقلوبَ المعتمة...

ولكىْ تصمد فى الريح الحروف العاريةْ

ولكى تبقى جسورا فى فراغ الهاوية

ولكى تمتد من خلف الدجى كفٌّ مضيئة

تلد الأشواق والأفراح والرؤيا العجيبة

تصبح الأرواح والآجال أدنى تضحية!

ولكى تبصر فى الضوء العيونُ الوانية

ولكى تورقَ فى الأرض العروقُ الذاوية

أوْمضتْ طلقةُ غادرْ

طلقة توقف قلبا

طلقة توقظ شعبا

فإذا لبنان ثائرْ

وإذَا الأرض بشائرْ

وإذا الأحرار ملتفّون حول الكلمة!

* * *

عندما يصبح كلُّ النور أن توقد شمعةً

فوق أحزان بلادى

وترى الكون عناقا ووداداً ومحبة

رغم أثواب الحِدادِ

وتعيش الغد مبهورا كأن العمر رغبةٌ

عندما يصبح كلُّ النور أن توقد شمعة

فى ليالينا الطويلة

عندها...

يصبح الهمس... بطولةً!

(اغسطس ١٩٥٨)

الحصـــاد

أُجهدتا من فرطِ الظلمةْ
عينانا ... فلْنُغفِ الليلةْ
وسلاما ياليل الرعب!
مازالت فى فمنا كلمةْ
كانت بهوانا مُبتلَّةْ
يومًا لا يذكرهُ قلبى
وبصدرِيْنا ...
حلمُ الأطفالْ

فى ليلةِ عيد

وبقايا ألوانٍ... صبغتْ

روحَينا... فى ذاك الدربِ

أُجهدتا من فَرطِ الظلمة

عينانا... فلنُغْفِ الليلة

وسلاما... يا ليْل الرعبِ

* * *

«الليلة»..

ما أبعدها... تلك الليلة!

جفَّت حبات العرقِ

نضبت صرخات الدَّم

لكأنَّا لم نقطع عمرا... لم تحفر قدمانا خطوة

لم ترشف شفتانا نهلة

ما أبعدها! ما أبعدها! صارت ليلةٌ!

سقطت من وجهيْنا البسمةُ

غاصت قدمانا فى الوحْل

لم تترك أيام أسانا

ضوءًا يثقبُ هذا الليْل

طارت ساقانا فى الريح

وتكشَّفت الأغوار الضَّحلةُ

وتعرَّى وجه الأشياءِ

ما أضيعَ أن نبنى فى الثلج!

وأمَامى الكلمات الرطبة

ماذا يُجدى....

أن تنفخ نارا فى الموج

ماذا يُجْدى...

مصباح تخنقهُ الكُوَّة!

لا قيْدَ يُكبِّل روحينا

إلاَّ قيْدٌ فى روحينا

قيدٌ يجذبنا للأرضِ

يجمع عينينا... والهَفَا

يجمع عينينا فى الغمض!

ولأنكِ لم تدْرى أبدا

معنى أن تولد أشياءٌ لتموتْ

لم تُزْهر أبدًا... لم تثمرْ

لم تترك أثرا فى اللَّوْحِ

لم تعرف ما سرّ الشكوى

لم تدرك ما طعم البوْحِ

أشياءٌ ماتت

مازالت...

أعمق أخدودٍ فى جرحى

ولأنكِ لم تدْرى أبدا

معنى أن يلتقى اثْنانِ

ويغيبا فى وهج اللمحِ

ستظل مدينتنا مُرَّة

سوداءَ تعشش فى الصبحِ
سنظل نضيع مع الحسرة
لا قيْدَ يكبّلُ روحينا
إلا قيْد فى روحيْنا!

* * *

كانت حبّات النور ترشُّ ليالينا بشرى
تهمى...
تسَّاقط فى قلبينا
تنشر آمادًا منغومة
ورذاذ الأشواق الحرّى
يحفر فى صدرينا جُرْحا
وخطوْنا فى الظل الوانى
نصنع من شبحيْنا شبحا
كلُّ اللحظات عصرناها
ورشفناها قَدحًا قَدحا

- «قل لى إنك لن تتسانى»

- هل ينسى عصفورٌ وكرُه؟!

- «قل لى أىّ غدٍ موعدنا؟»

- أوَلَمْ تلمس كفُّكِ فجره!

- «قل لى كم تهوانى.. قُلّها»

وأضاءت عينينا نظرة...

الأيام ازدادت عُمقًا

سِعةً ... زادت ألوانا...

ونقشنا فى قلب الصخرةْ

اسميْنا.. فانبجست قطرةْ

من وهج الضوء

وانهارت كلُّ الجدران

إلا سدٌّ...

سدٌّ واحد..

يغرس فى قلبينا الظلمة

سد لم تصنعه يدانا

سد فى روحينا

فى روحينا...

* * *

أن يصبح فى فمنا نغم واحد...

أن يخنقنا ومض اللهفة

أن تلفحنا الشمسُ طريدين يجوسان الدنيا

ميلادٌ حلو...

فلنُعْطِ الأيام مداها...

ولتأخذ كلُّ الأشياءِ طلاوةَ ما فى الأشياءْ

ولنحملْ قدرًا يدفعُنا

أن نحيا...

رغم الآلامِ!

أن نمضى...

عبر الأيامِ...

أن نحياها ...

أن نبتهجا ...

(يناير ١٩٥٨)

من فدائى إلى صديقته

لم يترك لى وهَجُ الأيامْ...
إلا شيئيْن
شيئين اثنين
عينيك، وإيمانى بالغدْ
وبأن غداً سيمرُّ.. ومازلنا يجمعنا وعْد
أن نحيا فى أرض النور
أرض الإيمانِ الهادر بالدم
وبعينيكِ أراجيحُ القلق الصَّخَّاب

وضراعاتُ اللاهثِ من هُوَّات الغدْ
لا تأسىَ إن الركب يمرّ
لا تنسىَ.. موعدنا الفجرْ
ولقد أرجع من غير ذراع
أو ساق ديست فى المنحدر الوعرْ
من غير فمٍ يملك بسمةْ
من غير ذراع
أرفعها لتقول وداع
لكنّى يوماً سأعود
ومعى أغلى ما تركته الأيام:
شيئان اثنان..
عيناك.. وإيمانى بالغد

* * *

أنا فى خندقىَ الرطب المقرورْ
ألتمس الدفء

سكن العالم
سكنت أنفاسُ الظلمة
حولى، واندّاحت أصوات الليل المذعور
وتعانقت الآفاق المهجورة
فى حضن الصمت..
سكن العالم..
حتى موجات البحر المنسحبات
تتعانق والشاطىء إلفين غريبين
جمعت بينهما آلام الغربة
وتكاثفت الكثبان المقرورة
وتلاصقت الأشياءُ بحضن الأشياء
وأنا مقرورٌ
الكون مخاضٌ تزخر فيه الرغبة
بحنين لغدٍ آخر..
شوقٍ لحياة ممدودة

وأَنا ورفاقى ننتظر الطلقةْ
حتى نزحفْ..
وذكرْتُكِ حين ذكرت الدفء
يفترش بقاعاً أخرى من هذا العالمْ
يغمر أياما لم يزحمها ظلم الإنسانْ
ماذا لو أطرقْتُ على كفَّيك أرودُ حدود المجهولْ
ماذا لو ضمَّتنى عيناك الدافقتان محبة
وأضاءتنى أنوارُ أمل..
إشراقةُ حب
ترنيمة قلب
ماذا لو غنّينا.. لو غنينا..
حتى نَفْنى فى اللحن الممراح
حتى نملأ وَجه العالم بالفرحةْ
حتى نُغرق وجهينا فى وهج الضوء
ماذا .. ماذا ..

مازال كثير..

ماذا لو تركونا نحيا!

لم تنفدْ أُمنية الغائب

أُمنية العانى المقرور

مازالت يا دنيايَ سطور

لا تأسىْ.. لم أُقتلْ بعدْ

سأراكِ غداً.. إن جاء الغدْ

ما أَبعدنا.. يا صبحَ الغدّ!

* * *

وأَتى الطوفان..

يهدرُ من كل الأبْعَادْ..

يا وَيل التاريخ الدامى..

يا وَيل طريق مطلولٍ بدم الأحرارْ

خُضناهُ من الأبد الأوّلْ

يهوى فى يدنا... ينهارْ

وأَتى الطوفان ..

يمنعنا أَن نلقى الغد ..

يهدم عشا من أحلام هوانا البِكْر ..

يحرمنا من طفلٍ .. يلهو .. يعبثُ فى صدرِك

وتناغيه يداك الحانيتان

وتعودان ببسمة ثغر

هل هذا العالم إلا ومضة ثغْر !

* * *

سأراك غدًا

وبقلبى أُغنية لم أُنشدها لك بعْد

أُغنية الجيل الزاحف نحو القمة

أُغنيةٌ من لفح ليالينا الجهمة

إنا والمجْدَ على موعدْ ..

الدرب اتَّضحت للسَّارين

وتكشَّف لون المنحدراتْ

من كل خنادقنا الرطبة

أبدًا نصعد

المارد هزَّ قيودَ الصمت

أطلق عينيه لكل النورْ

لم تبْق سدودٌ تمنعنا عن خوض الموتْ

لن تسَّاقطَ هذى الظلمة إلا بالظلمة

وبكت عيناك ..

عيناك الهائمتان بوعدْ ..

أن تلدا الحلم المشهودْ

ما أحلى أن نوقد شمعة

فى طرف رداء ..

ونخطَّ كُلَيْماتِ الأضواء

ونعطر بالدفء رؤانا

ونناغى أغنية سلام ..

وانسكبت فى قلبى دمعة

ولأن غدا لم يبسم بعد

سأراك غدًا ..

ومعى أغلى ما تركته الأيامْ

شيئان اثنان

عيناكِ.. وإيمانى بالغدْ

(نوفمبر ١٩٥٦)

بغداد تثـور

شىءُ يولد كالأسطورة

يولد فى أعماق بلادى

شىء يا عينى المبهورة

يتفجر فى وهج الشمس

أرض صامتة تتكلم

كف بالأفراح تسلم

ويدٌ غطاها أَلَقُ الدمْ

ترفع أعلاما منشورة

تحمل للعالم صوت سلام
ممرورٍ بدم الآلام ..
يا صوتا ترفعه بغدادْ
فتعود ليالى الميلادْ
يا صوت الميلاد الأخضرْ
تطلقه بغداد الثورة ..
ما زالت أرض الأسطورة ..

* * *

قدماك المجهدتان تخوضان الحوْمة
وذراعاك تتوءان..
والصدر العارى المجهودْ
وهواجس تُولد فى الظلمة
ورجاءٌ يولد ثمَّ يموتْ
يغرق فى ليل الأحزانْ
لكن الفجر المشهودْ

مازال قريباً.. كالبسمة

فى ثغر وليدٌ ..

مازال يطوّفُ فى «وهران»

فى جفن شهيد

مازال الفجر المشهود

مازالت ترقبه عيْنان

يخبو.. يخبو.. ثم يعود

قدماك المجهدتان

قدماك تطيران..

وتخطّان

الخصبَ.. وأيام الأعيادْ

فى أرض الفرحةِ.. فى بغداد!

* * *

بغداد تثورْ

فترفرف أفراح النورْ

يا قريتنا النائية الخضراءْ
يا أفقا مازالت فيه آثار دماء
يا ألف جناز من احبابى.. من أَغلى الأحباب
هانوا ..
كانوا يوماً عنقود شبابٌ ..
الأيدى العاريةُ الصلدة ..
والقامات السُمّر الممدودة
والألق الوهاج الدامى ..
غابوا .. لكن.. أىّ غياب!
حدَّثْ يا ليل الأحزان
حدّث عن أحلامٍ جفّت فى عينين
وصبايا خلف ثياب العرس
يصنعن مآتم كل الناس ..
يبكين طلوع الشمس.. مغيب الشمس ..
وحكايا كل زمان ..

يا أرض الأحزان المرة ..

ماذا فى تاريخك .. إلا

ليْلُ الإرهاب الكابى ..

ماذا .. غير دم الأحبابِ

يُنبت فوق دروبك ثأره

يا أرضى.. يا أرض الثورة

فلينشقَّ خليج العربِ

ولتخرجْ كل الأصدافِ

مازالت لؤلؤة تُغفى

فى القاع المطمور الخافى!

* * *

شئٌ يا عينى المبهورة

يتفجرُ فى وهج الشمسِ

شئ يولد كالأسطورة

(أغسطس ١٩٥٨)

يامغرب

يا مغربٌ ..

عانقْنَا صوتَكَ لما لعله فيه الدمْ

يا مغرب ...

أَبصرْنا رَكْبَك لما صارع حدَّ الوهمْ

يا مغربٌ ..

إنا فى تيارك ننثالُ على الجبهات الشمّ

يا مغرب ..

---

* «إلى أبطال الثورة العربية فى الجزائر»

ثِقْ بالشعب الزاحف نحو القمة ..
ثقْ بدماء الجثث المندفعات الجهمة
إنا حطَّمنا ماضينا الأسود،
حطمنا الظلمة
سنسير .. سنكبو ..
سنواصل هذا المرْقى
لن نستسلمْ ..!

* * *

الثورة يا وطنى فى كل شعابِكَ،
فى جنباتِك ..
نبعتْ من كل دروبِك ..
من منحنياتك ..
غسلت بالنور ضحاياكَ
وغطتْ لون الأفق الغربى ..
هذا الأفق الكابى المعتم ..

أفق الحرية ..

مازال هناك وراء جبال المغرب

يفهق بالدم ..

مازال يعانق فى «يافا»

أطيافَ الكرْمْ ..

مازال يجرجر من «يافا»

أيام الظلم ..

مازال يُسوِّرُ أرضَ النورْ

بقيود الرعب ..

مازال يلاحق قَرْصَنَة القرن العشرين

وشراذم حراس الحرية!

مازال يداوى بالخنجر

طعنات الخنجر !

مازالت طلقات المدفعْ

فى قبضة حراس الحرية

تَتَصَبُّ.. تلاحق دنيا «ميّ»

وتكوِّرها جنب الكرمة

أنفاسًا هدأت .. وتهاوى

حوْليْها قلب غضٌّ .. حيّ ..

لم يعرف أبدا غير الحب

الوادع خلف مدارج «يافا»

روّتْهُ عناقيدُ الكرمة ..

نسجته غصونُ الزيتون

غرست فيه أمانَ الأرض

حُبَّ الإنسان ..

لون الفرحة ..

أشياءٌ غابت عن هذا القرن العشرين

هذا الأفق الكابى المعتم ..

فى المغرب .. فى الأرض الخضراء ..

حشدٌ يلطم صدر الهضبة ..

صدر المنحدرات الوعرةْ ..

قل للقرصان السَّاكر بالدم

ماج الأطلس ..

ماجت موجات البحر الشُّمّ

هجم الإعصار الداوى بالموت

سقطت كل قلاع الظلمةْ

قل للقرصان السَّاكر بالدم

لم نطلق كلَّ قوانا بعد ..

مازال كثيرٌ ..

لم ننضب بعْدُ ..

فلتُقبل أيام الظلمة ..

فليسودَّ الليل الباقى ..

فليتحول كلَّ العالم

ظلماتٍ راعدةً جهمة

فليسقط كلُّ مغاوير القمة

. وليتدافع كل الموكب ..
سنظل نسير ولا نصعد
سنناضل من أجل الغد
من أجل حياة الأطفالْ ..
لم نتحول يا وطنى أقزاما يخنقنا الرعد
من أجل الكَرْمةِ يا وطنى
يعتصر دواليها غرباء ..
من أجل الجثثِ المنحدرات وراء التلّ
جفَّت .. همدت .. لبّت ..
يا وطنى صرخات الدمِ
فلتتلاحق .. فلتتلاحق .. يا وطنى أيّامُ الظلمْ
ما زال بكل شهيد يهوى فى ساحاتك فمْ ..
مازلنا ..
مازال الإصرارُ العاتى ..
لم ينضبْ دمّ ..
فإذا مروا بقبور الجيل الزاحف،

مروا فى الغد ..

لن تبخل أيديهم يا وطنى

أبدا بعناقيد الورد

لن تبخل باللمسة فوق جدار القبرْ ..

وسيأتون لنا بالسَّعف الأخضرِ فى لون الفجرْ ..

وبأيديهم عبءُ النصر ..

وسينهض ذاك التاريخُ الدامى

ينهض من تحت التُّرْبْ ..

ويمرُّون بهذا القبر .. وهذا القبر ..

ويقولون :

كانوا أحرارا .. لم تقتلهم أبدا أيامُ الرعبْ

كانوا أبطالا..

لم يقفوا أبدا عند حدود الوهم

كانوا آباءً ..

عرفوا أن طريق الإنجاب .. الدم!

* * *

يا وطنى ..

ثق بالشعب الزاحف نحو القمة

ثق بدماء الجثث المندفعات الجهمة

إنا حطَّمنا ماضينا الأسود

حطَّمنا الظلمة ..

سنسير .. سنكبو ..

سنواصل هذا المرقى ..

لن نستسلم ..

(مايو ١٩٥٧)

الخـلاص

«١»

كنا نظنُّ دمعةَ الشتاءِ تمنح العُصاةَ مغفرةْ
وتغسلُ القلوبَ من مرارة التذكارْ
لكننا حين عبرْنا مَفْرقَ الطريق
وارتعدت فرائصُ الخُطَى، وجفّتْ الحلوقْ ..
وراح يشرئبُّ فى أحداقنا النهارْ
لما تهاوت السنون
واختلط المغيب بالشروق..

تساقطت ذنوبنا ..
كأنها على جبيننا مسمَّرة
وغاص فى أحشائنا، فى عُمّق ذكرياتنا
تردُّدُ الأسى.. وشَهوةُ الجنونْ
وليس ثَمَّ واحةٌ.. ولا سكونْ ..
سوى ضجيج المقبرة !

«٢»

كانوا يقولون لنا ـ فى معرضِ النصيحة المُجرَّبة:
الفجرُ آتٍ، فاغمسوا أقلامكم، وعانقوه
وطهّروا بالحب لحْظةَ النقاءِ والصفاءْ
وكلُّ ما عَرفْتموه من حقائق الحياة مزّقوه
ولا تقولوا كان بين دفّتىْ كتاب ..
فباطلٌ ما تَدَّعونَ.. باطلٌ ما تعرفونْ
وليس غيْرُ ذاتنا المهذبة ..!
غوصوا إلى الأعماقِ خلف حكمةِ الأشياء

وكلّ ذرّةٍ تجولُ فى معابرِ الفضاء
وانسوْا همومَ عصركم..فكلُّها يهونْ
إن قيسَ بالذى مضى!
كانوا يقولون لنا.!
هل قائلٌ لهم بأنَّ فجرَهم قضى !
وآنَ أن يُعانقَ التراب ..
ويْلى.. من الحناجرِ المدرَّبة !

* * *

«٣»

كرهْتُكُم .. كرهْتُكُم ..
يا مَنْ خطاكُمو تشلُّ خُطْوتى ..
ولم تزل أصداؤكم تُميتُ صرختى ..
يا طالما وقفْتُ عند بابكم ..
تلكَّأت رُؤاىَ فى رحابكم
وما غنمتُ غير ساقطِ الحديثِ والمتاعْ

وعُدّتُ فى يدىَّ بضعة من الرَّمادْ

ومسبحة ..

وفى جرابىَ العتيق مكحلة ..

وألفُ صوتٍ لم يَعُدْ يُبين ..

يا طالما تمسَّحتْ عيناىَ فى أهدابكم

أقول : زادى أنتمو وأىُّ زادْ !

يالى من السقوط والضَّياع

الويْلُ لى ..

أكلَّما نطقْتُ او صرختُ .. كان صوتُكم؟

وكان سَمْتُكم!

متى أقولُ ما أريد أن أقول !

ويْلى من الحديث الميِّت العقيم

ويْلى من الوجوه فى قناعها القديم ..

شاهَتْ.. ولا تريدُ أن تحول

فألف نَصْلٍ خَلْفها يجولْ

يا مَنْ تسللتُم إلى دثارىَ المهيب
حشوْتموهُ من فضولكمْ
ومن فُتاتِ ما تعافُهُ العقولْ
ومن تسلُّلِ الرَّمادِ فى الحريقْ
كرهْتُكم.. كرهْتُكم
يا مَنْ حَجَبتُم عن جبينىَ الشروقْ
إنى على مشارفِ الطريقْ
أبدأُ من حيْثُ انتهت خطاكُمو
من صَخْرةِ المضيقْ !

(يوليو ١٩٦٥)

فلتنزل الستار

يوْمًا خرَجْنا
نحملُ الحياةَ فى أكُفّنا ..
نديةً وجوهُنا بلمْسةِ الأمانْ
نجمعُ من حصى الدروبِ كَهْفنا
ومن معاولِ الشتاءِ قَمْحنا
ونُوصدُ الطريقَ فى مفازةِ الأحزانْ
بالسذاجةِ الخُطى وغفْلةِ الصديق ؟
نسألُ كيف غاب قاطعُ الطريق !

وأخطأتْ صُدُورَنا يدُ الجبانْ

وكيف لم تُشعل أصابعُ الزمانْ

لواعجَ الأحقادِ.. والحريق؟

كيف نجوْنا من تعدُّدِ الوجوهِ والألوانْ

يومًا خرجْنَا ..

شوقُنا الطفْلُ يداعبُ النسيمْ

ويُنبتُ السلامَ فى دُروبِنا ..

وحين عُدْنا ..

لم يكن يهتزُّ فى جِرابنا القديمْ

غيرُ بقيةٍ من الأسى..

وهيكلٍ من الرّجوم ..

وغير بسمةٍ تساقطت

ولم تعدْ على الشفاه ..

نقولُ حين غاب عن عيوننا البريق

واصطدم التيار بالفريق

وضاع شئٌ من قلوبنا وتاه :
أهذه هى الحياة؟

* * *

حين شككْنا .. لم نجدْ ما يسترُ الجبين
تهاوت القلاع والحصونْ
واتّأدتْ خُطَى المشرَّدينَ فى التخوم والقفار
تسأل: هل تفرّق التتار؟
وانداح طوفانُ الظنونِ الموغلاتِ فى السَّديمْ
يَنهشُ فى عُروقنا
ورفَّ طائرٌ على عُيوننا
يُنَقّرُ البياضَ والسَّوَاد
ويهتك المستور من صحائفِ الميلاد
يا وَيْلَنا
مِن ضجعةٍ على الثَّرى ورنوةٍ إلى النجوم
وليس فى أعناقنا

سوى تصدُّعِ الأسى، وطَوْقُه القديم

يشدّنا..

إلى مواكب الحِدادْ

إلى منابر النِّزالِ والجِلاد

وَحوْمةِ الظُّنون

حين شكَكْنا.. لم يكن! هل ثَمَّ ما يكون؟

ألم تزَل بقيةٌ رصينةٌ

من ماءِ وجهنا المهين ..

نريقها على الحُطامِ والهشيمْ ..

وحيثُ يقبعُ الظلامُ.. لا نهارْ

فلتنزل الستار!

* * *

ألفاظُكم فضفاضةُ الحروفِ والصفاتْ

كأَنها ثياب ميِّتٍ بلا رُفاتْ

يا ليت ما نقول كان قَدْرَ أُمنياتِنا ..

وصَوْتِنا الذى أُريقَ فى مسيرةِ العَويلِ وَالصِّياح
كنا غَفَرنا دمعةً تخوننُا
أو صبوةً هوجاءَ تعشقُ الفُتات ..
يا ليت ما نقول كان محض ذكريات ...
يلوكُها الليلُ ونُلقيها على مسامع الصباح
ياليت ما نقولُ كان شائهًا وزائفًا
إذن لمات واستراح ..
لكنه نُباح !

(يونيو ١٩٦٥)

من سفر أيوب

عـــــذبْتنا : كنّا نظنُّ الأسى
يمحو الأسى الماضى ويُنْسيهِ
تراكمتْ يا ربّ أرزاؤه
وانْبهمتْ عنّا معانيهِ
كيف التقى فى جوْفنا حاضرٌ
وغابرٌ ولّى، وآتيهِ
وكيف أصبحنا له ساحةً
يعبرُنا.. لكنّنا فيهِ

يوْمًا حــــملْناهُ إلى حُفْـــرةٍ

مطمـــورةٍ فى السّفح نُخْفـــيــهِ

لكنهُ حـــين انتـــهى رَحْلُنا

تسلّلتْ فـــينا غـــواشـــيـــهِ

يجـثـو الأسى الماضى على بابنا

تُمـــيـــتـــه الذكـــرى وتُحـــيـــيه

ويقـــــبعُ الآتى بطـوفـــــانِه

عند ظلالِ الشكِّ والتِّيــــــهِ

عـــذّبْتَـا.. أكـــلُّ هــذا الأسى !

أمـــا انتـــهــينا من ليـــاليــه !

العَيبُ فــــينا ! أم بأقـــدارنا !

أم فى زمـــــانٍ لا نُجـــــاريهِ !

يداكِ تَتْقُلان فى يَدىَّ.. رأسُكِ الصغيرُ يستديرْ

تساؤلاً.. مُفزَّعَ الظنونِ والمصيرْ

تمزَّقتْ غشاوةُ الغرام ..

وارتطمتْ أقدامُنا بالمنحنى

يا ويْلنا...

حين التفتّنا بعدَ لأيٍ، نسألُ الدروبْ

عن مكمن الطِّعانِ فى جُنُوبنا

كانت رؤُوسنا تؤجُّ بالضرام

وتقذفُ الرَّماد فى القلوب..

ويلاه حين يسقطُ اللِّثام

عن أُفعوانِ الرغبةِ الضرير

ينهارُ وهْمنا اللّجوجُ، يُسرعُ الختام

إلى فُصول زيْفنا

تغوصُ فى حُلوقنا

سنابكُ التذكّر المريرْ..

وخيبةٌ بعُمْق كبريائنا!

لو مَهربٌ من العيون، من تساقط الظلامْ

لو رَجْعةٌ تُعيدنا لطُهْرنا!

تمسحُ عن شبابِنا المقوّسِ السنين
الغائر العينين فى القَتام :
ضراوة الأيام.!
كنّا حملْنا عبئها الثّقيل طائعيْن
دون أسًى يَعُوقُنا، دون انتظار
للقادمِ الخبىءِ فى الأعوام..
كنّا مددْنا فى شعابها اليديْن
وامتلأتْ صدروُنا بزَهْوة النهارْ
ويلاه من تراكمِ الغبار !
....
يداكِ تثقلانِ فى يدىّ، وهمنا المُضرّجُ الحسيرْ
يدفُعنا .. أقدامُنا تسير ..
تغوصُ فى مناكب الزّحام
فهل نقولُ: أين؟
لو كان يُسعف الكلامْ !

(سبتمبر ١٩٦٥)

العيــون المحترقــة

العــرى

من أجلكِ، أنفُضُ هذى الكلمات، وأتعرَّى
أخلعُ عن نفسى أقنعةَ الكذبِ العاهرْ
سقَطَتْ تحتَ الأقدام المُلتفَّةِ والملتحمة
لمَّا التصقت رُوحانا، جَسدانا،
أغمضْنَا أعيننا الحَيْرى
غِبْنا فى وهج اللحظاتِ المحتدمة
ساعتَها، أشرَقَ فينا ومْضُ الصّدقِ الباهر
كاللّمحةِ، أشرقَ، ثمَّ خَبَا

وتدافعتِ الأشواق الحرَّى

* * *

عيناكِ تقولانِ: تقدَّم
لكنَّ يديكِ تصلبتا سدًّا يفصلُنا ويعذِّبنا
عيْناكِ تقولانِ: تنعَّمْ
لكنَّك تَتْفلتين وتَتسجين وتمْتنعين
دلالاً، وهُروبًا مفضوحا
أم تلك بَقَايَا مازالت تُثقلُ قَاعَ النَّفْس
خلَّفَها الزمنُ العاتى دَمْعًا لم يَتحدَّرْ بَعْد
حتَّى لكأنَّا فى مأتم
أسمعُ فيكِ عُواءَ الدم
لكنَّكِ تصطنعينَ وقارَ الحكْمةِ والعَقْلِ الممتل
يهذى بالألفاظِ الكاذِبة، الباردِة، الجَوفاء
تتعاركُ أو تتناغمُ، ما عاد يهمّ!
فالكلُّ سواء!

ها أنتِ معى، تُقْعينَ على بُركانِ الرَّغبة
لاتخشين سوى أن ينكسر الحاجزُ، تتهاوى الأسوارُ،
تصيرى امرأةً مسعورة
تتفجَّرَ رغبتُك الحبلى بعذاباتِ العُمْرِ المزموم الشفتين
وتفيضَ ينابيعُ البهجةِ فى دنياكِ المقرورة
ها أنتِ معى ، أتسمع صوتَ العطشِ الساخن،
صوتَ هواجسكِ المذعورة
جذبَ القيعانِ العاريةِ الظمأى
فمتى تنطقُ شفتاكِ: تقدَّمْ
أنزعُ عنكِ قميصَ الخوف
وأمزقُ وجهَ الأوهامِ المبتورة
فالعرىُ الكاملُ مولدنا، وحقيقتنا، وتلاقينا
ولتسقط أقنعةُ الزيف!

* * *

لو أنى عشتُ العمرَ على بابكِ

ما خمدَ الشوقُ، ولا انطفأتْ نارُ الغربة
ولظلتْ سفنى المبحرةُ إليكِ تنوءُ بأثقالِ الترحال
جوعًا تتضورُ أو ظمأ
يا من يسقينى من خمرك
يقذفُ بى فى منهلكِ الساجى المتدفق
أرشفُ، أرشفُ، حتى أسّاقطَ إعياءً أو تخمة
وأعودُ فتحملنى الأشواقُ ويثقلنى عبءُ الرغبه
من أجلكِ، أقتحم الليل ، وأعبرُ ساحاتِ الحمقى
المنتظرين بأعتابك
وأخوض وجوهَ المبهورين، الممتثلينَ لأهدابك
يرجون الإذنَ، لعلَّ حديثًا منكِ، لعلَّ إشارة
أو حتى ظلا من بسمة!
من أجلكِ أصبح هذا الفاتكَ فى ليلِ الأسطورة
هذا الوجهَ اللامعَ فى قلبِ الصورة
هذا العارىَ، فى هذى الصفحاتِ المنشورة

الغـربـة

أوشك أن أسقط فى تيه الكلمات
فى قاع الحزن الغائر فى فلوات النفس
يجرفنى هذا السيل الطاغى من فضلات العصر
ينزعنى من أرضى..
يلقينى فى وجه العمر
ظلاً مرتجفا، مخذولاً، مقرور الهمس
يغرسُ سكينًا فى قلبى
يدمينى، يحرق سمتى، يغرق وجهى باللعنات

أوشك أن أسقط حيث يضيع الناس وحيث يموت الناس
حيث تغيب الأصوات وينداح ضجيج الموت،
وتختنق الأنفاس
فى صمت القبر
وأنا أتلهى بالموتى
مازلت أكفنهم..
أتلهى بالصلوات
عبثًا أرفع رأسى من قاع البئر
بحثًا عن وهج الكلمات..
تخنقها أيدى الحراسّ!

* * *

أوشك أن أتعرى من زيف الحسّ ومن وهمِ المقدور
من لعنة هذا الزمن الكابى خلف وجوه الناس
أوشكُ أن أتفرَّسَ فيكم يامنْ أنتم حولى
وأراكم فى وهج الضوء الساطع، فى وضح الظلمة

أحجاما لاتخطئها العين
أصواتًا شوهاء النقمة
أقـزامًا، مـخـذولين ومنهـوكـين ومطحـونين وراء الليل المرور
أوشكُ أن أنفضَ هذا الثوب المثقوبَ البالى
خرّقناهُ جميعا ولبسناهُ
وظنناهُ..
يسترُ سوءتنا، ويدارى الوجهَ المذعور
أوشك أن أجبهكم بالحكم القاطع
أنتم يا جبناءَ الحرفِ ويالعبةَ هذى الأيام
يا أبناءَ الصمتِ، ويا أحفادَ التيه
يا فرسانَ الليل ويا جرذانَ النور
أوشك أن أطعنكم بالسيف المبتور!

* * *

كلماتى..
يا صحراءً قاحلة الجدب، عقيما

يا قدرًا أحمل حديه المفلولين،

جريئا أو رعديدا..

وحدى أرقب هذى الأفلاك الأرضية

وأتابع دورتها المنهومة

ـ فليسقط قائلُ هذا البيت

ـ وليحيا منشدُ هذا الحفل

وليتشدق هذا الأجوف ما دام يجيد السير على الحبل

ويرصُّ الألفاظ المنغومة

ـ وليحيا سيرك الكلمات!

* * *

وحدى أتلفت بينكمو، يا منْ أنتم حولى

أزعمُ أنى أبدأُ أول حرف فى سفر التكوين

وأرى الأشياء بعينٍ تجهلُ معنى الذلّ

وأذوقُ الكونَ بوجد العاشق يلثمُ وجهَ المعشوق

وأنادى من فوق الجبلِ الأجرد فى الصحراء

أدعوكم يا أصحابُ ويا أحبابُ ويا فقراء:

منْ يثقبُ ظلمةَ هذا الليل؟

الرحيـــل

مُنخلعًا عن كونكم أطير
عن وجه هذا العالم الموغل فى الغرابة
لو كنت شاعرا فى غير هذا العصر والأوان
لاتأدت فوقى عمامة أو قبعة
سيان!
ولانتظمت فى مسيرة الذكاء والنجابة
وجهًا يزيد رونق الإيوان
ويدخل الحبور والسرور

على صدور النخبة الأعوان فى معية السلطان

ولاعتدلت فى مسيرتى مفاخرًا بأننى التبيع

والخدنُ والشفيع..

والفارس المنيع فى الأقران

إن كان ثمَّ للنزال حومةٌ أو غابة!

لكننى وا أسفاه، فى زمانكم أتيت..

طاشت سهامى،

ما هتكتُ إذْ رميت..

كبا جوادى،

ما سبقتُ إذ عدوْت..

نبا بيانى،

ما أصبت إذ نطقت

ولست فيكم أشجع الشجعان

لأحمل البيرق أو أخوض فى عجاجة الميدان

فإن سقطتُ أو نبوت أو كبوت

فحظٌّ مثلى من أسى العيون.. دمعتان!

* * *

قبعتُ حيث لانزال أو طعان

مرددا هتاف عاشق صريع

منمقًا حكايتى

بألف لون من فرائد البديع

مرتديًا إهاب فارس قديم

ووجه شاعر منيع..

كىْ لايقال عاشق جبان

لم يحسن التشبيه والإشارة

ولااصطياد خاطر منمق العبارة

يجود بالدمِ المراق فى صحائف الأوراق

متمتمًا تعويذة الغرام والهيام فى هوى ليلاه

مبللا بالدمع وجهها الوديع..

ـ مولاى إنى عاشق مطيع..

وتمّحى حكاية الأشواق..

* * *

اشتقت يا صحاب أن أكون واحدا

من الذين يملكون حظًّ يومهم من المرح

وحظًّ ليلهم من الشطارة!

العابرين كلَّ ساحة ومعترك

الناهشين كلَّ حرمةٍ وعرض

المالئين العين فى جسارة..

من كل زَهوةٍ تصبها الحياةُ

فى عروق الطيبين الوادعين

الفاهمين دورة الزمان والفلك

لطول ما تجشموا المهارة..

وأتقنوا التصريح والتلميح والإشارة!

* * *

ردوا علىَّ ثوبىَ المهترىءَ القديم
ردوا علىَّ بعض وجهىَ القديم
وحظىَ المرتعش السقيم
وحزنىَ العقيم..
فليس لى فى أرضكم سقيفةٌ أو بيت
لكننى، وا أسفاه، فى زمانكم أتيت!
سقطتُ فى براثن الكآبة
والزمنِ الموغل فى الغرابة!

* * *

منخلعًا عن كونكم أطير
عن ربقة الأغلال فى تتابع الأسماء والوجوه والفصول
ودورة الأشياء حين تأسن الأشياء
أبحث عن مدينة أخرى وعن سماء
نقيةٍ، بلا فضول..
فلا تقولوا : طائش غرير

أسرجت خيلى واتجهت للعراء

هلمَّ يا رحيل!

سقوط الوهم

هل آن سقوطك يا ظلّ الوهم الشائه
تتمدد خلف عيون الليل المنطفئة
تقعى خلف الأبواب، وملء رؤانا المهترئة
وتظلُّ على الأنفاس ثقيلَ الوطأة والسيماء
كاللعنة.. أبدًا لاترحل..
كالقدرِ الجاثم.. كالمنجل..
تحصد أزهار أمانينا
ـ مازالت سرا لم تتفتح عنه الأكمام ـ

تجرف طعم الأمن الوادع فى أبعد أغوار النفس
حتى ألقاك..
محنىَّ القامة والإحساس..
مخنوق النبرة والأنفاس
مسحوقًا، أمضى، أخفينى، أتضاءلَ، أتلفت حولى
خشية أن ينسحق جميعُ الناس !
هل آن سقوطك يا جبل الوهمِ الشائه
تحجب عنَّا لمحَ النورِ وأفق الرؤيا..
فنظلُّ ندور..
ونظلُّ ندور..
يقذفنا الديجورُ إلى الديحور..
فى تيه الأصوات الصدئة!

* * *

أسأل: ـ يا مذلة السؤال ـ:
هل آن أن نعود للبراءة؟

لفطرة الإنسان حين يملك الإنسان
بِقبضٍّ كفيه الضئيلتين زهوة الحياة
هل آن أن نعود للجراءة؟
لفطرة الإنسان حين يؤمن الإنسان
بقدرة الغريق أن يلاطم الموج وأن يجاوز الردى
بحثا عن النجاة..
هل آن أن نعود للقراءة؟
لفطرة الإنسان حين يعرف الإنسان
حقيقة الذى مضى..
وجوهر الخبىء فى بقية الزمان..
أسأل: ـ من يجيبنى إذا سألت؟
وكلكم يماقر الملال والهوان ـ
هل تعرفون قيمة الإنسان؟
كرامة الإنسان!
حرية الانسان!

ويجىء شتاء

فى قلبِ الليل العارى ينفجر شتاء

معتلّ الخطوة، ممرورا ..

يأتينا اليوم على استحياء

أطول من كل عذابات العمر المحزون

أثقل من عبء التذكار ومن قاع الذكرى الشوهاء

أفدح مما ضاع، ومما فات،

وظل حبيسا فى الأحشاء

ويجىء شتاء

يتلاصق وهمانا

تتعانق روحانا

تتجمع فى أوتار الأعماق دماء

يتماوج فينا نبض الشوق.. وتتداخل فينا الأصداء

يتزاحمُ فينا وهج الدفءِ

وتنطق فى شفتينا الأشياء

تبحث عن مأوى.. وغطاء

* * *

ويجىء شتاء

تدفئنى الكلمات الحرى

الكلمات الراعشة الأهداب، المثقلة القلب بلفح الأشواق

الكلمات العارية من الزيف،

المترعة بصدق الأعماق

تدفئنى الكلمات الحرى..

تنقر صدرى بدبيب الأمل المشرق فى نبضات العمر

تنطق صمتى،

برنين الصوت الراعش فى خفقات الحرف..

كلماتكِ أنت..

بيضاء بلون الصدق الباقى

فى الأصواتِ وفى النظرات وفى الأشياء

كلماتك أنت..

خضراء بلون الحب المزهر فى الصحراء

فى قلب الصحراء الجرداء..

كلماتك تاريخى وخطاىَ

ولون القادم من أيامى

هذا الفجر الأبيض يشرقِ فى صفحة أوهامى

ويجىء شتاء...

نتحسس ماذا تركت فينا الأيام؟

اللون الباقى فى الأحداق وفى الأعماق..

والعمر الذائب فى التذكار وفى الأشواق

يتحدى الموت!

كلماتك أنت..

أغلى من كلّ الصفحات ومن كل الأوراق

* * *

مرثية شاعرة عاشقة

أكان رساما !
يصبغ بالألوان وجه اللحظة الحزينة
وينتقى من مفرداتها حروف ريشته
من قبل أن ينغمس السواد فى البياض والبياض فى السواد
ليصبحا شكلا وأحجاما..
لكنه فى آخر المطاف آثر الرحيل
منقبًا بين عيون الصبية المحتشدين فى النهار

الصبية الصغار حين يجلسون فى انتظار
نبوءة ألقى بها العراف
عن صبية فى الغد يولدون
لابدّ أن سيولدون..
لم يولدوا فى الليل أيتاما
يحكون عنه حين آثر الطواف
ملتفعًا عباءة الحزن الجّليل
محطمًا ألوانه ومرسمه..
فلم يعدْ يكفيه ما فى الأرض من ألوان
لطمس ما فى الأرض من أحزان
وستر بقعةٍ من السواد
ترقدُ فيها طينة الإنسان..

«٢»

أكان عازفا
ينهنه الليلَ على صدى قيثارته

ويقطع الأنفاس والأوتار من فجاءة النغم
ويسكب الأسى الشفيف فى محاجر العيون
ما أعذب الألم!
ما أعذب الألم!
تطهرى يا عين بالدموع
وانسحقى يا أرض بالندم
أكان عازفا!
وكنت أنتِ جرحه العميق، جرحه الأصم
وحينما تمزقت يداه فى ضراوة اللحن الأخير
وارتطمت عيناه بالظلم..
وليس بعد من صباح
رمى إلى الفضاء قيثارته..
وقيل مزق الأوتار.. فاستراح!

«٣»

أكان عاشقا..

ليس سواك من يقول عنه: كان..
يعطيه شكله ولونه وحجمهُ..
حديثه، وصوته، وطعمهُ..
وعمقَ مقليته حين تنظران للأشياء
تستطلعان سرها الخبىء فى ضبابة المساء
ليس سواك من يقول: ما الذى أحسّ فيك
ما الذى رأى..
وكيف كان ملهما..
وكيف كنت ملهمة..
وحين شفه الحنين كيف جاش وارتمى.
منقبًا عن جذوة دفينة، وعن دثار
وكيف فى برودة الشتاء أشعل الأصابعا
وغاص فى يديك واحتمى..
وارتعشت فى كفه شرارة لم تنطفىء
تناثرت أشلاؤها على جدائل الأوراق!
وحيًا وإلهاما!

«٤»

أعود للأوراق، من يسائلَ الأوراق!
ينتزع السرّ الدفين من براثن الأشواق
وليس غير شعركِ الصموت ، شعركِ الحزين
ولوحةٍ يتيمة على الَجدار..
كأنها السطر الأخير فى رواية الحياة..
من يكشف الحكاية الحزينة الختام
حكاية العيون حين تستدير للسلام
نديةً بفرحة الظلال والألوان
كسيرة بخيبة الرجاء وانطفاءةِ الأمان
.. ..
أقلب الحقيبة التى عذبها السفر
منقبًا عن ومضة تفصح أو تشير
لاظلّ..
لا طريق..

لا أثر..

الدرب غام.. وانتهت حصيلة الرفاق

وارتحل القمر!

«٥»

يا وجهها الطفلىَّ فى خزائن الكهولة..

يدفق بالجلال والحنان..

يا جسمها الفارعَ فى مهابة الشموخ

يا منجما بكر الكنوز.. لم يطف به إنسان

أشهد لم تمسسه مرة يدان

ولاتحسست طريقها إليه مقلتان..

جريئتان تبحثان فى دثاره المهيب عن خميلة وعن بستان

كأن موسيقى المساء خطوها

ورنة الفرح العميق صوتها

وحكمة الحياة همسها الوثير فى مسامع الليل الأخير

من يُسكت اللظى الملح فى الجوانح الدفينة

من يطفىء الحريق فى محاجر العيون

يئزُّ كالهشيم من حصاد عمرها الحبيس فى السنين

من يرضع الأمومة الظمأى إلى الأمومة!

تذوب من لهفتها تذوب!

من يلمس الجراح والندوب

طال بها الأوان..

تئزُّ تحت وطأة الحرمان..

من يمسك البركان، حين ينضح البركان

بكل فورة العصور..

بكل ما فى القاع من غرامها الكسير

ووهمها المضرج الحسير

الطفلة العجوز، تغمض العينين فى سكون

وتمّحى الحياة فى سكينة الرضا..

فليس للزمان من رجوع..

وتجهش الأعماق بالدموع..

«٦»

مشدودةً إليك خطوتى على الطريق

مشدودةً عيناى نحو شرفتك

اللّه ياالبلابةً تُظلُّ مشهد اللقاء والفراق

وتستر المارين فى لواعج العناق

اللّه يا ساعات ليلنا الوثير

ما كان أصفاها، وكان أسرعا

وموكب الغروب يولج النهار فى الظلام

فيستدير فى شفاهنا الكلام

أغنية، حكاية، مرنحة

سخية الظلال والأشواق

«فى الليل تلبس النساء وجه اللحظة السجينة

وتطلق الأسرار كالعطور من أغوارها الدفينة

ويتمطى فى العروق أفعوان الرغبة الضرير

فى الليل تصبح العيون ملمسًا ومعبرا

تثّاقل الخطى، تكاد تجهل المسير
يلتحم الواقع بالخيال، والجنون بالشعور
وتكتسى جلودنا بزهوة الحياة..
تترجم الأيدى حديثنا الصموت
ويتسلل الكلام من نوافذ الأصابع المرتجفة
فى الليل .. كلٌّ صدقنا العظيم.. زورا»

«٧»

أحلم بالجزائر البعيدة...
بسنديانة ملتفة الجذوع تحجب المدى..
منقوشة على ضلوعها حروف عاشقين
بشاطىء لمّا تزل على رماله آثار عابرينْ
تعاهدا.. واتحدا..
وأصبحا حرفين فى قصيدة..
أحلم بالرمال، بالصحراء ، بالعوالم الخصيبة
أحلم بالمدائن الشرقية المهيبة

بلوثة السحر الخرافىّ، وبارتعاشة الجنون،

يُفضى إلى العوالم العجيبة

أحلم أن أكون طائرًا، كالنورس المهاجر

منقّرًا فى لجة البحار وجه موجة عنيدة

أحلم أن أُطل فى خزائن الذين هاجروا ونقبوا

وأن أعيش فى طفولة الذين عانقوا الشموس والبحار

واحترقت وجوههم بزهوة النهار،

لكى يصيدوا فرحة جديدة!

أحلم أن أكون فى صباك، فى زمانك السعيد

فى زمرة الذين طوفوا حيال سدتك

يلتمسون الإذن بالمثول

لديك يا مليكة النساء..

وأنت تأمرين، تعتبين ، تصفحين

وتمنحين ودك الثمين منْ تشاء حكمتك

وتغفرين للصغار أن تجرأوا..

أحلم أن أكون فى زمانك الذى مضى،

ووهمك الذى قضى..

أحلم بالجزائر البعيدة!

الزيـــارة

الصوتُ صوتها .. جدارُ بيتنا القديم..
رنين فرحنا الدفين فى الضلوع..
ومعطفُ الحنان للذين يغمسون فى السديمْ
ذؤابة الخريف والربيع
ولوعة الخبىء فى الأيام..

* * *

الصوتُ صوتها ..
ورف طائرٌ على قلوبنا ..

وغامت العيون بالسلام..

واهتز شوق عاصف طويل..

يذيبنا كقطرة الشموع..

يا أيها القادم من ديارنا..

كأنما تجىء بعد ألف عام..

لاصمتَ فى عيوننا.. ولادموعٌ..

فلتسترح على جفوننا

يا وجه طيفها النبيل

يا صوت حزننا الجليل

لم يبق غير أن تزورنا

يا ضوءنا اليتيمَ فى القتام

يا أنت.. يا مصيرنا..

* * *

نعبرُ ما نعبر من مضايق السنين

لعلنا نراك فى البعيد قادمًا لنا..

نبحر ما نبحر فى مرافىءِ العيون
نسأل: هل تركت كلمتين فى طريقنا هنا
نحلمُ أنّ ساعديك طوقا وعانقا اشتياقنا
وهدهدا انتظارنا الطويل واغترابنا
ومسّحا هنيهةً على الجبين
يا أيها القادم فى سحابة الحنين
تسحّ فى عيوننا على المدى تذكار
تفيض فى أعماقنا براءة انتظار
وتصبغ القادم من أيامنا اخضرار
يا أنت.. يا عزاءنا..

* * *

يا ويحنا...
حين التفتنا نرفع الرؤوس كالغريق
محدقين فى البعيد..
دون أسىً يلفنا.. دون انتظار

كانت مواكب الحياة تغمر الطريق..
وتكتسى الوجوه زهوةَ النهار..
وكل شىء هادر.. كأنه جديد..
يا ويلنا.. كأن شيئًا لم يكن..!
وكيف ينسى رهبةَ المصير
أولئك الذين شارفوا مخاضة التراب
وانهمكت عيونهم فى دمعة العزاء
مشيعين وجهكِ النبيل.. كالشهاب
أضاء برهة وغاب
وقبل أن يُغيّب الثرى
كانت رؤوسهم هناك تستدير
تبحث عن وسيلة إلى الحياة
كأنما الشهوة والميلاد والجنون
سبيلنا إلى النجاة!

* * *

يا ويلنا ..

الشمس تثقب الجدار من جديد

وصيحةُ الأجراس مثلما يهلّ عيد ..

وحول لقمة الصباح يركض الصغارِ..

وألف عرس رفّ واستدار

وأزهرتْ دروبنا للموسم الوليد

وارتاحت العيون فى سنابك الرضا ..

يا ويلنا ..

كأن شيئا لم يكن..

أليس غيرنا هو الذى قضى!

تنويعات على لحن أساسى

١

وجه مدينتنا :

أعرف أن خطاى تسابقنى فى الدرب إليك
أعرف أن يدىَّ تشيرانِ،
وأن هواىَ الكامن يتواثب فى عينىّ وفى شفتىّ
بحثًا عن لحظة ضوءٍ منشودة
أعرف أنك فى خاتمة الساعات ملاذ المتعب والمكدود
من زحمةِ هذى الأيام،
وقسوةِ زيف الأوهامِ،

ولغو الزمن الكاذب

أعرفُ أنك أنتِ أمان المغترب المهدود

يأوى فى جوف الليل إليك

يرتاح إلى صفحة عينيك

يُسلم للصدر الحانى رأسا مجهد

أعرفُ، لكن لا أعرف عنك

إلا ما يمنحنا وجه مدينتنا الأسيان

حينِ يثير بعمقينا قلق الرغبة

ويفجر فى وهمينا خوف المجهول

فيئز بصدرينا شوك الحرمان

يفجؤنا وجه مدينتنا..

فيحيل ليالينا ندما

يقهرنا وجه مدينتنا

فيحيل أمانينا سأما

يصهرنا وجه مدينتنا

فتذوب سحابات الأشواق
مطرًا منهمرًا فى الأعماق
يطويه بئر الأحزان
يا من يُرجع وجه مدينتنا النديان
يخضلُّ بأيدينا فرحا
ويجىء، فتهتزّ الأوراق، وتسّاقط ثمرات الحب
ويغرد طير فى القلب
فالدنيا.. لا أبهى .. لا أحلى
والعمر غناء، وأناشيد

صف شعورك

تقولين لى: صف شعورك
إذا ما جلسنا بنفس المكان، وأطبقت المقلتانِ
على لحظة عبرتنا وراء الزمان البعيد
وكنا ظننا بأن الذى فات، فات
وأن الهوى ذكريات

وأن الصغير الذى قد رعيناه مات

وأنا اصطدمنا

ففى قدرينا معا غربة وافتراق،

ووحشةُ ليلٍ بغير ارتواء

وكنا ظننا..

بأن الذى كان ..

وهمٌ سريع الفجاءة والانطفاء

وأنا سنصحو بذات صباحٍ..

فنلقى الذى فى يدينا هباء

تقولين لى: صف شعورك

من بعد عام تولى، وعام

وقبلهما، ألف عام، وعام

أقول: تغير وجه الزمان، تغير وجه المكانِ

تغير كل الذى فى يدينا

وحين التقينا.. استكان لدينا الأمان

تقولين لى: صف شعورك، قولى
إذا كان يحتاج بعد إلى ترجمان!

أسائلكم:

فى طريقى إليك..
أراقب كل الوجوه، أواجه كل العيون،
أسارع مدَّ الخطى
لعلىِّ أراكَ وضيئًا، مطلاًّ
تُلوِّحُ بين الزحام، تشير إلىَّ وتدنو
فتدفعنى رغبة لاتحدُّ
لأجتاز نحوك كل المسافات
أطوى الطريق إليك، وأعدو
وما زلتَ بين الزحام تلوِّح،
بين مئات العيون تطلُّ
ربيعًا، ندىً الحياةِ، وظلاًّ
وأهتف من كل قلبى: حبيبى

فتهتف عيناك بالحب: أهلا

وينثال صوتك، يملأ نفسى

رخيمًا ، طليق الترانيم، جذلا

.. ..

أسائلكم .. كلكم.. هل لديكم

نهار كوجه حبيبى

صفاء كعين حبيبى

نقاء كقلب حبيبى

أمان كعش حبيبى

أسائلكم.. لو تردون قولا!

هدية الأيام

العام، بعد العام، بعد العام
يكبر فى عيوننا شعاع طلعتك
يمتد فى عروقنا نداؤك السخىّ بالوعود
يوقظنا، يشعلنا رغائبَ انتظار
تفيض أيام اللقاء واحةً ندية الوئام
وأنتَ، مثلما أبحرتَ فى ضميرنا
سارٍ، لغير شاطئٍ وغاية
مسافر على جناح حبنا المديد

تصنع من نجومه حكاية مُنَمْنمة
عميقةً، بلا نهاية
متكىء على مرافىء التذكر البعيد
تطلّ ما تطل فى عباءة السنين
نجوس فى المخزون من ذخيرة الأحلام
العام، بعد العام، بعد العام
وأنت كنزنا الفريدُ
ضوؤنا اليتيم فى قتامة الأيام!

* * *

يفجؤنى حديثك الذى نفضت فيه جرحنا
أبحتَ فيه شجونا، وبوحنا
وحزننا البعيد، حينما لم تسعف الأيام
فاصطدمت جباهنا أمام حائطين من سراب
كانا..
وما كانا سوى فى وهمنا

حين صحونا، امّحى الجدار

وارتبكت فرائص الظلام..

يفجؤنى الهمس الحيىٌّ، عاصفًا، ولافحا

ألم يزلزلنا معا

ألم يرنحنا معا

ألم يباركنا معًا، على بساط حلمنا الوثير

محلقين، طائرين فى السحاب

نجوب فى عوالم الرؤى، مدائن النقاء والصفاء

تحملنا سحابتان، موجتان من ضياء

ونستريح حين نستريح فى عرائش السماء

يفجؤنى أنى معك

وأن بالإمكان أن أراك هكذا، وأسمعك

وأن مرتجًّ الخلايا بيننا

يهتز كلما لمست موضعك

يفجؤنى، أن الظلال فى مدينتى تجف، والغصون

تتوء بالهشيم، والثمار

يابسة قبل الأوان، والعيون

كأنها مداخن الحريق، لادخان

لكنه انتظار

يفجؤنى نجم بعيد اللمح فى سمائنا يشير

لم تكتمل خطاه فى بروج الاستدارة

ولاتفجرت عيناه بعد بالضياء

لكنه، فى أفقنا يشير

أهتف قبل العصر، والأوان

مناديًا كلَّ صباح يا حبيبى أطلعك

وكلَّ فجر عاشق إلى حمانا أرجعك!

* * *

العام، بعد العام، بعد العام

ولم تزل تشدنا سواعد الأيام

نجتاز أرض الصبر والأشواق والكآبة

ونعبر العيون، والحتوف، والرتابة
ونلطم الوجه الذى لوّنه الحقد الدفين
فأفرخت سمومه على جدار الخد بؤرة القتامة
القبحُ فى وجوه الحاقدين بعض ما
يخفونه فى الصدر من دمامة
والحب فى عيون العاشقين فتنة الوسامة
كأنه علامة
على القلوب المترعات بالأمان والسلام
ورجفة الحنين حين تبدأ العيون فى الكلام
وتلتقى الأكف فى غلالة الرضا
العام، بعد العام، بعد العام
وأنت لى على المدى
هديةُ الأيام!

العيـون المحترقة

فى وهج الشوق اللافح ماذا تملك عينايا

فى صمت اللحظات المخنوقة فى الإطراق

أرنو..

لاتملك كفايا..

أن تلمس هذا الوجه الذائب فى الأشواق

أغفو..

توشك أن تمتدّ يدايا..

يوشك أن ينفجر الصمت ، وأن تصطخب الأعماق

يوقفنى شىء ساجٍ فى عينيك
يكفى أنى بين يديك..
أكتم صوتى.. صوت هوايا..
ماذا يبقى من هذى اللحظات المختنقة..
إلا وهجٌ.. دامٍ
يبقى فى عينى المحترقة!

* * *

الشوقُ بحارٌ ومدائن
الشوق عيون مسحورة
أطيافٌ تولد كل مساء
وترفُّ بقايا أسطورة
شطآنَ بلاد معمورة
الشوقُ قلاع وسفائن
تمخر هذا البحر المائج فى قلبى
يحملنى..

ما دامت عيناكِ جناحيَّ المزهوين

ينقلنى..

للوعد الصامت فى شفتين..

يبعدنى..

لا أدرى كيف وفيم وأين!

الشوق طريق مسعورة..

تقتات دماى وأعصابى..

تشعلنى.. تشعل أهدابى

تسلمنى أبدًا .. للحظات المختنقة..

وهجا..

فى عينى المحترقة!

* * *

أملك أن أختار، ولكن ماذا أختار!

الشوق الرابض فى العينين وفى الشفتين

والعمر الذائب خلف الوهم كطرفة عين

وسواك، أأملك أن أختار سواك؟

يا وجه ربيعى المفعم بالنوار

أملك أن أختار ولكن ماذا أختار!

ما دامت ملء خطاىَ تئزُّ النار

وحدك لى وجه الأقدار

من يملك أن يدفع هذا القدر الموغل فى إنسان

هذا الإيقاع الغامر كالطوفان

هذا العبء بلون الأشواق أو الأحزان

حلوًا، ممرورًا، سيان!

أملك أن أختار، ولكن ماذا أختار!

صمت اللحظات المختنقة

أبدًا، يا عينى المحترقة!

أرجع كلّ صباح..

كلّ مساء..

لا أعرف إلا أنك لى..

هذا الوجه المأنوس الباقى

من أحزانى

من نيرانى

من كلّ رمادى.. ودخانى

أرجع لا أذكر مما فات، ولا مماسيجىء

إلا أنك وحدك .. لى

قبسٌ فى عينىَّ يضىءُ

عطرٌ فى شفتيه أفىءُ

وهجٌ يسعفنى،

يشعلنى،

ملء اللحظات المختنقة

يا نور العالم فى قلبى،

فى قاع عيونى المحترقة!

كان حياتى

كان اسمك، يدعونى أطوى الأسماء وأطوى الأيام
فليس سواهُ
شيئًا كالألم المسحور، كوقع الحلم الهاتفِ،
أستشعره فىَّ.. وأخشاهُ
كان اسمك ينقرُ صدرى
تلمس أعماقى الخضراء يداه
تربت كفاه على دنياى
وتغفو فى عينىّ رؤاهُ

كان اسمك يغرينى أن أعبر هذا الموج

وأن أتحداهُ..

حسبى من رحلة أيامى..

قبسٌ فى وجهك ألقاهُ

هل يكفى الآن بأيدينا..

أن تبقى منه ذكراهُ!

* * *

كنت أقول لأيامى ولأشواقى ولأحزانى

يا قلبى..

هذا نبع البشرى، نبع الأيام المنضورة

يا نفسى..

هذا زمن الحلم الرائع، يسبق خطو النور لعينىّ

آه يا عينى المبهورة..

موكبها.. مازالت فى القلب خطاه المتئدات

موعدها.. ألف حكاية شوق، ألف صلاةٍ

ألف سحابة خصب منشورة

رفت كالخاطر، والتفت كاللمحة لهفى، مذعورة

وانسكبت من فيض هوانا، نسمات العطر المنثورة

والتفَّ الصمتُ يغطينا..

بظلالٍ واجفة..حيرى

أأقول وأسبق أيامى

أم تبقى لوعتنا سرّا!

فى القاع الموغل فى نفسى

يدها مازالت محفورة

تمتدُّ فتمسحُ أحزانى

وتغيب، فتنطمس الصورة

آه، ياعينى المبهورة!

أصحو..

فجميع العالم فى عينىّ، نداء منك، ندىّ الهمس،

عميق بالأشواق

أغفو..

فالدنيا لا أبهى : عرس وصلاة.. وعناق

أرنو للقادم من عمرينا

للشوق الذائب فى قلبينا

وأقول وداعا يا أيامى الممرورة

نبتت فى دربينا زهرة حب مسحورة

طالت.. عانقت الضوء جناح سلام ومحبة

العطر الساكن عمقينا

زادٌ فى رحلة عمرينا

أصحو

أغفو

ماذا يبقى..!

هذا الصوت الهامس أبدًا فى أعماقى

أجراس سلام وحنان، ذابت فى لهفة أشواقى..

وبقايا نيران عصفت واشتعلت فيها أحداقى..

كان منار حياتى..

كان شعاع الفجر القادم فى ظلماتى

كان عطاء الأمل النابض فى صلواتى

كان حياتى!

كلمة حزن

من صميم الويل، من جوع الليالى العاريات

نبتت دمعتنا..

ملحًا، بقايا من فتات..

فورة تغسل أحزان الزمان..

تمسح الرعشة عن أهدابنا..

مثلما يهتزُّ خطو التائهين

تحت أعباء السنين

---

* عام النكسة ١٩٦٧.

وارتجاف الذكريات

غرقت أحزاننا فى الصلوات!

والتفتنا..

نسأل الأيام عن ماضٍ وآت

علّنا..

نثقب الظلمة فى كل الجهات

مثلما ينهار حلمٌ غاب فى قاع العيون

كفنته الظلمات

ما الذى كان نقيًا فى يدينا

ما الذى كان نديا..

نابضًا فينا .. ومات!

* * *

فمتى ترحل عنا يا ألم!

عارنا أنت، وسلوانا، وذكرانا معا

لم نعد نبصر فى أعماقنا شيئا سواك

أيُّ سر، أى طعم ، لم تلونه خطاك!

ويداك ، التفّتا تصنعُ من أعناقنا عبئًا ثقيلا

ولماذا لم تعدْ تتضج فى كرماتنا

غير عناقيد لياليكَ السحيقات القدم

العميقات الندم!

نحن غنينا .. وغنينا طويلا ..

وانتفخنا فوق إيقاع لياليك فحولا

وذبحنا بحة الصوت، وأتعبنا الطبولا

فلماذا .. حين غنينا تساقطنا ألمْ

وترنحنا مع اللحن .. طويلا ..

وتساندنا صفوفًا وصفوفا

وتماسكنا ذراعًا وقدم..

فإذا أنت النغم!

وتعرينا صدورًا وقلوبا ..

وشفاهًا لم يعد فى طوقها أن تبتسم..

وتهالكنا .. تغرّبنا على وهم القمم..

ولماذا ..

حين غصنا فى قرار الذكريات

وتحدرنا وراء الدمعة الخرساء فى أعيننا

لم نجد إلاك فى تاريخنا

وجهنا الباقى.. وأخدودًا عميقًا بالظلم..

مثقلَ النبرة والإيماء مشدوخ السمات!

فمتى، يا شجوننا الكونىَّ، يا سمعًا عبرناه أصمّ

نملك الرؤيا ..

نصوغ الكون فى لا .. ونعم!

* * *

شنائه وجه النهار

فى عيونٍ جهمة منطفئة

زائف زهو الليالى الصدئة

قبل أن نغدو كبارًا للملمات الكبار

قبل أن ترتاح أيدينا على نبض الحقيقة
ونرى الفجر طريقًا رحبة الصدر طليقة
ثرة الأشواك والأحجار، ملأى بالأمل
قبل أن نغسل بالحزن صدورًا .. لم تزل
يتحداها الوجل..
وترى الأشباح فى كلّ جدار
قبل أن نفتح للنور قلوبًا مظلمة..
عشيت من صبوات وانبهار..
أيها الحزن الفدائى الألم
كن لنا طوفان شك يغرقُ الأرض البوار
علها تمنحنا الفجر البطل..
كن لنا وانفض أماسىّ الغبار
يومها ..
نعرف طعمًا للنهار!

باسم الكلمة

من أى أرضٍ مرَّ سندبادنا الحزين
مجللا..
يخوض فى عباءة السنين
يحمل وزر عصره ووجهه المهين
من أى أرض مرَّ سندبادنا، وعاد
فلا التخوم رحبةٌ، ولا القلوع
مزهوة كالشمس، تمخر المدى
يا أيها القادم، من مسيل جرحنا

من بئره عميق من مغارة الصدى
من رحلة الدموع..
اليوم لامواكبٌ تزجى ولا أعلام
ولابيارقٌ تطل فى مشارف الزحام
ولاغمامةُ تظلُّ ركبك الأمين
خرساء فى عيوننا دموع كبريائنا
وصامتٌ على شفاهنا تمردّ الآلام
يا أيها القادم من «نابلس» من «صفين»
من كرمةٍ يرتاح تحتها «صلاح الدين»
وصبية ينسجن من ضفائر الحنين
للغائبين عن ديارهم.. دثار
يا أيها القادم بعد ألف عام..
تعطل الصمت.. تعطل الكلام،
وانتحر الفارسُ فى «حطين»
أهكذا مصائر الأيام!

* * *

لم تُهْزَمِى.. يا كلمةً تطوف قلب جيلنا

وطلقة بحجم ثأرنا وعارنا

وصيحة تقفز من ضلوعنا..

لم تهزمى.. يا كلمةً أسلمها الأجداد للأبناء

مرويةً بالكبرياء..

مخضلة الحروف بالدماء

تمردت على غبار عصرنا المهين

ووجهه المرتخص الحزين

وطوفت تغوص فى معابر السنين

تلاحق الذى مضى..

تستشرف القادم من نهارنا..

وتجرف الحدود والسدود والركام..

السندباد عاد فى ضميرنا..

يُفتِّحُ المحار والأصداف

ويلطم الشطئان والضفاف

يسير، لا بيارق تزجى، ولا أعلام
ولامواكب تخوض فى الزحام..
اليوم.. لامنطق.. لاكلام..
تكلمت أحزان «عمورية»
وجرحها الموغل فى الأيام..
إن لم يكن فى ساحها «معتصم» جديد
هل فيكمو أنتم.. «أبو تمام»؟!

لأنك الإنسان

حين لمحتُ ركبكَ المضرَّج.. ارتجفت
غاصت خطاى فى معابر الظلال والسنين
وفى الحناجر الصقيلة لنجِرفت
خيطًا رفيعًا.. ذائبًا بلا انتهاءٍ
تشهقُ فى قراره بقية من البكاء
وأنت ظلٌّ وارفٌ مبارك النسيم
وسنديانةٌ عروقها تمورُ بالحنين
تمسحُ باليدين ما استكان من شقاء

وتنفض الحريق فَى محاجر العيون
أقول للمعفرين فى غباره وجوههم
الموقدين فى عيونهم دموع كبرياء
والراكضين خلف صوته القديم
- من قاع وهمهم يعود صوته القديم -
ملفَّعًا بنبرة اليقين..
أقول للمشيعين فى غُباره مواتهم
هنا حقيقتى التى عرفت!

* * *

وعن قريب كنتُ، حيث لا ترى العيون
إلا سحابة العناق، واختلاجة المناكب
التى تغوص فى قرارة الزحام
لكننى رأيت يا ابن جيلنا
ويا أب الذين يولدون
ما لا ترى العيون فيك من حقيقة الإنسان

ورجفة الذى يمور تحته التراب

بكلّ ما يضمُّه التراب من شجون..

بكلِّ صوتٍ كان ومضَ بارق خبا

بكل صرخةٍ تحشرجت ولم تجد أبا

بكل دمعة تساقطت على مواكب الطغاة..

وأنت سارٍ ملء خاطر السديم..

تبحث للذين يولدون فى الظلام عن دثار

تستلهم الوحى البعيد عن عيون الطيبيْن

الصابرين فى انتظار يوم ثار..

وددت لو ربضت فى الطريق تلةً على الطريق

تمتد فى عروقها جذور كبريائنا القديم

وتستدير كى تضمَّ ركبك العظيم

يا غامر الطريق باللحون..

وأنت.. وجهك الحنون..

وجهكَ الثرىُّ بالأشواق والأحزان

وجه مصيرنا المضرجِ النضيرِ بالحياة

يقودنا..

يقودنا..

يقودنا لشاطئ الأمان

لأنك الإنسان!

أحــزان الفقــراء

وانحنت صفصافة كانت على النهر تصلى
وانثنت صبارةٌ تغمس فى الشط المدمى راحتيها،
وهى تبكى..
تلثم الأرض التى ضمتك عودًا فارعًا كالسنديان
عندما عُدت إليها ذات يوم
قطعة من أرض مصر
قطعة من قلب مصر

* فى رحيل جمال عبدالناصر

نبتةً تزهر خصبًا وحياة

وسرى فى القرية الخرساء إعصار الهزيمة

فارتمى كوخ بوجه الريح وانهارت سقيفة

ومشى الحزن، ثقيل الخطو، عبئًا فوق أنفاس

اليتامى والثكالى

طافيًا فوق الدموع..

يعصر القلب ويجتاح الضلوع

وترامى النبأ الفاجع فى صرخة بومة

أعولت جارتنا..

ـ غاب فتاها فوق شدوان شهيدًا ـ

وبكت أرملة ملتاعةً

ـ قد ثوى فى أرض سيناء أبو أطفالها

راقدًا من غير ثار ـ

طفلة توجس: ما عاد أبى

أماه.. قد حلّ الظلام..

وعيون لا تنام..

طار عنها النوم والأمن وأحلام السلام

فقدت حارسها الفارع والليل قتام

ما الذى فجَّر هذا الحزن فى قلب الرجال!

حزن آلاف الليالى والتواريخ العقيمة..

أجدبت من لقمة الخبز ومن طعم الأمان

عريت من كسوة العارى ومن دفء الحنان

ودعاوى الأنبياء

ما الذى شدَّ إلى الهول عيونًا ما تزال

ترتمى نحو السماء

باحتجاج الفقراء!

* * *

صوتك الحانى الجسور

قادم يجتاز أسوار التواريخ البعيدة

حامل من عطر «طيبة»

قصة المجد ورؤياه العجيبة
ساكب فى وضح الشمس وفى وكر النسور
لحن دنيانا الجديدة
فإذا الأرض نداءات وقمح وبراعم
وعناقيد كروم..، وغضب
وإذا الأرض عبير ومداخن
ومفاتيح وأنوال تدور
وإذا فى قريتى ألف هتاف يتصاعد:
أرضنا الحرة ما عادت تهادن.!
الدروبُ اتسعت..
ثم تلاقت..
والعيون انفتحت
ثم تلاقت..
والعقول اندفعت
ثم تلاقت..
لم يعد يوقف هذا المدَّ شىء

إنه طوفان تاريخ مليءٍ بالضحايا
ونداءات السبايا
واحتجاج الفقراء..
وإذا مصرُ على الضفة تختار وتبنى
بيتها المفعم إيمانًا وخضرة
لم تعد تحمل جرّة..
أصبحت تحمل كراسًا وإزميلاً وفجرًا
أصبحت تضغط بالإصبع زر الكهرباء
لترى الوادى حقولاً ورجالاً ومصانع
والفضاء الرحب عمرانًا وناسًا وشوارع
وتماثيل، وأحلامًا، وشعرًا
وإذا مصر لكل الناس فيها، ولنا
للحفاة البؤساء..
والعراة الأشقياء..
لم تعد سجنًا.. ولكن وطنًا!

* * *

مزقت فى يومك الفاجع ثوبًا لم تكن تملك غيره
مصر، لما خرجت تبكى أباها
راعها أنك لم تنطق كما عودتها
لم يجلجل صوتك الداوى مليا فى سماها
لم يدغدغ سمعها المشدوه فى هول الزحام
كان موسيقى لياليها وألحان هواها
وانتفاضات سراها
ما لها تطرق فى يومك إطراقة مذهول ذبيح
أفردوه فى العراء..
واليتامى الفقراء
حول نهر الدمع طوفان صلاة ودعاء
وأناشيد وداع.. وقسم
كنت فيهم.. واحدًا منهم.. لهم
حبَّة القمح وجلباب الشتاء
ويد الرحمة فى لفح البلاء

والأب الحانى إذا عزَّ الدواء

كنت فيهم واحدًا منهم.. لهم

صوتهم.. صوت المآسى والشقاء

والغد المأمول فى عين الرجاء

كنت فيهم أنت.. فى تاريخهم

لغة الأرض..

وموّال الفداء!

تحت ظلال الزيزفون

هذا .. أخيرًا .. وجهك المضرج الحزين

وجهك يا برلين..

بعد انقشاع الحلم، والدّخان والسنين

دامعة العينين، تنهضين من حطامك المهين

تتوجين بالسلام فجرك المنور الجديد

وتغرسين وردة بيضاء، فى حقول الطيبين الوادعين

---

* أتيح للشاعر أن يزور ألمانيا الديمقراطية في يوليو ١٩٧٠ عضوًا في وفد أدبى يمثل أدباء مصر، وهذه القصيدة صدى لاهتزاز وجدان الشاعر من خلال هذه الزيارة.

ذكرى لمن تساقطوا وفى عيونهم حنين
وفى جباهم تطلع وفى ضلوعهم سجين
ينبض بالحب، وبالإخاء، والأمان
وتمسحين عن جبينك العنيد، ثأرك العتيد
وتنفضين الظلم، والدمار، والأنين
يا عبرة الدنيا
نجوسُ فى ثراك، عابرين،
نطلّ فى عينيك، خاشعين..
نصافح البرج المطل، والكنيسة المهدمة
وحائطًا يكاد أن يرتاح للثرى..
تماسكت عروقه.. بقيةً من كبرياء..
ولم تكن تطيق أن يلمسها الفضاء
كانت تجاوز السماء والمدى..
شامخة تناطح الزمان والمكان
ولفحة من الدخان لم تزل مدومة

تعانق القصر القديم، والعمائر المصطدمة
تاركةً سوادها على ذوائب الجدران،
وفوق قبة المتاحف المهندمة..
ولم تزل تباغت الفنان، تستحلُّ وحيه ومرسمه
يا عبرة الدنيا نجوس فى ثراك عابرين، خاشعين
نطالع الغد الوضىء، والشوارع النظيفة، المنظمة
ونلمس الفن العظيم نابضًا، يضىء كل ساحة ومنعطف
وعندما تقول شارة الميدان: قف
نجول بالعيون فى المفاتن المزدحمة
يبهرنا اخضرارك المطرز الأنيق
يبهرنا قوامك المتئد المشوق
يبهرنا فضاؤك الطليق
تبهرنا عيناك حين تهجعين طفلة، وحين تصبحين
معشوقة تسألنا: من منكمو العشيق؟
نطالع الأمس الملحَّ مرة ونرقبُ الغدا

أنشودة السلام أنتِ؟

أم أسطورة الدمار والردى؟

وروعة الحياة أنت؟

أم بقية المطامع المحطمة؟

متى يزول عنك وجه البومة المحومة

يطل من خرائب الدمار..

وتستريح مقلتاك تحت عبء الانتظار

يا فتنة نائمة.. مستسلمة!

«٢»

أحلم.. فى طفولتى..

بوجه جدتى «حبيبة»..

وكنت طول الليل ملء حضنها أنام

وفوقنا، تسّاقط القنابل الثقال تقرع المدى

فنلتصق..

وأحتوى، بقبض صدرىَ الصغير، صدرها الكبير

كأنما أنفاسنا معًا، تذوب، لانحس أننا سنختنق
فالخوف جاثم على صدورنا، يجوس فى دمائنا ..
وملء ساحة الظلام..
الخوف جاثمُ.. ولامفر..
تسألنى مرتاعة العينين، جازعة
عن قصة الحرب، وعن ويلاتها الرهيبة..
ومن ترى سينتصر؟
وكنت وقتها ألعثم الحروفَ
صانعا منها حكاية عجيبة..
وصورةً مخيفة للويل والثبور..
وأقرأ الصحيفة التى أتى بها أبى..
مفسرا خطوطها الحمراء والسوداء..
وخاطرى مفزع يدور..
«الحلفاء يزحفون»
«الروس يسبقون.. يدخلون فى برلين»

وتمّحى العينان فى غياهب السطور..

وفوق سطح بيتنا راحت تئز طائرة

ويعول الصدى، يضجُّ مدفع، ويعول الصدى..

وتلمع السماء مثلما يضيئها قوس قزح

ونحن نحن الصبية الصغار، لم تعد تخيفنا المخاطرة

فالحرب للكبار..

يعرفها الكبار..

أعمارنا توقفت قبيل سن العاشرة

توهجى يا أرض بالشرر

واشتعلى بالهول يا سماء،

ماذا يهم.. طالما دفنت رأسى فى قميص جدتى..

وغابت اليدان والعينان فى الدعاء

أن يحفظ الله البلاد والعباد..

ويقبل الصباح، نلتقيهمو.. زرق العيون..

عصابة السكسون، يرتعون فى بلادنا

وعن بلادنا .. يدافعون!

كل صباح، يعبرون قريتى..

مهرولين فى اتجاه بور سعيد

محنيةً ظهورهم كأنما تنوء بالذى يُحمَّلون

راجفة ضلوعهم.. كأنهم للتوّ يصعقون..

كأنما فى كل خطوة.. يضاجعون

فوهة الدمار.. والردى

ويعول الفضاء من جديد..

وأسأل الصدى..

ما أبعد الطريق.. والمدى!

وأين نحن؟ أين نحن منك يا برلين!

«٣»

رأيت «جوته» العظيم سائرًا يختال فى «فايمار»

تحت ظلال الزيزفون..

يصافح الزهر ويسمع الأشجار..

وينتقى من باقة الصبايا..

زهرته الريفية الوديعة..

رفيقة الحياة والمصير..

رأيته، كان يغنى للطبيعة الحسناء لحن حبه الكبير

مرددًا: «أحس فى فايمار

بأننى حرّ وأننى عظيم..

كهذه الطبيعة التى تمنحنى روح الخلود..»

وحين أقبل الصدى..

رأيته يبكى، وخلفه معسكرات الاعتقال

فى قبضة النازى، يموت فى أفرانها النهار..

يغيب فى أفرانها الأحرار..

يغيب فى أفرانها الأطفال والنساء والكبار والصغار

وتختفى الأجساد والأطراف والضلوع والأبصار

تهرأت، تفحمتْ، تطايرت هشيم نار..

وهذه السلالُ والأعواد من بقية الجلود..

رأيت جوته العظيم، باكيًا، وشاردًا..
يمزق الأوراق، والأزهار، والأشعار
يصيح: ياللعار!
نعود يا برلين من فضائك المديد..
نعود من «جيرا» ومن «تارانت» فى عيوننا سؤال:
هل بعد هذا يا إلهنا جمال؟
وتلتوى الوجوه والأعناق..
يشدّها انبهار لفتة إلى الظلال..
وآه ما أقسى الجمال حين يصبح الجمال فى عيوننا محال!
- «كأننى ولدت هاهنا..»
يصيح واحد من الرفاق..
فى كل ركن ها هنا ومنعطف
تسللت من بيننا سويعة قصيرة فريدة
ولحظةٌ عميقة العطاء بالسلام والأمان

ونحن هائمون.. لاطريق.. لاهدف..

ـ «كأننى ولدت هاهنا..»

تلك الظلال، والزقاق والروائح المبعثرة

ولفحة الرطوبة المستترة..

وعبق الزمان حين يصبح الزمان

غلالة، طافية، منتشرة..

هذى الأناقة الوديعة المنمنمة..

تعكسها الوجوه والجدران..

وساحة الدهليز حين يلتوى، ويحمل الخطى بلا استئذان

يقودنا.. إلى الصفاء والسلام والأمان

فى البلدة الصغيرة المنغمة..

.. ..

نعود يا برلين من فضائك المديد

نحمل فى عروقنا إصرارك العنيد

ووجهك المضمخ الجديد
وأنت تنبضين بالحياة والإيمان..
وتنثرين الحب فى أعمدة الدخان..
وتعبرين السور نحو فجرك الوليد
يا يوم رحلة العبور
يا يوم هدم السور[١]..
يداك تومئان للرجال من بعيد
وتغسلان عن صدور الطيبين الوادعين
مرارة الأحزان..
يا لوعة .. الإنسان!

(١) كتبت القصيدة قبل هدم السور بعشرين سنة

نداء سلام

فى «باكو» أو فى «موسكو» أو فى أى مكان آخر
تملك أن تصبح إنسانا
إنسانًا يحتضن العالم عبر تخوم الأسوار المحدودة
ويرى الأشياء كما لو كانت تولد أول مرة
إنسانا ..
يقرأ تاريخ العالم فى قاع عيون مشدودة

---

* كتبت هذه القصيدة خلال زيارة الشاعر للاتحاد السوفيتي في سبتمبر ١٩٦٩ عضوًا وفد إذاعى.

تمتلىء نضالاً ومحبة

تتلاقى باسم الأمل القادم عبر الظلمات

تنهار حدود ومسافات

وتطل الأيدى الممدودة

تتعانق من بين الكلمات

وجهًا ويمينًا.. ولسانا!

* * *

فى قلب الليل الصامت يولد حرف يتكلم

ينطق باسم الإنسان

القادم عبر مساحات شتى، عبر الآفاق الممرورة

يحمل فى جنبيه نداء سلام..

وهنا، فى قلب الهدأة فى باكو

يتدفق ضوء الفجر على موجات خزرٌ

لكن الفجر الغائر فى قلبى لم يشرق بعد

فجر دام فى بور توفيق

يتلمس فى وهج الموت طريقًا نحو الغد
ويغنى رغم الآلام..

* * *

فى «طشقند» بقايا من قلبى وحروف من كلماتى
تلتصق بجدران الزمن الخالى المهجور
وترابٌ يحمل عطر الفجر الأول فى تاريخ بلادى
وبقايا أصداءٍ خفتت من قافلة النور
الفاتح يعبر أرض «النهرين» يصافح سور الصين
يلطم وجه الظلمات ليشرق وجه الانسان
ويخاطب سمع الأرض بأجراس الملأ الأعلى
ويهزُّ الأصنام الوسنى فى أعماق القلب المذعور
الفاتح يفتح باسم الحق طريقًا للإنسان
يزرع فى درب الأيام بذور إخاء ومساواة
تنمو، فتوحدُ كلَّ الناس، تباركهم باسم الإيمان
وتُشيّدُ باسم الحق قلاعًا ومنابر

يرقاها الأسود والأصفر والعابد والزاهد
والعائد من ساحات المجد
أبطالاً كانوا .. ركزوا المشعل فى قلب السند
أطلالاً بقيت.. مازالت تشرق بالنور
تحملُ هذا الوجه الباقى من صفحاتى
تتحدى مرَّ الأيام!

* * *

أوشك أن تمتدَّ يمينى لتصافح وجهًا مألوفا
وجهًا عربىّ السمت نديًا بالبسمات
أوشك أن يتلاقى الغابر والحاضر فى قلبى
تتداخل فى سمعى أصداء صليل وصهيل
وفيالق وبيارق شتى ونداءات
أوشك أن أغرق فى هذا الوجه الزاخر ألوانًا وطيوفا
وجهك هذا المتلألىء دومًا فى قلبى
يصل إلىَّ هنا، عبر الآماد وعبر الأبعاد المجهولة

يجتاز حدودًا وسدودا
ويضىء طريقى الموغل فى الأشواق وفى التذكار
ويقود خطاى إلى واحات الأمل الدوار
يا نجمة أيامى يا نور القلب
فتعالوا نعبر هذا العالم باسم الحب
ما دمنا نملك أن نتلاقى فى كلمات!

أصوات من تاريخ قديم

١ ـ سيف الدولة

أدخلُ حلبَ الشهباءَ طليقًا أو مأسورا
أغزو..
أطعنُ صدرَ الروم، وأهتكُ درعَ الرومِ،
وأجمعُ أسلابَ الهلكى، والمذعورين
أتحولُ فى يومِ النصرِ بيارقَ وفيالق
ونسورًا شماً وميامين
أدخل حلبَ الشهباء، طعينًا أو منصورا

أدخلُ فى ركبكَ يا سيفَ الدولةِ، خلفَ غبارِ الفتح،
وتحتَ لوائكَ يا سيف الدين
تثقلنى باقاتُ النصر، وتحملنى أعناقُ المنصورين
تدفعنى موسيقى، لم تعزفها أرض بلدى، منذُ سنين
وأنادى
من قاع الحزن أنادى
- فأنا يا سيفَ الدولةِ دمعٌ فى عين بلادى -
يا سيف الدولة
كلُّ سيوف العربِ تصلصلُ فى الأغمادِ،
تهسهسُ فى صدأ الأقفالْ
يا سيفَ الدولة:
كلُّ خيول العربِ تحمحمُ فى الأوتاد.
وتصهلُ فى نوباتِ التذكار
تحملُ تاريخًا مذعورا
فلعلَّ الفارس يصحو، ينهضُ من كبوتهِ،

يمسح صدأَ الحزنِ،

ويغسل عار الأشعار!

* * *

يا سيف الدوله:

أبناؤكَ - يا للعار -

فى سوقِ الهلكى باعوك..

وعلى أسواركَ فى يافا - آهٍ يا يافا - صلبوك

وعلى أرضكَ فى عمانَ الثكلى داسوك

داسوا وجهك، وجهَ رفاقكَ فى حطين

ألقوا باسمكَ، باسمِ بلادى، فى قلب الطين

سقطتْ خيلاءُ الفتحِ، وضاعتْ راياتُ الشهداء

مزقًا تحت خيول الفَلَك الدوَّار

واصفرتْ أشعارٌ كانتْ باسمكَ مجلوة

تهتزُّ إباءً وحمية

«وأبو الطيب فى صدر المجلس يختالُ بقافيةٍ عنقاء

ويقارعُ غربانَ الشعرِ وأنصافَ المغمورين
ويردُّ سهامَ الموتورين بنارٍ من كلمات..
كلمات غضبى.. عربية!»
المادحُ أغفى.. والممدوح
لكنَّ الخلقَ جميعًا، سهروا يختصمون ويحتكمون
وسراياكَ تدكُّ قلاع الروم، تدكُّ عروش الروم
وتعودُ بوجهِ النصر، ووجه الشعر
لكنَّا نحن سقطنا عن صهوات المجد،
وعن صهوات الشعر
لما صرنا أسرى أو فارين
وتدورُ عباءاتٌ سوداء
بحثًا عن وجهٍ عربيٍّ معبود
بحثًا عن يوم عربيٍّ موعود
يحملُ شممَ العربِ، ويغرسُ فى قلب الصحراء
أغصانَ سلامٍ، ومنائر

ميلادَ فتوح ، وبشائر

وتدور عباءات سوداء

تتشبث بعروق الغبراء

وبحبةِ رمل فى صحراء

والكل هباء!

* * *

أتساءلُ؛ يا سيف الدولة

هل ضاعت من أيدينا كلُّ مفاتيح الحكمة؟

فسقطنا فى بئر النسيان..

وأكلنا ثمر العدم الأسود

وضللنا الدربَ، فنحن نجوبُ صحارى التيه

تتقاذفنا ليلاتُ الرعب، وأوهامُ المخموين

لكنّ، لا لوحَ، ولاكلمة

لافجر يشيرُ، ولانجمة

تصطدمُ الظلمةُ بالظلمة

ونظل حيارى مشدوهين
أتساءلُ يا سيفَ الدولة:
هل فقدتْ نارُ جوانحنا وقد الهمة؟
نقرؤكَ الآنَ فلا نرتاعُ، ولانهتزّ..
أولسنا موتى، مقبورين!
والموتى، هل يدميهم وخز؟

٢ـ أبو العلاء

الليلُ فى «معرةِ النعمان» جاثمٌ عنيد
تلاصقت ألواحهُ كحائطٍ صفيق
وامتدَّ من حبالهِ الغلاظِ وجهُ فاتكٍ جسور
ينسلُّ فى دائرةِ الألوان والظلال
بحثًا عن الجياع والعبيد
والموثقين فى ضلالة القيود
وأنتَ فى ذهولك الكونىِّ مثقلٌ شريد
ترود بالخيال عالم الصراع والأضداد

تمدُّ للسماء

عقلاً طليقَ اللمح، وارىَ الزناد

يقدحُ باللهيب والشرر

مشيعًا فى دورة الزمان والفلك

حقيقة الأحياء والموتى وجوهر الصفات والأشياء

منفتحًا على صفاء النفس والسريرة

محدثًا.. مرددا

«الكون يا صحاب فى قلوبنا يضىء،

حين تميلُ للرحيل زهوةُ العيون

فتبصرون.. يالهول ما ستبصرون!

وتشرق الجوانحِ الدفينة

بكلِّ سرٍّ كامنٍ فى قاعها يطوف..

عاريةً من الشكوك والظنون

نقيةً من الهوان أو مذلة السؤال

طليقةً من ربقة الخوف ومن أسر المتاع

تسّاقطُ الأوهام والحتوف

ويصبح الموت صدى، وتصبح الحياة حزمة من الظلال..

الكون يا صحاب ليس ضحكة وليس دمعة

لكنه رحى تدور تطحن الهشيم والرماد

والباذخَ المعتد من شوامخ الجبال

بورك من يظل فوق ظهرها حبة رمل أو حصاة

تعوق ثقل الرقِّ والفجيعة

ووطأة الإذلال بالرغيف

لانقطة الزيت التى تمنحها اكتمال دورة الحصاد

يا من يدلنى على المسافر الحصيف

تحررت عيناه من رغائب البشر

يضىء للإنسان، حيث كان ، شمعة!»

يا شيخنا، يا شيخنا الضرير:

ماذا رأيت من وجوهنا فاخترت راحة البصر

ويقظة البصيرة!

ماذا سمعت من حديثنا العبوس، فاعتزلت

منقبًا صحيفة الزمان، عن أَثرْ

قرأتَ فاكتفيت أم علمتَ فاستَرحتْ!

لكنَّ قلبك الكبير، كالشعاع، دائمًا على سفر

يجوب بدء الكون والختام

ويلحق القادم بالذى مضى

فى رحلة المعنى وفى قافلة الأيام

يا شيخنا، يا شيخنا الضرير

هل آن للإنسان أن يطاول السماء

بنبض قلبه الصغير حين تومض العينان بالأحلام!

بقبضةٍ لم تتسع للمسة السلام

لكنها تغوص فى ذبائح الدمار والحطام

هل آن للإنسان أن يجاوز الآلام

مهاجرًا من عالم الملال والسامة

إلى صفاء «المحبسين»

وعالم النقاء .. والكرامة!

٣.عنتـرة

منفردًا، وتائها

منفردًا فى ساحة العراء، هكذا يُجندل البطل

ويسكن الصوت الملحُّ، غير نجمتين ، مقلتينِ

تسبران غور ظلمة الصحراءِ

تبحثان عن وميض مقلتين، أخريين، عن أمل

ويسقط البطل

مضرجًا بسيفه،

مجندلاً على وسادة الأجل

صريع لعبة الحياة والردى

ويسكن الصوتُ.. ويقبلُ الصدى

.. ..

«فداء وجه عبلتى يهون كل شىء

فداء ثغرها الباسم أستدير للحتوف

مقبلاً، معانقًا..

منطلقًا من ذلةِ العيش، ومن رقٍّ السواد فى الجبين
منتصرًا على الفضاء، والمدى»
منفردًا .. وتائهًا
يسقط سيفك العظيم فى دوامة الرمال
محملقًا فى العالم الذى يفتت الرجال
مستوحشًا، وشائهًا
يا عبلُ.. يا حريتى
يا أملاً رفّ ودار واستدار فى خفوق مهجتى
هدهدته طفلاً على مدارج الثرى
وحين شبّ، شبت الحياة فى عروق صبوتى
منفتحًا على رغائب الشباب وانطلاق زهَوة المتيمّ الشجاع
يصنع باليدين ، عالمًا ، نما ، ترعرعا
كسرتُ قيدى عندما صرنا معا
ـ نما، نما، وأينعا ـ
حطمت رقى عندما صرنا معا

نخوض فى عجاجة الميدان، نلطم الأقرانَ
باسمكِ النبيل، باحتواء مهجتى عليكِ،
بارتسام وجهك المنورِ الوضىء فى سريرتى
وأنتِ فىَّ تمنحيننى تميمةَ النجاة
ـ مخاطرًا وسط الردى أقاتل ـ
تُلَقِّين فى صحراء عمرى واحة الأمان والسلام
تباركين فى خطاىَ وقفة الصمود والإصرار والتحدى
وعنفوان ثورة العبيد حين يحلم العبيد بالحياة
ويسقطون دولة القيود والسلاسل
يدعون: ويكَ عنتر المقدام.. كنْ لنا
لعبلةَ المنى، لعبسٍ للعرب
لكلِّ مظلوم مطارد يقتاته الحِمام والظلام!

* * *

من أجلهم، من أجل عينيك الجميلتين
لبست ثوب الموت، وادّرعته مسربلا بالدم

هصرتُ عيدان الغضب

آنست غيلان الفلاة والسباعَ العاوية

وأنتِ.. حيث كنتُ غايتى ورايتى

تبددين قسوة الوحشة والظلام

وتكشفين الجوهر الخبىء فى قتامة الأيام

* * *

عنترةُ الفارسُ: كان هاهنا، وغاب

عنترةُ العاشقُ: عاشَ هاهنا، وغاب

عنترةُ الإنسان: كان واحدًا منكم، وغاب!

لــؤلــؤة فى القلب

أنـــت

يعبرُ العامُ..

ويأتى العامُ..،

نرتاح إلى رؤيا جديدة

نعبر الكون، كطيرين وحيدين، على متنِ قصيدة

ونرى الأيام، والأحلام، كنزًا لا يحدّ

وعطاء... كالأبد..

يلتقى العامان فى لحظة ضوء قدسية..

وصدى الأجراس فى الأسماع، أفراح شجية

ونداءات لفجر سوف يولد

أى شىء يا ترى، يحمل فى كفيه، فى عينيه،

فى آفاق

رؤياه البعيدة

تعبت منا الحكايات القديمة،

والنداءات الشهيدة..

تعبت منا الدهاليز التى كم ضيعتنا

وهى تخفينا عن الأعين، عن كل المساحات البليدة

يعبر العام،

ولكن..

لم نزل أكثر نبضا وعطاء

وحنينا للذى فاتَ

وللقادم: شوقا ورجاء!

* * *

يعبر العام، ويأتى العام،

لكن..

أنت تبقيْن وجودًا .. وأمل

وطريقا نابضا باللمسة الأولى، عميقا كالأزل

وشعاعا ثاقبا أفْق حياتى..

ساكبا فى عمق ذاتى.

قطرة الضوء.. الوحيدة..

وأمان الأرض.. للنفس الشريدة

وهى ترتاح إلى شاطىء دنيانا الجديدة

وهى تهتز إلى لون المسافات المديدة

لحظة تولد فينا،

كانهمار السيل، كاللمحِ المشعٌ الضوء،

كالرؤيا العجيبة..

يعبر العام، ولكن أنت تبقين حياتى

وسنينى القادمات،

فى غدى

والذكريات!

حبنا

فى الزمن المغرقِ فىِ القتامة

لا يملك الإنسان ـ كى يواصل المسير والترحال

يجوس أطلال النفوسِ والوجوه الخربة

وعبر آلاف الضحايا الساقطين تحت وطأة التجارب المخيبة ـ

لا يملك الإنسان غير أن يصيح فى العراء باسمكَ المؤانس الودود

لعله يمتلك الجسارة المفتقدة

ويستطيع الخوض فى الوحول والأهوال
بحثا عن الأمان والسلامة!

* * *

فى الزمن المغرق فى السآمة
ولذعةِ التكرار حين يصبح التكرارُ يومنا وأمسنا
وتأسن الأشياء، تأسن الطعوم فى حلوقنا
توقفت سنابك الزمن
وارتعدت فرائصُ الذين يحملون بيّرقَ الخلاص
واشتبكت أصواتنا فى زحمةِ الهتاف، فى دوامة النباحِ،
فى حشرجة الصدور والأنفاس
يبقى لنا الصوتُ الوحيدُ،
صوتنا اليتيمُ،
صوت حبنا القديم،
يأيها المدججون بالسلاح، أيها الحراس:
الليل مطبق.. ولا مناص!

* * *

فى الزمن الذى انحنى، على صدورنا انحنى، شارة عار!
نحمله كالخنجر المسموم، فى ضلوعنا، ونتكىء
يغوص فينا حدهُّ المسنونُ، غاصَ حده المسنونُ، آه
يا لذاذة الألمّ!

وكاذبٌ هو البكاءُ.. والشكاية المهترئة
وباطلٌ هذا التظاهر المقيت بالندم
فليس فى عيوننا سوى انطفاءة العيونِ فى انكسار
وأنت قابع هناك هامد الجناح، راعف المنقار
- يا حبنا الحبيس فى خزائن التذكار -
تجيئنا من بعد غيبة الربيع والأمطار..
محملا بزادك الوفير من بيادر الأسفار
حكايةً تؤنسنا،
تشعل فى شتائنا رغائب انتظار
لعلنا..
نصنع منك عالما يعيشه الصغار
ويشرق النهار!

أغنية الزمان القبيح

ومن بين كل النساء، وكل الوجوهِ،
لماذا توقفت عندك أنتِ؟
وحدقت ثانيةً وانتفضتُ..
وأيقنتُ أنكِ. لابدَّ أنتِ!
شعاعٌ بعيد بغير انتهاء
وصمت عميق المدى.. لا يبوح
وحزن كآثار جرح قديم
وسمتٌ تجللهُ كبرياء

أأنتِ!

كنفسيِ التى لا تقرُّ

كأفقى الذى لايُبينُ

كيوميِ الذى يترنح، يهوى، تغوص مناكبه فى الشقوق

تحدق عيناه فى جثة الأمس، تفترشان مساحة دربٍ

تقودُ خطاه إلى الهاوية

ويؤمنُ،

يرفض،

ينزعُ كل غشاوةِ سجانهِ،

ويبصرُ حجمَ قزامته، وصكوكَ خياناتهِ، فيصيحُ،

ويختنقُ الصوتُ، يخفتُ إذ يتلاشى،

يحاول أن يستبينَ الصدى، فيضيع!

معا فى الزمانِ القبيح نسيرُ،

معا فى وحول الوحول نخوضُ،

معا نلطمُ اليوم وجهَ المخاتلِ، وجه المراوغ،

وجه الجبان المكشر عن كل أنيابه، وجه كلٌ الذين
يقولون لا يفعلون، وياليتهم لم يقولوا،.. ونبقى معا..!

* * *

ومن بين كل القصائد

تظلين غابةَ شعر، تنوءُ عرائشها بالكرومْ

وتصدحُ أطيارها بالغناءِ الرخيم

وتلمع أنهارها بالنجوم

وتحملُ أعشاشها اثنين،

يلتصقان،

يذوبان،

ينغمسان بحضنِ السديم

يعودان بعض أثير قديم

يجوبان كونَ الرؤى

يجوزان كل التخوم..

يطلان ثم يشيران:

«هذا الذى فى الثرى تكوّرَ وامتدَّ: وجه دميمٌ،
بطينته، وبأضغانه، وبكلٌ صراعات أيامهِ، ورهبةِ
سجانه، وبكل مذلةِ أبنائهِ خلف سوق الرغيف،
وكلّ وضاعة حراسه القابعين وراء القصور،
وكل تمزق أبطاله الحاملين غبار المفاوز،
شارة عار القبيلة، غار الحتوف،
رجيم.. رجيم».

* * *

تظلين فىَّ، وحولى،
وفى كل درب سلكتُ،
وكل شعاعٍ يعانقُ نفسى، فتشرقُ، تصفو، تشفُّ،
تغادرُ طينتها
تظلين: أنتِ البدايةُ، أنتِ النهاية،
أنت سفينة عمرىَ!، مرفئىَ السمحُ، واحتىَ الخصبةُ
المشتهاةُ..

تظلينَ تعطينَ لا تسأمينَ، ولا أنتِ تنتظرينَ العطاءَ،

ولا تحسبين المودةَ بالشبر أو بالذراع

وشرّقت، غربتُ، سيانِ،

لابد يلتحمُ الكوكبان،

كأنا قدر!

وأنتِ ككل البشر

عذابٌ وشوقٌ وضيقٌ ولهفة

وشكٌ ويأسٌ وأنسٌ وغربة

وصد وتعويذة واشتهاء..

ويمضى الخريف ويأتى الشتاء

فتهتز فى الصدرِ رجفة..

وتقدحُ أعماقنا بالشرر

ومن كل ما فى الحياةِ كيانك، هذا الذكىُّ التأثرِ،

هذا الفريدُ الملامحِ، هذا النقى الغرابة

تظلينَ حولى سحابة

تظلل عمرى،

تروّى حدائقه بالمطر

ونمضى معا!

الرغبة المعتقة

فى زحمة الوجوه، فى تعدد الوجوه والأسماء
لا تخطىء العينانِ وجهك المضمخ المنعم البهاء
فى زحمة الأنغام، فى دوامة السكون والضوضاء
لا تخطىء الأذنان موسيقاكِ حين تستديرُ لفتتك
وأنت إيقاعٌ ونبضُ كبرياء..
فى زحمة الأنفاس فى تماوج الظلالِ والألوان
لا تخطىء الأنفاس عطرك الفريد فى النقاءِ
وأنت سحر باهر ونشوةُ افتتان

وموجةً خضراءُ لا تقرُّ فى مكان
وغيمة مشدودة العروق للسماء
تسحُّ فى عيوننا على المدى ضياء
وتسكب الأشواق فى أعماقنا .. نداء..

* * *

كأننى من ألف عامٍ جئت بابك الوصيد
أبحث عن تميمةٍ وعن دثار
وأحتمى من لفحة الهجير والأمطار
فى ظلك الوريف أحتمى..
فى روضك الظليل أرتمى.. وأنتمى
فى دفئك الوثير أنسج الأمان والأشعار
وأنت مأواى الوحيد والفريد
واتسعتْ عيناك لى..
عيناكِ للغريب دار..
عيناك ملجئى الأخير حين يدبر النهار

كأننى من ألف عام جئت بابك الوصيد
واتسعت يداك لى،
يداك لى جدار
واخضوضرت خمائل التذكار
يداك تعبران خاطرى
ترتجفان، تستديران براءة انتظار
وتستحثان الخطى إصرار
كأنما من ألف عام كنتِ لى..
من شدة التصاقنا أقول:
لو كنتُ لفظة وحيدة على فمك
إذن أقمت ها هنا وما ارتحلت
لو كنت لمعة وضيئة بمقلتك
إذن فهاهنا عبرتُ واسترحت
لو كنت لحظةً سخية بشرفتك
إذن لعشتُ ها هنا وما برحت..

لو كنت رنّةً بعيدة بمسمعك

إذن لذاب خافقى الذى عزفت!

* * *

أحلمُ أن تطيحنا رغبتنا المعتقة..

من ألف عام وهى تنقر الجدار، دون جدوى،

تنقر الجدار

حبيسةً فى القاع من عيوننا المحترقة

وفى ظنوننا المعلقة

مسلوبة الرنين والصدى..

عارية لم تستترْ، لم تصطنع إزار

قد آن للغليل أن يروَّى..

وللغريق أن يصارع التيار..

قد آن للسجين أن يفكَّ من قيوده وينطلق

كأنه إعصار..

ما دمت لى.. ما دمتِ لى

فأجمل الأشياء أن نصارع الأقدار!

لؤلؤة فى القلب

من خـــافـقى، من عـمق هذا الكيــان
تهــتــز فـــــى ســـمـــعىَ أغــرودتان
من كل مــــا يحــــويه وجـه الـزمـــان
وأنتِ لحـــنا نــــشــوةٍ وافــتـــتـــان
إيقـــاع حـــب غـــامـــر يسكبـــان
تبـــســـمتْ فى الليل لى نجــمــتـــان
عــيناك.. فـيض الســحــر.. فـيضُ الحنان
عــيناك .. من تبّرٍ همــا أم من جمــان

لؤلؤة فى القلب؟.. بل حـــبـــتـــان

وقـطـرتـا ضـــــوء؟.. أجلْ قطـرتـان

وضـيـئـتـانِ كـالسنا.. نقـيـتـان

* * *

أرتاح كـــالموجـــةِ.. للشـــاطـىء

فى صـدرك المخـضـوضـر الناتئ

فـــى همـسكِ المسـتـرسل الدافىء

المنـــتـــهـى فـــىَّ أو البـــادىء

فـــى وجـــهك المنور الهـــــانىء

فـــى حلمنا المسـتـغـرق الهـادىء

يـــا فـــتنة المصـــور البـــارىءِ

وروعـــــة العـــابد والقـــارىء

* * *

مـــاذا لو امـــتـــدتْ يـدٌ فى البـعـيـد

تفـــسح لى درب الحـــيـــاة الوليـــد

وتنفضُ الأمس القـــديم الجـــديد
وتحـمل الفــجــر القــريب البـعـيـد
دنيـــا اشـــتـيـــاق وبقـــايا وعـــود
ونحن نبـــدى حـــولهــــا أو نعـــيـــد
ونعــــبـــــر الأيام طيـــرًا شــــرود
يســــبح فى روض الأمــــانى المديد
ويسكب اللحن الشـــجىَّ الفـــريد
أغنيـــة كـــالعـــمـــر.. لا كـــالخلود

* * *

هـذى يدى تمتـــــدُّ.. هـذا فــــــمى
يشـــــدوه وهـذى نشــــوتى فى دمى
ونفـــحـــة تغـــمـــرنى فـــأحـــتـمى
وأســـــتظل فى حــــــمى الأنجم
وخـطوة تحـــــملنى فـــــأرتمى
فـــغـــايةُ النشـــوة أن تقـــدمى

ومنتـــهى الفـــرحـــة أن تسلمى

وقـــمـــة اللحظة.. أنِ أنتـــمَى!

لحظة لقاء

كم يبقى طعم الفرحة فى شفتينا!
عمرًا؟
هل يكفى!
دهرا مسكوبًا فى عمرينا..
فليهدأ ناقوس الزمن الداوى فى صدرينا
ولتتوقف هذى اللحظة فى عمقينا
لن نذكر إلا أنا طوّقنا الدنيا، أغفينا
وارتاحت كفانا.. تغرس دفئا فى روحينا

لن نذكر إلا أنا جسّدنا حلمينا

وارتاح الوهج الدامى فى عينينا!

* * *

قلبكِ فى صدرى، يسمعنى أغلى نبضاته

يهدأ فى خلجات اللقيا، أغفو فى أعمق خلجاته

وأطل عليك، ضياء العمر، ونضرة واحاته

أقبسُ ومض الأمل المشرق فى لفتاته

أرشف نبع الضوء الهامى فى نظراته

يسّاقط كل رحيق العالم فى قطراته

وأرى دنياى وأيامى أبدا تمشى فى خطواته

* * *

أسأل: هل تتسع الأيام لفرحة قلبين؟

تعبا،

حملا الدنيا،

عاشا مقرورين..

هل يخبو هذا الألق الساجى فى العينين!
ونخاف يطير، فنمسكه ، ونضم الدنيا بيدين
ونعود إلى عش ناء نرتاح إليه طيرين
أسأل: هل تتسع الأيام لنضرة حلمين!
أقرأ أيامى عندهما كونا يتفجر لاثنين

* * *

عيناى تقول، يداى تحدق ، والأشواق
فيض يغمرنى، يغرقنى فى لفح عناق
وحريق يأكل أيامى.. يشعل نيران الأحداق
مازلنا من خلف اللقيا نبضا فى صدر مشتاق
أملا يتجدد موصولا .. معسول شراب ومذاق

بين عينيك موعدى

«بين عينيك.. موعدى..»

وأنا أحمل أيامى وأشواقى إليكا..

وأرى فى الأفق النائى يدا تمتد كالوعد، وتهفو

وأرانى نحوها.. طوع يديكا..

من قديم الدهر، كانت نبضة مثل اهتزاز البرقِ

مثل اللمح،

شىء لست أدريه احتوانى،

فتلاصقت لديكا..

يومها، وارتعشت عينانِ
أغفى خافقان،
استسلما للخدر الناعم ينساب ويكسو وجنتيكا
يومها، واتحدت روحانِ
أغفت مقلتانِ
اختارتا حلما برىء الوجه، حلو السمتِ
عشناه نديا، أخضر اللون، وضيئا
وقرأت العمر مكتوبا.. هنا.. فى مقلتيْكا!

* * *

«بين عينيك موعدى..»
وأنا كل صباح أتلقى نبرة اللحن المندّى
ساكبًا فى قاع أيامى ربيعا واشتياقا ليس يهدا
ليس يرتاح.. سوى أن عانق العمر وضما
ليس يرتاح.. سوى أن أشبع الأيام تقبيلا ولثما
وتهادى، كاخضرار الفجر، مزهوّ الأسارير

طليق الوجه، مضموما إلى وجه المفدى

لمسة، وانطلقت منك يد

تعزف أنغاماً..

وتهتز رياحين وورداً..

مسحت جبهة أيامى، محت عنها عناء وتهاويل وكدا

واستقرت فى يدى لحظة صدق، خاشع الخفقة

ينساب وعودا..

ذقتها وعدا فوعدا..

ذقتها يا مسكرى.. شهدا.. فشهدا

* * *

«بين عينيك.. موعدى..»

يومنا القادم أحلى.. لم يزل طوع هوانا

كلما شارفت الحلم خطانا، واطمأنت شفتانا

واستراحت مقلتانا

وتمنينا، فكان العمر أشهى من أمانينا، وأغلى

وظننا أن خيطا من ضياء الفجر يهتز بعينينا،

سلاما وأمانا..

كلما قلنا بدأنا وانتهينا..

صرخت فينا وفى أعماقنا، لحظة جوع ليس يهدا

فرجعنا مثلما كنا،

وكنا قد ظننا الشوق قد جاوزنا، واندحا عنا

ويد تمتد من خلف الليالى، كى تطلا

نسجت ثوب حنان ليس يبلى

طوقت أيامنا الخضراء أحلاما وريحانا وظلا

يومنا القادم.. أحلى

يومنا القادم.. أغلى

أروع من عينيك.. لا

أروع من عينيك.. لا
النجمتان.. تهديان خطوى الأمين
منارتان.. تثقبان ظلمة السنين
فأهتدى إليك..
وألمس الأمان فى يديك
وأعبر المدى الحزين..
أروع من عينيك. .لا
سفينتى إلى مرافىء القمر

وديعتى..

وزادىَ الكبير.. والسفر

على شعاع مقلتيك

يا بسمة مهاجرة

من عالم الأثير والصفاء

من روضة العبير والنقاء

وضيئة.. وعاطرة

* * *

أروع من عينتيك.. لا

شعاعتى إلى المساء

ورحلتى إلى الضياء

جناحىَ المرفرف المحلق المفتون

وعالمى الخصيب باللحون..

أقول: ما أبهى .. وما أجملا

أروع من عينيك.. لا

* * *

عند انكسار الضوء ثَمَّ موعد لنا
نخطفه من قبضة الزمان والمكان
التائهان فى مسيرة العراء
فى لفحة الهجير والصحراء
تقلبا..
على مرافىء السلام والأمان
تغرّبا..
عند انطباق الأفق، والسماء
توشك أن تهم بالبكاء
سحابة سخية معطاء
وديعة تُظلّنا
عند انكسار الضوء، ثَم موعد لنا
عيناك فى الطريق كوكبان يهديان
يداك تمسحان رعشة الأحزان
تذكار ما مضى من الزمان

وتسكبان الظل والرحيق والحنان

فى الدرب.. عند المنحنى..

فثَمّ موعد لنا..

نخطفه من قبضة الزمان والمكان

أعود لا أذكر غير ملمس الأشواق

ورعشة محمومة كأنها عناق

ولحظة وحيدة تضمنا..

فأعبر السنين كى أراك..

أعود تغرس اللحون فى جوانحى خطاك

رقيقة..

طليقة..

كأنها يداك..

أعود ملء خافقى بريق مقلتيك

يضيئنى..

يهتف بى..

يضمنى..

يشدنى إليك..

يكشف لى سبائك الأعماق

يا كنزىَ الفريد والوحيد

فى رحلة الهجير والأشواق!

أنـادى عليك

أنادى عليك..

برغم المسافات، رغم انهمار الليالى

برغم انطلاق الزمان، برغم امتداد المحال

برغم اقترابك منى.. أنادى

برغم ابتعادك عنى.. أنادى

وأعلم أنك فىَّ..

وأن طريقى إليك يؤدى إلىَّ

ويفضى إلى خاطرى واعتقادى

وينثر زهر هوانا القديم على كل ظل وواد

وما زلت رغم الليالى أنادى

ألست رحيقى وزادى!

* * *

أنادى عليك..

وألمس نبض الصدى، والمدى، كاسيا وجنتيك

وألمس نبض اشتياقى إليك

وأدنو..

أمد إليك اليدا

لترتاح طيعة فى يديك..

ويرتجف اللمس، ترتجف اللحظة الباهرة

وترتجف الومضة العابرة

وترتجُّ حتى الخلايا

وحتى الضلوع البعيدة خلف الحنايا

ويهمس شئ دفين الحكايا..

أنادى عليك

فترتسم اللحظة الشاعرة

ويسطع وجه الزمان ويشرق صدر المكان

وتدنو..

وأدنو..

وتلتحم الخطوتان

ويغتمض الحلم.. يسكب فى مقلتينا الأمان!

* * *

أنادى عليك..

وأنت ضيائى الذى لا يغيب ولا يغربُ

أنادى عليك

وأنت الصدى العذب.. لا يكذبُ

أنادى عليك

وأنت ربيعى.. وكأسى التى أشربُ

أنادى عليك..

وأنت رحيقى الذى لا يفيض ولا ينضبُ..

أنادى عليك..

وأنت قريب، كنفسى منى، بل أقربُ!

موعد مع النجوم

من أى ساحات الخيال جئتَنا..
من أى أرض، ثرة الأفراح والأشواق
غمّرتَنا سحابتين من رضا
وموجتين من شجون
يا مخصب الأيام باللحون
ودافق الحياة فى العروق
أما شهدت فرحنا
لضمتين.. قبل طرقة الفراق

ورشفتين..كل رشفة مذاق

وخطوتين.. كل خطوة عناق

من أى ساحات الخيال والجمال جئتنا

يا حلمنا القديم.. يا عزاءنا

يا فرحنا الجديد.. واحتواءنا

لكل ما فى الأرض من مواكب الحنين والسلام

لكل زهرة عبيرها يعطر الأيام

لكل دفقة ندية كأنها ابتسام

يضىء فى شفاهنا !

* * *

تسوخ فى الرمال، فى متاهة الثرى أقدامنا

لتشهد الحياة أنت

نُبحر ما نبحر فى مرافىء المحال

لتلمس القرار أنت..

وتحضن الشاطىء والأصداف واللآل..

نطالع المساء، تائهين ، عاريين فى القفار
لكى يضىء فى عيوننا شعاع مولدك
وتستدير فى جباهنا حمرتك المرنحة
ويملأ الوجود من عطائك الفريد
سحابة على المدى تظللنا
يا لهفة السنين فى أعماقنا
ودفقةَ الرجاء فى أحداقنا
إنا هناك، عند بابك الأمين
نشفق أن تصدنا..
مشردين، مجهدين غارقين فى السنين
فهل تضمنا رحابك الفساح؟
من لوعة القفار والبطاح
من ثورة الهجير والرياح
يا غامر الطريق بالأشواق والأفراح
وساكب الضياء فى القلوب والعيون

كأنه صباح!

* * *

على وسادة من السلام والأمان
يضمنا جناحك الرقيق
وملء أعين الرضا
تضيء قطرتان من حنان
وتنبتان فى الطريق
ثمار ما خضناه من عذابنا القديم
شعاع لحظة تحملنا على مشارف النجوم
تذكار موعد مضى..
من غير أن تضمنا يداه
من غير أن تُظللنا خطاه
لكنه هناك ملء خاطر السديم
مازال فى روائح العبير والعناق
ولحظة عميقة العطاء والأشواق

ومقلتين تنبضان فى الذهول والإطراق

لأنه موعدنا .. تذكارنا القديم

على وسادة من السلام والحنان والأمان

يحملنا ..

يحملنا إلى النجوم!

وحدك المصير

من أجل لحظة وحيدة تضمنا
تاهت خطانا فى مسارب القفار
من أجل أن يفيض صفونا وأمْنُنا
راحت يدانا تطفئان زهرة النهار
وتصنعان من ظلاله دثار
يظلنا .. يدفئنا ..
الآن.. ليس غير مقلتيك.. أرتوى،
أعب منهما .. أطالع السنين

وليس غير صدرك الحنون مرفئى الأمين

يا صورة الهوى الأثير فى معالم العيون

من أجل لحظة وحيدة تضمنا

أسير.. ما أسير..

أعانق الفراغ والصقيع والهجير

لأن واحة ندية تطل فى يديك

وبسمة رضية تضىء مقلتيك

وموعدا يظلنى إلى القمر

من أجل أن يفيض صفونا وأمننا

وجدت حلمى.. واقعا مرفرفا لديك!

* * *

أكلما خطوت كان فى اتجاهك المسير!

يدفعنى الحنين والتذكار والشعور

تشدنى يد خفية إليك

أكلما خطوت خطوة.. وددت خطوتين

فخطوة تحملنى.. وخطوة إصرار
لعلنى أراك، أنتهى لساعديك..
الآن.. هل أقول ما أريد أن أقول
مادام ملء قلبى وجهك النبيل
يا وجه أيامى المضمخ النضير
أكلما خطوت كان فى اتجاهك المسير
ألست وحدك المصير!

* * *

غنيت للأشواق قبل موعد الأشواق
وقبل ساعة تظلنا كأنها عناق
أجمل من عين الخيال موعدُك
أروع من وعد السنين وجهك الوضىء بالنغم
أخلد من كل اللحون ما تقول أنت
يا مسكرى من دفقة الرحيق
سحابة العطاء فى يديك

تفيض، تغرق الحياة من حنانك الوديع
وموكب النعيم أنت..
ظلاله، أطيافه، تمثاله البديع
أروع من عين الخيال نفحة تنوّر الطريق
تغمرني..
تشد أنفاسي
فهل تُرى أفيق!
أكلما خطوتُ كان في اتجاهك المسير!
ألست وحدك.. المصير!

فى كلمات

هل تطفىء غلتنا الكلمات!

هل تملك أن تحملنا، أن تجمعنا..

أن ترونيا فى لحظات

هل تملك أن تدفئنا؟

ما عادت تسقى شفتينا..

ما عادت تكفى قلبينا..

ما عادت تطفىء هذا العطش المسعور

هذا الشوق اللافح، هذا القلب المبهور

تتركنا نعثر فى خطوات

تتركنا بضعة آهات..

نغفو.. نصحو..

ماذا فى كفينا!

ماذا نملك أن نعطى!

عمران اتحدا فى كلمات..

* * *

لا،

ليس سواك يعيد النور لعينيّا

لا غيرك، يسكب طعم الراحة فى كفيا

يحملنى فوق جراحاتى ، فوق شتاء الزمن المقرور

يغرقنى فى ومضة نور

يرجعنى للحلم الباهر، يكسونى دفئا وعطور

يملؤنى، يملأ أعماقى

يا عمرى الذاهب والباقى

فأريح سفينة أشواقى

وترف الدنيا.. وتدور!

* * *

ماذا، لو تمطرنى عيناك بألف سحابة شوق!

وأنا كالعابد فى المحراب بقايا توق

أرشف ما يسّاقط من ثمرات القلب

أُترع أيامى من نبع مسحور خصب

لو نملك أن نوقف يوما لحظات اللقيا

لتظل حوالينا ألقًا يكسو الدنيا

وجها مزهوا نشوان الرؤيا

لو نملك أن نوقف هذا الزمن المولع بالدوران

ليظل العطر بأيدينا يصّاعد من لمسات حنان

لو نملك، ماذا كانت تحكى العينان أو الشفتان!

عن واحة عمر عشناه والدنيا إيقاع أمان!

هل يملك أن يرتاح الرأس المجهد

فوق الصدر الحانى المسحور
بين يدين مضوأتين بعطر النور
هل يملك أن يرتاح العمر الأسعد
عند شعاع الوجه المنضور
يا فيض عطاءٍ.. لا ينفدْ
هل تملك أن ترتاح الأنفاس الحرى
عند سكون الضوء الهامى فى عينيك
عند أريج العطر الغافى فى شفتيك
عند رنينْ اللحن السابح فى قدميك
هل يملك أن يرتاح القلب الدامى
هذا المفتون المشدود الأوتار إليك
فمتى.. يا حبى، يا قلبى، يا وهج الدفء
يا نبع حياتى، وصلاتى، يا ألق الضوء
هل تطعم عمرينا الآهات..
ونظلُّ حيارى فى خطوات..
ونذيب الدنيا فى كلمات!

لمـاذا..

لماذا : كلمـا اعـتنقت على شـغف سـواعـدنا
وضـج الشــوق فى دمنـا، ينـادينـا، ويدفــعنـا
وأغـمـضـنـا عـيـونـا أُشـعلت فـيـهـا رغـائبنا
وكـدنا نـلمس الأحــلام، كـدنـا نعـبـر الـدنيـا
طليقـيْنِ من الأسـر الـذى كم قـيـد اللقـيـا
وأوشـكنـا نـرى بالـعــيـن مـــا رفت به الرؤيا
التى شـىء فـفـاجـأنا.. واجـهـدنا ، وأطـفـأنـا
وبـاعـــد بيننـا حـــينـا، وفـــرق بيننـا زمنـا

ورحنا نرقب الأيام أن تأتى فتجمعنا!

* * *

لماذا: كلما اقتربت من المرسى سفينتنا

وأوشكت الرؤى ترتاح والدنيا تعانقنا

وقلنا نحمل الأشواق والأحزان والذكرى

نوسدها إلى صدر يهدهد نارها الحرى

أتى شىء ثقيل الخطو بدد ما وهمناه

وغاضت لحظة الصفو الذى كنا صنعناه

وعدنا نسأل الأيام عن حلم فقدناه

وفى أعماق أعيننا التى احترقت رأيناه

* * *

لماذا لا أرى إلاك فى صحو وفى حلم

وأنّى فتّحت عينى، وأنى طوفت قدمى

فأنت سحابة الأشواق والأفراح والنغم

وأنت الجنة المعطاء تغمرنى عطاياها

وتنضح ملء أيامى أطايبــــهــــا ورياها

وتحــملنى على أفق بعـيـد الضــوء كـفـاها

لماذا تطلق الأســرار من شــفــتىَّ عــيناك!

لماذا لم تعـــدْ دنيـــاى إلا بعض دنيـــاك!

فـهل يكفى إذا ناديت ملء العــمــر: أهواك!

أنــا.. أنت

من جــــديد.. تعـــانقت أيدينا
وارتعــشنا جــوانحــا وعــيــونا
وابتسـمنا من بعد طول التـأسى
ونســينا وجـه الحــيــاة الحــزينا
بعـــد مـــا دارت الليـــالى علينا
فـــغــفــرنا عــذابهـــا والأنينا
وعــرفنا أن الهـوى يا حــبــيــبى
لم يـزل نابضـــا كــمـــا كــان فـيـنا

* * *

فــرقــتنا الأيام شــرقــا وغــربا
وشــربنا الفــراق مــرا وصــعبــا
مــا الــذى كــان كــامنــا فى الحنــايا
أيقظ النــار فــى الفـــؤاد قلبى
قــد رســمنا على الطريق خطانا
كيف يمحـو الزمان خطوا ودربا
وأرانــا على المدى يا حـــبــيــبى
يحــتــوينا الضنى فنزداد حــبــا

ذاكـــــر أنت خطوتين   يــوم كــنــا كـطــائــريــن
نــقطع الــلــيل بــالمنـى   نلمس الفـجــر باليـدين
وأنــا أنــت، والهـــــوى   قــبلة بين عـــاشــقــين
إن تكن غــــبت مـــرة   فـــأنا ذبت مـــــرتين

من جــديد .. وأنــت زادى وذخــرى
وصــدى خــافــقــى، وواحــة عــمــرى
والليــالــى التى تقــضت ســراعــا
بعض قلبى، وبعض نفسى وفكرى

وحدّتنا الأشـــواق حـــتى غــدونـا
طيف حب، فكيف تصبح غيرى!
أنا حـسبى أنى وضعت حيـاتى
بين حـضن الـهوى وسلمت أمرى

* * *

المواعـــيـــد والـفِـكَـرْ والحكايات والســهـر
والعــهــود التى جــرت بيننا، يشــهــد القــمــر
كلهـــــا الآن، لم تـزل تملأ الســمع والبــصــر
قـل لمن بـات مــــثلنا طـابـت الـكأس والـوتـر

من جـــديد ندقُّ باب هـوانـا
ونـرى الكون عـــشنا وصـــبـانـا
ونعـــيـــد الحـــيـــاة حلمـا نديا
مــثلمـــا كـانـت الحـيـاة وكـانـا
من جديد يعود صـوت الأمـانى
وتعـــيـــد الدروب وقع خطانـا

كيف أنساك يا تميمة عمرى

سر عينيك يقهر النسيانا

لا تقل كان وانقضى إنما نحن ما مضى

نحن ذكرى توسدت خافقينا فأغمضا

وغدٌ مشرق الخطى يغمر العمر بالرضا

يا حبيبى.. وأنت لى ما الذى يفعل القضا؟

أنـــا إليـــك

أنا إليكِ، مــبــتــداى، حــاضــرى، نــهــايتى
أشــعلتِ أيامى، فــصــارت نــارهــا حــقــيــقــتى
فـــإن ســـئـلـتُ عن هــواى هـذه حـكـايـتـى
نـديـة كــــوجـــــهك المـلـىءِ بـالـطـفـــولـة
رخــيــمــة كـصــوتك المنســاب فى ســريـرتى
عــمــيــقــة كـعـطـرك الزكى فى حــديقــتى
حــســبى على طول الزمــان، أنــت، يا حــبــيــبــتى

* * *

لو نجمة تنير لى، لو كان يهمس القمر
بأن موعدا لنا، نسرقه من القدر
فلنتطلق أنفاسنا.. وشوقنا الذى استعر
وليحمل النسيم بوّحنا الشجى إن عبر
ولتسترحْ عيوننا.. فى واحة مدى البصر
يا كم تشاكينا،
ظمئنا،
ثم أقبل المطر!

* * *

سيشرق الصباح يا حبيبتى، سيشرق الصباح
فليسكت الأسى الذى أظلنا، ولتسكت الجراح
اليوم لا مكان للدموع فى عيوننا، ولا نواح
إنا معا على المدى، يظلنا معا جناح
ما دمت ملء خافقى، فألف أهلا يا رياح

كلمات لا تنسى

لو عــدنا نقطف حلمــا كــان يضىء ليــالينا
ونلملم أفــراحــا كــانت فى الغــيب تنادينا
وخطونا عــبــر الآفــاق وراء الأمــســيــات
لو ســرنا يا دنيــاى ، وديعــين، وأليــفــيّنِ
لأضــــاء الكون على عــينيك، وفى عــينى

* * *

كلمات تولد فى الشفتين، وتغفو فى أعماق القلب
كلمــات تصنع أيامى، تكشف لى أبعــاد الغــيب

تحكى لى ما طعم الشكوى، ترسم لى لون الأشواق
والصمت يظلل روحينا، والفرحة تغفو فى الأعماق
ونروح نغيب مع النجوى، وتهدهد سمعينا الهمسات
كلمات سكنت فى قلب لن ينسى دفء الكلمات

* * *

يا أمــــلا غـــاب، وعـــاد يقـــود خطانا للأنوار
يا أمــلا، أيقظ أنفـاسى، توّج عــمــرى بالنوار
أنا بين يديك أدير الفـــرحـــة فى عـــينىّ
ويرف نداء الحب الراعش فى شـــفـــتىّ
عـــام ســـيـــمـــر، وتمضى أعـــوام ودهور
وهوانا، فى أفق الدنيـــا، عطر منشـــور

* * *

هل تذكرين

إذا رن صـــوتك فى مــســمــعى
وطــوّف فـــى الـعـــالـم الأوســع
رأيتـــــك فـــى كـــل شـــىء معـى
وأطـرقت أصـــغى إلى هـمـــســـة
تـرفـــرف فى خـــافــقى المولـع

* * *

بأعـمـاق عـينيك أبصــرت حــبى
وأبصـــرت واحـــة أمن وخـــصب

تفجر دنياك فى خاطرى
ترانيم شوق توسّدن قلبى
فيا طائرى الحلو، عيناك أفقى
وخطوك لحنى، ودربك دربى

* * *

غداً.. سوف يعبر يومى غد
وتمتد خلف رؤانا يد
تطوّق أيامنا بالحنان
ليجمعنا فى غد موعد
ويرتاح قلبى إلى شاطىء
يطوّف فيه الهوى الأسعد
غداً.. إن عش هوانا غدا!

* * *

سأذكر بارقة من حنين
أضاءت بقلبى فراغ السنين

وأذكـــر مـــوجـــة حب دفـــين
تداعب أحـــلامنـا كل حـــين
وتطفـو على صـفـحـات العـيـون
سـأذكـر مـا عـشت، هل تذكـرين!

يا طـائرى

لمــاذا .. لمــاذا نفــضْتَ يديــك!

وكنت عــــبـــرت السنين إليك

وطوقت عـــمـــرى بالأمنيـــات

ووســدت حــبِّىَ فى ســاعــديك

لماذا .. لماذا حطمت العـــهـــود

وصنع يدىّ، وغـــــرس يديك

فكم ليلة عــشــتــهــا فى رؤاك

يغــازلنى الضــوء من مـقلتـيك

وكم ساعة طرت فى همسها
وعانقت وهمىَ فى راحتيك
أعانق فى الأفق أحلامنا
وأغرق عينىّ فى ناظريك
وأشدو بهمس هوانا الكبير
ليصبح لحنا على مزهريْك
وكنت، وكنا، وكانت لنا
ظلال، وعش حنون، وأيك؛
لماذا.. لماذا نفضت يديك!

* * *

أتذكر مجلسنا فى الأصيل
ولون الغروب على وجنتيك
وقولك لى، والنسيم الحنون
يزيد اشتياقى ووجدى إليك:
بأن الزمان سيمضى ويمضى
ويبقى هوانا كبيرا لديك

وكنـت هـواى وكـــــانـت خطـاى

ترى واحــة الأمن فـى شــاطئــيك

فيا طـائرى.. كيف غـاب الشـعاع

وكنـت قطـعت الـعــهـــود عليك

لماذا.. لماذا نفضت يديك!

على المنحدر

مـا عـاد يجـدى أن نلوم القـدر

تـطـايـر الحـلـم، وجـف الـوتـر

عند اصطفـاق النهـر أحـلامنا

لمّا تـزل فى مـهـدها تنتظر

أغـمـضت عـينىَّ، وفى خـاطرى

حلم الـرياحـين بفـيض المطر

أطفـو مع الذكـرى، على سـاعـة

كـانت لنا مـثل خـيـال عـبـر

وأسبق الماضى، إلى واحة
لم ندّر فيها مرة ما الحذر
يا حلمنا، لا تمض، يا حلمنا
يا عشنا، لم يبق منا أثر
فى خاطر الأمواج ما ضمنا
همس، وما رفّت علينا ذكر
المعبد الخالى، ، وجدرانه
هذى ليالينا عليها صور
نخطو بعمرينا إلى فرحة
فى الشاطىء الغافى وراء النَّهَرْ
ونملأ الأيام من غبطة
كانت، وأصبحنا على المنحدر!
لن تفلت الذكرى، وفى خافقى
نبض عميق الأسر، باقى الفِكَر!

واحة عمرى

شفتاى وعيناى نداء	يا أعذب لحنٍ وغناء
أدعوك، فتشرق فى قلبى	صفحة أيامى البيضاء
وأراك وضيئا.. ومطلاّ	فى عين جميع السعداء
وحدك، تملك أن تحملنى	فى عينيك لألف سماء
أن تجعل أيامى قبسا	من أمل حلو، ورجاء
وحدك تملك أن تدفئنى	من وهم صقيع وشتاء
وحدك، لا غيرك، يعرفنى	يعرفُ آلامى الخرساء
يدرك أيامى ذائبة	كبقايا ضوء فى الماء

* * *

عـــينـاى إليك بـأغـنيـــة ويـداى تـرانيـم دعـــــاء
وخطاى كــأنام عـــبــرت من فــرط حنين وحــيــاء
والشـوق الـغـامـر يجـرفنى يـملؤنـى شـــلال ضـــيــاء
يا أروع من كل خـــيــــال عـرفـتـه عـيـون الشـعـراء
وجـهـك! يا أخلد أطيـافى واسمك، يا أحلى الأسـمـاء
أنا بين يديك، فهل أحلى أو أشــهـى حلـمـا وعطاء!

* * *

ناديتك فـارتعـشت ذكـر وتهـادت أطيـاف مـسـاء
وانطلقت أمنيـــة ظمــأى وازدهرت حـتـى الأشـيــاء
يا واحـة عمرى هل يكفى عـــمـــر مـوصـول بلقــاء
لأقول أحـبك.. يا قـدرى يا وجه حيـاتى الخضراء!

سمعت عينيك

سمعت عينيك.. وما قالتا

سمعت كل الهمس خلف الجفون

وارتعشت كفاى فى لمسة

أودعتها حبى وسرى الدفين

أيقظت فى نفسى دبيب المنى

أشعلت فى قلبى نداء الحنين

عيناك.. لم أشهد سوى مرفأ

ترسو عليه سفن المتعبين

•

يا فـتـتنى نامى على خـافـقى

لـن تهـدأ الأحـلام للسـاهـرين

من خلف شـبـاكك، هذى يدى

لبـلابة تسـعى، فـهل تمسكين!

وحـول مـصـبـاحك.. أنشـودتى

حـملتهـا لحن حـياتى الحـزين

وبـيـن أنفـاسـك يا زهـرتـى

أسندت أنفـاسـى إلى يا سـمـين

من يرجع اللحظة! فـى خـاطرى

أصـداؤها تبـقى، وتبـقى سنين

أعـود يا دنيـاى، فى خـافـقى

همس، وفى سـمع حـياتى رنين

•

ضاع فى الزحام

وأننى هزئت بالوعود،

وبالعهود، والهوى العميق

وأننى دفنت كل شىء

فى أمسىَ الرهيب، كل شىء

وأننى بداية مهينة

لموكب رهيب

وقصة حزينة.. حزينة

لعالم كئيب

يخوض فى الوحول، كالوحول
فأين راح حبنا العميق
وكيفِ جف ذلك البريق
وانهارت الجدران والشقوق
واصطدم التيار بالغريق!»

* * *

لسوف نغدو قصة كبيرة
كبيرة لأنها حياة حب
ومرة لأنها شباب حب
وحلوة لأنها قصة حب
وتنظرين أنت فى أسى مهين
إلى الوجود من خلال قصتى
فتلمحين فى الضباب هذه السنين
وهن يزحمن مشارف الحياة
وهن يخنقْن الحياة فى الشفاه

وهن يبكين الوجود.. تلمحين

قصة عمرينا معا.. بلا حدود

أتعرفينها! مضت بلا حدود

وفى دموع مرة الأنين

ستبغضين كل حب

وتحسدين كل قلب

وتصنعين ألف رب

الكل عُبّادٌ لحسنك المهين

الكل أقزام،

وسوف تصنعين

من الأسى الكابى، حكاية لنا

حكاية تموت كل يوم

لأنها تعاد كل يوم

لأنها لنا معا؟

وسوف ترقبين يا أميرة الغد

بلا تردد
كل ذليل خاشع ببابك الوحيد
كل إله مطلق تشوقه القيود
لسوف ترقبين كل تائه يعود
وكلّ أحمق يرود
وعند ذاك يا أميرة الغد
ستصفعينه. . بلا تردد
وتنفضين فيه جرحك القديم
وثأرك القديم
وكبرياءك القديم
وعرشك الذى هوى مثل الغيوم
لسوف تحقدين
وتنطوى السنون يا صديقتى.. تغيب
وأنت لا تدرين ما حقيقة المغيب
ولا طبيعة القلوب

وأنت لا تدرين

من صانع الأسى، وعاشق الذنوب

لكنها حكاية كبيرة

من قبل أن كانت عهودنا ووهمنا الكبير

وحبنا الذى ثوى بلا ضمير

* * *

صديقتى

كان لنا ألف خيال

فى قريتى الصغيرة

وألف توق وارف الظلال

إلى المدينة الكبيرة

كانت أمانينا الصغار تلتقى

هناك، فى زحامها العجيب

وسحرها العجيب

وناسها الذين يسكنون فى القصور

ولم تكن نحن نعيش فى القصور
فقريتى أناسها بلا قصور
وكم حلمنا بالعجائب الطوال
واتسعت أحداقنا لكل ما قيل وما يقال
عن هذه المدينة الكبيرة
مدينة النساء، والعبيد، والحشم
مدينة الكبار والقلاع والقمم
مدينة بلا ألم
بلا سأم..
وفى مدينتى الكبيرة
عرفت يا صديقتى معنى السأم
معنى الضياع
وذقت يا صديقتى شوك القمم
شوك القلاع
وغبت يا صديقتى مع الظلم

ولا شعاع..

ورفقتى معى يلوكون الخراب

وينظرون للتراب

ويهزأون بالحياة والوجود والتباب

بكل شىء

غابوا مع المعركة الكبيرة

معركة الضياع خلف شارع كبير

تصب ضفتاه فى القبور

فى كل شبر منه ألف سور

وألف لعنة تراق

ويبدأ الفراق

ليبدأ المسير والطواف من جديد

لكننى صديقتى عرفت كل شىء

عرفت أننا نساق

وأننا نشد فى وثاق

وأننا عبيد ليل

ليلٍ كقبضة الفراق

مسيطر كقبضة الفراق

لكننا - صديقتى - نسير

وينتهى المسير والرفاق

* * *

وجئت يا صديقتى كلؤلؤة

فريدة كلؤلؤة

وحلوة كلؤلؤة

أطلعها الغواص بضة العقيق

من عالم مغيّب سحيق

عالمك المحجب العميق

وجئت يا صديقتى لعالمى الجديب

رعشة حب

دفقة حب للحياة

ويومها عرفت ما حب الحياة
والحرص يا صديقتى على الحياة
على لآلىء الحياة
لكن درتى عظيمة الألق
أحسست فيها رعشة القلق
وأنها ستختنق
فى عالم غير محيطها الكبير
وقبضة غير بساطها الحرير
ورحلة تجود بالرمق
وحار غواص البحار خلف عالم رهيب
يداهُ تقصران دون حلمها الكبير
يداهُ تقصران أن تمهدا الحرير
وتغرسا الوئام والسرور
وتُنّبتا الزهور
وتنفضا العبير فوق هذه القفار

لأنها قفارا!

* * *

صديقتى

لسوف نغدو قصة كبيرة!

كبيرة لأنها حياة حب

ومرة لأنها شباب حب

وحلوة لأنها قصة حب

وسوف تصنعين

من الأسى الكابى حكاية لنا!

حكاية تموت كل يوم

لأنها تعاد كل يوم

لأنها لنا معا .. لنا

يـــارا

وتضحكين فى وجوهنا، فتفتح الحياة

أبوابها،

وتمطر السماء

أفراحها،

ويملأ الشعاع وجه بيتنا الصغير

فتشرق الألوان، والفصول، والدروب

وتدفق القلوب،

---

* يارا: ابنة الشاعر

بلحنك المجنح الوثير

تميمة على الشفاه،

ونبضتين فى صلاه:

يارا

* * *

وأنت حولىَ، تقفزين، تمرحين، تعبثين

وتخطفين كل مقتنى، وتهربين

وتطلقين ها هنا، وها هنا، أغرودة الطفولة المزقزقة

وملء عينىّ ظلال الضوء، والتذكار

خيوطها تمتد، تنسج الأمان والأشعار

ألمح فى عينيك وجه أمىَ الذى ودعته قبل سنين

وعاد لى من رحلة الزمان، حانيا، مؤانسا

وحين أحتويك، تهتز الضلوع، ترتجف

يسيل شىء من عيونى المطرقة

ينساب شىء فى مسارب الحنايا

وتصبحين يا ابنتى، أمى، ويدفق الحنان
سحابة من الدموع والشجون والرضا
وتحتويك مقلتاى،
ثم يغفو رأسك الصغير،
تستدير فى وداعة يدايا
ويشرق النهار يا صغيرتى،
عيناك لى منار
عيناك لى مرايا..

* * *

هل جِئتِنا فى الزمن القبيح، كى نساير الزمان؟
ويصبح الوجود، فاقد المعنى، حياة مفعمة!
تتفتح الدروب فى وجوهنا، ويشرق الأمل
تمتد رحلة الحياة، نكتوى بحسبة السنين والأجل
وتسبق الخُطى، أحلامنا الصغيرة المنمنمة
من أجل يومك الجديد،

عمرك المديد،

يا ملاكنا الفريد..

فلتتسق من إصبعيك - عندما يراقصان اللحن - أغنياتنا

ولننطلق من بين لثغة الحروف فى شفاهك الكرزية الألوان أمنياتنا

وليندغم فى فيض حجمك الصغير فيض حبنا الكبيرْ

وليأتلق فى هزة الإيقاع من يديك، من قوامك الطفلىِّ، لحننا المسترسل السعيد

يكسو شتاءنا دثارا

ويُلهم الأمان والأشعارا

يـــارا..

فى انتظار مالا يجىء

الرحلة فى بحار العشق

- تسافر؟
- هذا زمان القرارِ
زمانُ الذين يروحون لا يرجعونَ
زمانُ الذين يقيمون لا يبرحونَ
زمانُ جميع النوايا
فعجّل
وخلِّ الطريق وراءك،
إن الحبيب أمامك، إنّ الظلال تشيرُ،

الأصابع تمتدُّ، هذى المطىَّ تسيرُ،

وهذى البطاح تسيلُ بأعناقها،

وتدبُّ الحكايا

- تظل قعيدا؟

تسائل صمت الرمال، تحاور صوت المحال،

وبينكما خطوةٌ فاخطها، قبل أن تفسُد الأرضُ،

يختنق الكونُ حولكما بالرّزايا

وتشتبك الرّغبات بخيط المنايا!

* * *

حين اختفى وجهك عن عينى انتحيتُ جانبا

أفردتُ نفسى جذْع ذكرى موحشة

أغمضتُ خاطرى

لعلنى أراك فى قرارة الحزن المباغت العقيم

تمدُّ لى يدا

أسندت راسى واتكأت، آه! هل أعودُ خائبا!

أخاف أن تشدنى إلى الثرى ذراعُ يومنا
وكانت السماء
توشك أن تهمّ بالبكاء
والأفق الموشّحُ الإزار بالشّجى يسيلُ ذائبا
يسيل فى دمى يسيل،
تطفو فوقهُ رفاتُ عاشق قديم
مخضب اليدين بالدماء!
الآن ياملاذىَ الوحيد فى الزحام
أعرف أن يومىَ الكئيب مر فارغا
وأننى بحثت عن عينيك فى جنازة الغروب،
فى إطلالة المدى
وأننى يشدنى السكون للجنون.. للردى
أصيحُ من قرارة البئر التى تشدّنا:
«ياحزّننا، ياحزننا العظيم
أما كفى مانحن فيه؟»

لايجبينى صدى!

العيبُ فينا نحن؟

أما زمانِنا،

أم عيبُ عمر ضاع فى دروبنا سدى؟

* * *

ها أنتِ!

رقّةٌ كما النسيم، وارتجافة تزلزل الخلايا

وشاطئ منوّر بدا،

بدا وغام فى الضباب،

غاب فى تلفت الأسرار والخفايا

قادمة،

عاتيةً خطاك،

بركانا يفجّرُ الضلوع والحنايا

هاأنت!

والتقتْ ـ برغم عبئها ـ أزماننا

تصادمتْ أقدارنا،

تناثرت جسورنا شظايا

ولم تزل عيونُنا الغريبةُ الأطوار، تثقبُ الظلامَ

تقتفى سبيل كوةٍ إلى النهار،

تلطمُ الجدارْ

وتلتقى مهزومةً فى صفحة المرايا!

* * *

يا محبوبى

وحدى، بعدك، أعبر هذا الليل الموحش،

أجتازُ الفجر الكاذب، هذا الوجه الممرور من الدنيا

أعدو نحو شماعة وعد من عينيكَ

وأنهلُ مايسّاقط من فيض الرؤيا

فامنحنى بعض أمان حين أطير إليك

أسألك بحقِّ الساعات المخنوقة بين الجلوة والإِطراقْ

اكففْ عنى ظمئى

واحللْ عقدة بوحى

حين يخفُّ القلب إلى عتباتك، يجثو

ويلامس موطئ قدميك

ويحلمُ،

يحلم أنا نتساقى خمر اللقيا

ونُحلقُ مزهوّيْن

فلا تملكنا تلك النشواتُ المطروقة

أسألك بحقِّ اللحظات المخنوقة

بين الرغبة والإشفاق

ها، خذْ بيدى

فأنا طوفتُ طويلاً، ياكم شرَّقتُ وغرَّبت

يثّاقل فى صدرى مكنونُ محبتنا

لايقوى جَلَدى،

فاحملْ عنى هذا العبء المستور

غُفرانك قد وقع المحظور

تمتمتُ بذكرك فى خلواتى
وجهرت بحبك فى صلواتى
وأبحتُ السرَّ برغمى، فارحمْ ضعفى واستر زللى،
فأنا المستغرق فى ذاتك
فى فيض صفائك وصفاتك
فى عسجد هذا الملكوتْ
أفتح عينىَّ، فتعشينى أقباسُ النور
أترنَّحُ، ياويلى، ثملاً، وأظلّ أدور
وأنا مبهور!

حال من العشق

يغشانى وجهك حين تطلُّ علىَّ،
فأعرف أين مكانى!
أتعثر مرتبكاً
وأحدّق - لاتقوى عيناى -
الفيضُ الباهرُ يغرقنى
أتضاءل منجذباً لشعاع الرحمة منك
لهذا الأفق السمح النورانى
وافرحى حين أعاينُ نجم السعد

وحين أطالعُ فجر الأنس

وحين يداخلنى زهوُ الرؤيا فأغادر جَلَدى

أغفو

أستيقظُ مرتاعاً،

أتحسس قدرى عندك.. أسألُ عنى، واخجلى

آهٍ من ضعفى وهوانى!

أحرقتُ سفائن أيامى

وأتيتك خلواً، عريانا

إلا من شملة أحزانى!

* * *

أواه من بعد الديار واستحالة المزار

ياأيها المسافرُ الوحيدُ قفْ!

فالأرض غيرُ الأرض، والزمانُ خانَ

غادر الأحبابُ،

صار الناسُ غيرَ من عرفت، فاسترحْ..

تداخلتْ مواكبُ المودعين، والمشيعين،
والمنافحين عن بقاء لحظة من المرح
قد آن للعجلان أن يُطامن الخطى،
ويستردَّ من ذَماء نفسه بقية مضعضعة
فليس فى نهاية الطريق غير هوّة الأسف
وللغريب أن يئوب بعد رحلة الشتات والدمار
مغامرا، بلا هدف
قد آن للظلام أن يبدد الأسداف عن صدورنا
ويرتحل
مشيّعاً بألف لعنةٍ
وألف طعنة تدمى بها الأكفُّ، ترتجف
ويقبل النهار!

* * *

أرفع وجهى فوق الموج الطّاغى،
أسند أنفاساً، وبقايا لون مذعور،

ودم هارب

ماذا لو أغرقنى الموج، انهالتْ فوقى سافيةُ الرمل،

التاثتْ ذاكرتى فى عدم الرؤيا

هأنذا أقتربُ من الصحو، وأصغى

تترددُ حولى أشجانُ الدنيا، أصواتُ الباعة،

آلاتُ العصر، وأصداءُ الثكلى والنائحة المأجورة

فلمن أصغى؟

أتسمعُ..

ـ هذا صوتٌ لايهدأ حتى ينبحْ

أتسمعُ أكثر ـ

ـ هذا صوتٌ تخنقه التخمة

أتسمعُ أكثر، لكنى يعوزنى الفهم الناصع

ـ هذا صوتٌ يعتادُ ركوب الأصوات الممرورة

حتى يبدو دوماً فى قلب الصورة

صوّت الأصوات، وقربان المذّبح

يامنْ تصفون معى، تبكون معى،

وتعودون لجمر مضاجعكمْ فى الليل، معى

تكفينا هذى الجرعةُ من بئر الأحزان

يكفى ماقدمنا من ماء الوجه، وما

أسلّفنا من عطش الروح، وما

أذلّنا من كبرٌ الانسان!

* * *

يتكاثف وجه السحب، وتهوى دائرةُ الظلمة

وتحينُ الساعاتُ الجهمة

ياربىّ

هذا وجهُ العالم، فوق عبادك، يُسقط حُممه

والطرقُ ازدحمتٌ

ومسالكها تبعدُ عنا، تستعصى،

تَخفى عن أعيننا حتّى نتضاءل منكمشين،

ونصغر منهزمين،

وهانحنُ أولاء تصاغرنا حتى هنّا
وأتينا بابك ملتمسين، ومحتسبينْ
فارفع مقتك عنّا،
وامسح بيد الرحمة وجّه خطانا وخطايانا
ها نحن صغارٌ فى كنفك
فى كنف العزة نرقد مؤتزرين خيوطاً من نور
والفيضُ الأسنى يغمرنا،
إذْ يغشى السّدرة مايغشى
وبعيداً، حيث يطوفُ النورُ،
ويمضى فلك دوارُ السقيا
تبزغُ نجمة
ما زالت حيرى مضطربة
تسبحُ فى الذرّ،
وترقبُ أحوالَ الدنيا!

اعترافات العمر الخائب

عندما يجتاحنا الحزن الرماديُّ
ونقعى فى زوايا القلب، مكسورين،
نجترُّ الحكايات القديمة..
الأسى الفارع يستيقظ من بين الدهاليز،
ويصحو وترُ الشجوِ،
الكتاباتُ التى جفت على الأوراق،
كانت ذات يوم صوتنا العالىَ
لفحَ الشوق،

والرؤيا الحميمة!

خرجتْ منها وجوهٌ، لفّعتها دورةُ الأيام،

شاخَت فى كوى النسيان،

تحكى وجه بومة!

فى الجدار الأسود الشاخص، نرتدُّ،

وفى قاع العيون الجوفِ، نهوى،

نكتوى من لذعة الذكرى

ومن وحدتنا فى ليلنا العارى،

ومن هول انسحاق القلب،

من طعم الهزيمة!

* * *

ها أنا..

فى دورة الاعصار أرتدُّ عنيفاً،

خائبَ المسعى، أسيفا

وانهمارُ العمر من حولى،

خطى مبهورةُ الأنفاس،

فقاعاتٌ لغو زائف،

صارت على الوجه أخاديد، وفى القلب حروفا

سكنت همتك الشمطاءُ يانفسُ،

عرفتِ الأمر، جربت الذى كان،

تخطيت الزوايا والصفوفا

والمصلين ـ وراء الهيكل البالى ـ وقوفا

ها أوانُ الفصل،

بوحى، اعترفى،

لا تدّعى بعد عزوفا

واهتكى عنك ستار الرغبة الحبلى،

قناع الأسف الكاذب، ذاك المضحك المبكىَ،

ما عاد يفيدُ الصمتُ،

كوشفتِ،

وأُترعت من اليأس صنوفا

كم تطامنت،

وأسرعت الخطى عدواً،

وجاوزت حدود الوهم،

شارفت على الأفق ظلالاً قابعاتٍ وطيوفا

كم تبدلتِ قناعاً،

وتلبست خداعا،

وتواريت وراء الأمل الخلّب،

سيفا!

ورغيفا

وصحونا حين طار العمرُ،

نقتاتُ الحصاد المرّ،

نهتز لمرأى الغدِ، إذ يفجؤنا عارين،

ننهارُ جراحا ونزيفا!

* * *

دائما أنتِ؟

تجيئيين سراباً خادعا

وجهاً هلامياً، رذاذاً ينضح الوجهَ

ولا يروى صدى القلب،

سحاباً يُسقط الظلَّ ويمضى

تاركاً فى وقدة الصحراء أنفاساً شحيحات عليلة!

دائما أنتِ!

أكاذيبى التى أعشق فيها الموت، طعم الغدرِ،

تُفضى بى إلى ساعة صفو مستحيلة

آه! لولاك،

لما امتدّ بنا الليلُ الخئونُ الوجه،

ما اجتزنا ـ وراء الوهم ـ

ساحات المراءاةِ الذليلة

آه! لولاكِ،

لما كان انحنى الجذعُ،

ولاهانت على السكة أعناق الرجال الشمِّ،

وارتاحت لَقىً

من غير حيلة!

وتعودين!

فماذا بعد فى الأيدى، سوى أعمارنا الفاغرة الأفواه،

جوعاً وظما

وطريق جمدت فيها خطانا، انتصبتْ فيها خطايانا

شخوصاً

مفزعاتٍ،

وتماثيل

استحالت ندما!

آه لو نرجعُ للصفو الذى كان،

لحلم كان فى أعماقنا غضًا،

طفوليا، برئَ السّمت

عذريًا نقيا

عندما..

* * *

عندما أرجعُ بالتذكار، أستدنى الذى فات،
أُجيلُ الطرف، ألقاكَ غريراً،
وضئيلاً، وقصيّا
حافياً،
تستلهم الأرض، طريحاً، نزق الأسمال،
خجلان حييّا
وأرى حولك غلمان الحمى، يستطلعون الغيب،
يستجلون فى عينيك سرا غامض اللمعة،
مشحوناً،
عتياً
يرحلُ العمرُ وئيداً،
تسقطُ الأعوامُ فى الهوّة،
يلتفُّ الصبايا حول ناى الحبِّ
تغريهن بالترنيم منضوراً فتيا
عاشقاً، طلق المحيا

يرحلُ العمرُ،
وتمضى سلةُ الأعوام لاتحملُ شيّا
يسقطُ السر، يدوس الناسُ،
ينهالُ الترابُ الصلد، يدنو القيدُ،
يهوى الناىُ ملتاعاً، شجيّا
من جديد،
ها أنا ألقاك فى عصف الذهول المرّ،
تجتازُ الفجاج السُّود، مخبولاً
شقيا
وبعينْيك سؤالٌ اخرسُ الدمعةِ،
مازال عصيّا:
ما الذى سدَّد فى قلبك سكيناً؟
وفى عيْنيك حزناً أبديّا؟

قبـل الوصـول..

أحاولُ الوصول، دون جدوى!

أستمرُّ لاهثاً، لعلنى! ولم أزلْ أحاول الوصول

أطرقُ هذا الباب،

أستدير يائسا،

أعيدُ ما بدأت،

أستمرُ فى مخاضة الفصول

ياويلتى!

هذا شتاءُ الرغبة المرير قادمٌ..

وهذه خطاه فى المخادع الوثيرة المنمنمة

تئزّ حولى،

أصطلى نيرانها الثلجية الدبيب،

فى عروقى العارية المستسلمة

الآن لا مفرَّ

وحدك الملاذ لى،

وقبضة الشتاء حولنا عتيةٌ، ومحكمة

تدفعنى إذا اتّأدتُ،

تستثيرنى إذا انتظرتُ،

ألمحُ الطريق موصداً

أعاودُ الطَّرَّقَ لعلّ كوةً تلينُ ،

برقاً خاطفا يطلُّ،

علَّنى أنجو من الدهشة فى العيون والفضول

هذا أنا..

وفى الطريق أنتِ لى

وليس ثمَّ من سبيل!

* * *

ماذا لو اننىّ خطوتُ، ما انتظرت أن يطلّ وجهكِ

الصغيرُ من ستارة الأحزان

أتيتُ دون موعد،

وربما بقيتُ عامدا،

أداورُ اللحظة، أستعيدُها،

ألح فى اجتياز هوّة المضيق بيننا،

وفى اكتشاف هذا العالم المدثر القناعِ،

خلف وجهك الغريق فى متاهة النسيان

مرتعشًا أتيتُ

يا مواقدَ الشتاءِ لا تكابرى

ويا عطية السماء لا تتاورى

فالرغبة الحبلى تفورُ،

فى تأهب الخطى تفورُ،

فأذنى، وأفصحى

كم اشتهينا - صامتين - جلوة النيران!

* * *

تظلّ قعيدًا تخور، أما رحل القومُ؟ ها أنْت

أُفردت وحدك هذا الظلامُ اللعينُ عبادةُ حزن

حواليك تزحفُ، تلتفّ، يقعى عليك وينشب

فيك أظافره الهمجية، مخضوبةً

بسواد النجيع، الظلام اللعين يعشش

ما زلت وحدك تلهث، أين المفر؟

أمامك هولُ الدروب، وخلفك:

ويلاه! ما زلت تنشدُ نجم السلامة!

«وها نحن بعد اللهاث وصلنا،

وبعد انقشاع غبار المعارك،

بعد انفضاض السبّاق، نعودُ ثمالة كأس،

تشقق فينا هتافُ الحناجر، قطرةُ ماء تغيث الظماء،

تبلُّ روحا تجفُّ، مثقّلة بانهمار السنين، لأنّ
الليالى حين تجئ، تجئُ حبالى يلدن الأسى
والقتامة!
«تظلُّ قعيداً
برغم امتداد الخيال الطليق
يجوب المدى والتخوم،
يشارف أفق النجوم،
ويرجع سأمانَ، قد غللَّته الكآبة
وفى الصدر، من وخزات الرزايا... علامة!

* * *

أخلطُ بين اثنين: أنتِ والقدر
أسقطُ بين اثنين: أنتِ والزمان
هيهات أسترد بعض ما أضعتُ من براءتى
وبعض ما افتقدتُ من معابر الأمان
الآن لا أبصرُ من حولى سوى أسنة الحصار

مشرعةً تهتز فى الأيدى، يغوصُ ظلها،
يغوصُ فى عيون تقذفُ الشرر
كأننى أصبحتُ فى قبضتها خطيئتى
يهتزُ حولى الآن كل شىء
الشارع المسدود، والمدى المطلُّ، والجدار
وفى انتظار منْ؟ ترى! لعلنى أهذى!
لعلَّ ماعرفتُ صار كافياً لراحتى
لعلّ مارأيتُ فيك يضمدُ الجراح، يهزمُ الشكوكَ،
يهدم الأسوار
واعجبا!
هانحنُ فى ملالة العزوف قبل لحظة الوصول
يرتعشُ الشتاءُ فى ضلوعنا
وتنحنى جباهنا المطفأة العينين..
فى ذبول!

فى انتظار ما لا يجىء

من كان وقتها بوسعه يرى

أبعد من مواطئ القدمْ؟

لكى يدلنا : ماذا تُراه فى غدٍ يكونْ!

ونحن فى دوامة الحنين والشجون غارقون

تلفحنا الأيامُ، نكتوى بصهدها وبردها

ولم تزل تموجُ زهوة الحياة فى عروقنا وتحتدم

* (إلى رفاق العمر، الذين احتوتهم القاهرة معا، قادمين من الكفور والنجوع بعد ربع قرن: أكتوبر ١٩٥٢ . أكتوبر ١٩٧٧)

نسقط خائبين أو نقوم ظافرين، لايهم
محلقين فى السماء، أومضرجين فى الثرى
شعارنا فى رحلة الميلاد والوجود والعدم:
«الخبز والنبيذ ياصديقى العزيز
كلاهما لذيذ
فاغنمْ من العمر صفاء لحظة الحياة
مغموسة الأكناف فى الكفاف
ولاتكن عبداً لوهم الذهب الإبريز»
ونحن فى الطريق، نمضغ الكلام والملالَ
نعبر السفوح والقمم
وننتشى وراء نجمة هناك فى البعيد تبتسم
تقودنا إلى الذرى!

* * *

نكذبُ، أحياناً كثيرة، أجل!
نكذبُ، عامدين، ظالمين،

علنا

نقنع يوماً غيرنا

بأننا،

ننطق بالحقيقة البيضاء، مانزال طيبين وادعين

برغم هذه الأظافر الطويلة المدببة

وهذه الألسنة الجارحة المدربة

وذلك اللهاث خلف عمرنا الملطخ المهين

هانحن أولاء، لكثرة الذى أريق من وجوهنا

ولاعتيادنا على مذلة السؤال، دونما ملال

صرنا نصدق الذى يقالُ

- فالجميع صدقوه -

وانكفأت على ظهورها الرجال

تطالعُ النجم، ترودُ حسبة الأبراج،

تقرأ الفنجان، تطلق الخيال خلف رحلة المحال

كأنما سحابة من الدخان والخدر

مبسوطة الجناح، تحمل الركبان
لرحلة فى اللا مكان
تطوى بها الأحزان فى قرارة النسيان
ويرجع الجميع غانمين، سالمين،
ومانزال فى انتظار شئ غامض،
قد لايجئُ
مانزال!

* * *

تُسلّمنا هذى الأكاذيبُ إلى العراء
نهرع، ياويلتنا نخفى عن العيون سوءة لنا
وفعلة، ذميمةً، نكراء
صارت مع السنين، جرحنا الدفين، وانكسارنا
لمّا تخاذلنا،
وغرّنا مانحن فيه من تطاول على السماء
إيماننا ادعاء

وحبنا، أكذوبة، وجذوة اشتهاء

ولغوُنا

مرارة نسلمها أشعارنا

ياهذه الدنيا، وياهذى الأكاذيب المزوقة

تداخلى واستحكمى رداء

كى تسترى جسومنا، وعارنا

فى عرينا الفاضح،

فى وجوهنا الأسيفة الشوهاء

يا كم طوانا العمرُ سارين على دروب ليلنا ظلماء

نحلمُ بالخصب،

وبالنبع الذى نراه ماثلا أمامنا

حتى إذا ما اقتربت وشارفت أعناقنا

تهيأت لرشفةٍ باردة حلوقنا

وجحظت عيونُنا فى لمعة الأشياء

غصت بوقدة السراب،

وانطفاءة الرجاءِ،

وانطباقة السماء تحجب المدى!

ومن بعيد، حيث يقبل النسيم والردى

مازالت الأصداءْ

تترى، ومايزال يخفق اللواء

منتصبا فى محفل الصحراء!

* * *

هانحن فى دوامة الرمال، ما نزال

تسوخ فى شراكها أقدامنا

نحمل أحلاماً كسيرة مضعضعة

انفرط العقد الذى كناه، كم تناثرت حباته،

تفتت قلوبنا، ولم نعد معا

وشاختْ النبرةُ فى شفاهنا، وحشيةً عيوننا

مذعورةً خواطرُ الخريفِ فى رؤوسنا

يا أيها الشملُ البديدُ كم شهدتنا معا

مشردين، هانئين، حالمين، مقعدين

لكننا كنا معا

عمراً مديداً، حاشداً مضيعا

نصوغ هذا العالم، العبء الثقيلَ

نحتويه، يحتوينا، ضيقاً وأوسعا

نصنعُ من طقوسه مسلاتنا

ومن تناقضاته،

نقيم للزمان ساحة ومصرعا

وأينا الظالم والمظلومُ؟ لاندرى

ولانهتم أن ندرى،

ففى العمر مدى

وفى الطموح غايةٌ

وفى العقول جذوة لاتنطفئ

وهمةٌ ريفية التكوين لانظنها تلين

لانت،

ولِنّا،

وانتهينا بدداً، مضيعين

معلقين فى خيوط العنكبوت، فى مدارج الرياح،

فى انتظار قبضة الأجير،

يائسين، شائهين

نرتجُّ فى جوانب الدنيا، ونمضى حاسرين

يحمل كلٌّ جرحه، فى قلبه ولا يبين

ولم نعد ندرى

أمنطق العزاء صمتنا المهين حين نلتقى

أم حكمة السنين!

بشرنا ثم تصوفنا

تنداح خيوط الليل، فتشرقُ طلعتك الوسنى

ياربى! حقا ماأبصر؟

قد عشيت عيناى ولكن هأنذا أتحسس دربى

أخطو،

هذى عيناكَ تدلانى، وتشدانى

عيناك النجمُ الثاقبُ ظلمة أحزانى

فأعاينُ بعد زمان القهر شعاعات الفجر الأسنى

عجبا، عجبا!

هذا صوت بالإنعام وبالبشرى يترضانى
تتثالُ دموع الوجدِ ويغرقنى فيض التحنانِ،
وأدنو منك،
أطالعُ فى عينيك شجونا تتصبانى..
غابت عمراً، واليوم تعودُ فتلقانى
عجبا، عجبا!
هذا لحنٌ بضروب الفرحة يسرى فى إيقاع زمانى
أجتاز سياج الوهم، أشير عليك فتدنو،
تلتصقُ الرؤيا
نصعدُ فوق تخوم العالم، نسبحُ فى الفيض النورانى
عجبا، عجباً!
من أطلق شعلتك الكبرى، لتشعَّ علىَّ وترعانى
فى هذه اللحظة من دنياى، ومن سأمى،
من قلب مراراتى ودخانى!
وأتيتَ لتفسد ما أمّلتُ:

سكونَ الخيبة،

صمت العزلة،

راحةَ مهزوم قد أغفى وطوتهُ ظلالُ النسيان!

* * *

لو نسألُ الزمانَ، ماالذى يقولهُ الزمان؟

ونحنُ أدرى بالذى نصوغ كل يوم مرة ومرتين

نحلمُ أن يجاوز التخوم فى غد، وأن يشارف الذرى

وأن يصير واحة وكوثرا

ننفخُ فيه من رغائب السنينَ،

من حصاد عمرنا المهين،

من تطلعاتنا

من زهونا المشبوب وانكسارنا

من جوعنا للمسة الأمان، وانتظارنا

للحظة مخطوفة تضمنا معا

ولم نزلْ أدرَى، برغم خشعةِ العيون فى الثرى

بما أصاب طفلنا الوليد بغتةً، فأوجعا
وعلق الأحزان فى الجدران!

* * *

هل تكفى فى العمر بقية؟
لنخوض معا فى الوحل المنشب فينا أظفاره
الوحل الأسود والمرصود ووحل الأنفس والنية
نقتلع معاً أوهام الناس وضعف الناس وجوع الناس
نخطو من فوق جسور الرعبِ،
نعيدُ إلى النهر المتكدر فينا تياره
وصفاء ملامحه الأولى
هل تكفى فى العمر بقية؟
لنقول وداعاً للأحزان، وللساعات المنهارة
ونعيد إلى الإنسانِ الذابل دفء اللمسة والأنفاس
والقلب المضنى.. وقد الجلوة والإحساس
ياكم جرّبنا وتعبنا،

أقدمنا ثم تراجعنا

بشرنا حين لمحنا ثمة شيئاً يولد،

لكنا حين رأيناهُ، وعرفنا وجه دمامته،

عدنا فعكفنا،

أغلقنا فى وجه الإعصار معابدنا،

وتصوفنا

يامنْ ينجينا، فالساعةُ بالهول اقتربتْ

الغادى مثلُ البارح

والقاعدُ مشدوهاً، كالضارب أعناق الأقران

لكنى أسمعُ، أتسمعُ،

من بعدٍ تأتى الأجراس

بعويل الليل، عزيف الريح الغضبى،

دمدمة الطوفان

هل تكفى فى العمر بقية

كى يولد فينا الإنسان؟

* * *

مكانكِ الوثير... لاتبدلى ولاتغادرى
فى الزمن المجنون بالتغيير كلَّ آن
تماسكى، واتئدى
واستمسكى، لاتفرطى ولاتداورى
فالصاحب الأمينُ خانْ
وكلنا من كأس غيره رشف
ماضرًّ لو تشابكت أنسابنا،
واختلطتْ أصلابنا،
وغاضَ من عُيوننا ومن جباهنا ماء الشرف
تماسكى، فليس موعد الشتاء بالبعيد
يطرحنا على مدارج الثرى..
مرتعشين، شاحبين، حالمين بالجديد
تماسكى ولاتكابرى
فالحاضر التعيس فرّ من ثقوبنا
كما يفر الحلم من جفوننا المضرجة

لكنّ قبضة العزاء تُحكم العرى
على بقايا نَفَسٍ، وبعض حشرجة!

كان..وكان

كان الشجر الساجى فى عينيها يبكى
تسّاقطُ أمطار الشجو،
وتخضل جراح وُئدتْ خلف السمت المتماسك،
عمراً طال،
الشجر الباكى يرحلُ، يسحب أستاراً كانت،
وظلالاً شوهاء
ويكشفُ عمق الهاويتين الجاحظتين،
الفاغرتين فما معتلا، لايحكى

ماذا بعدُ من الأيام؟

الشجر الساجى نام

وانطفأت جذواتُ النقمةِ فى القلب المقرور

وتهيأت اللحظةُ للإغفاءِ، فمن يدرى ماطولُ الغفوة

ماعمقُ الذكرى السوداء!

الرأس يميلُ على استحياء

يتخاذل،

يهوى

تنفكّ عرى السمت المزموم

وتقعى الأشياءُ على الأشياء

ويغيب السر، يغادرُ طينتهُ الحبلى،

تتكىءُ الساقُ على الساق،

وينكفئُ الصدرُ العارى المذعور

ونعودُ ندورُ مباخر وطقوساً

وضراعاتٍ حمقى، واستجداء

يامن تفتضّون بكارتها
الشجرةُ ماعادتْ عذراء!

* * *

كان الحفل الصاخبُ ينشب فى لحم الغائب أظفاراً
وقواطع مسنونة
والكلماتُ الوالغة العطشى للدم
تتاجزُ أقنعة السادة من فرسان الهيكل
دقوا بسنابكهم إيقاعَ الموت،
ولحنَ الصرخات المجنونة
الكلمات الطلقات تئزّ
الكلماتُ الكلماتُ تخور
الحفل الوحشى يبارك باسم الهيكلِ
باسم طقوس الربّ ذبيحةَ هذا اليوم،
يُقدمها قربان ولاء مسعور
الكلمات الطلقات تمور..

ويفورُ التنور

يختلط الصوت الواحدُ، ينشقُّ، ويصبحُ أصواتاً

تتقاذفُ لعبتها

تتشابك،

تلتحم الأيدى،

تنهارُ حدودُ اللعبة،

ينهار السور..

وأنا فى حفل السادة، ذاك القرویُّ المبهور

أبحثُ عن كلمات لايُعشيها النور

أبحث عن خيطى الواهى فى جسد التنين المذعور

يامن هيأتم لى موتى

ردوا صوتى!

* * *

كان المطر بحجم الكون يدقّ النافذة الشرقية

ويداك تدّقان الباب الموصد

ينفتحُ البابُ يطالعنى السَّمتُ المأنوسُ،
يُباغتنى الفرحُ الطاغى
ياللوجْهِ القادم عبْرَ مسافات الدّنيا
أُجلسه جنبى،
أجعلُ عينىَّ له متّكأ ووسادا
أتلامس فيه
يُضرُّجنى الشوقُ المخبوءُ وراء الجلْد العارى
أنسى كَمْ طوّفتُ بعيدا عنك،
وكم ألقتنى الدنيا الدّنيا ذات مساء، وحدى
خلْف الجدران الباردة الصماءِ
أحاورُ صمتى،
أُنشبُ فى الكون المترائى لى عينين مُغلّلتين
بِعبء الغربة والتذكار
يا من يحملنى عَبر تخوم الحزن إليكِ
المطر بجحم الكون يدق النافذة الشرقية

أتلفّتُ،

أين السمتُ المأنوس! الطيفُ الزائرُ!.

أين يداكِ الحانيتان الغارستان محبّةً!

وحدى!..

فى هذى البقعة من قلب العالم،

فى قلب الصحراء الجرداء

وحدى!

فى عرس الشجر الباكى وهو يموتُ على استحياء

وحدى!..

فى الحفل الوحشىّ يلوكُ عصارات الأمعاء

فمتى تأتين؟

شاعر الربابة

ومرت عليك وجوه الأساطير

تنفخُ فيها

تزوّقها كلّ يوم، وترحل عبر الخيال البعيد،

لعلك تصطادُ منها عجيبة ليلتك القادمة،

وحبكة لحن القرار،

إذا انفعل القومُ بالخاتمة

وماجوا،

نشاوى التلهف

منجذبين إلى مقدم الفاجعة
ويفتكُ أبطالك الفاتحون،
ويصطرعونَ،
يخوضون هولَ المصير،
ويلتحمون
على وتر فى ربابة!
وينهمرُ الدمُ
تتطلق الصرخةُ الجائعة
لوهم البطولة،
للفعل،
للهمة الضائعة!
ويعلو النشيجُ،
ويعلو الهتافُ،
ومازلت تصعدُ، ترقى الخيال، وتصعدُ
أنت انسيابٌ وراء حدود المحال، وأنت انطلاقٌ

بعيدُ الجموح، وصوت ذكى التلفت،
قاسى الفجاءة!
تغوص بأحشائنا، فنغوصُ ثقالاً
وترهف نصلك فينا..
نلوذُ إلى الخدر الباطنىّ
نصيرُ رجالا!
ونحلم أنا كبرنا
وأنا امتطينا سحابة
وأنا عبرنا الهضاب الشوامخ
جزْنا العصور الخوالى
لبسنا عباءة كلّ المغاوير،
سقنا إلينا الزمان نصفى حسابه
لبسنا رداء القياصرِ
ياللوجوه المهابة!
ونصحِو..

فلا حلم يمسكنا .. أو ضبابة

ونسقطُ من فوق ظهر الغَرَابة!

* * *

ويقتلك الهمُّ،

تقتلك اللحظةُ القاسية..

وقد هرمت فى يديك الربابة

وشاخت حكاياتها..

وتفرق أبطالك الفاتحون

وأطرقت وحدك:

أين البطولةُ؟

أينَ معارك كانت تدير الرؤوس،

وتملأ كلَّ العيون انبهارا عنيفا، وجذبا

وأنت!.. وأبطالُك الراحلونَ..

صنعتهمو بيديكَ..

خلقتهمو من عناء الليالى وكدِّ السنينَ الشحيحة

وأطعمتهم جوعك العبقرىَّ

وصنتهمو عن مباذل كلّ البشر

ولست كأصفر من قد خَلقتَ

ولا لك حظ البطولةِ يوماً

ولاحظ أوهامها الكاذبة!

وحظ انكساراتها الخائبة!

ودوركَ مازال،

دوركَ مازال،

مرَّ التوتر، جهنمَ الرتابةِ

تعبرك الملحماتُ،

يجفُّ الغناءُ على شفتيك

يضيع الصدى فى شروخ الربابة

وتبقى:

- كما نحنُ فى عصرنا -

سؤالا عصىَّ الإجابة!

المهاجر وحيدا

تتسللُ قطرة ضوء من نافذة الليل
وكأنَّ يدا تمتدُّ، تلامسنى وتؤانسنى
فأريحُ الرأس المكدود المثقل
وأنقّلُ فى دائرة الصمت المسدل خطواً معتلَّ الأصداء
يامن يحملنى لينابيع الضوء القادم
علِّى أتسلقُ هذا الخيط الممدود،
أجاوزُ هذا الأفق الكابى،
أحملُ ماخلفت الأيام بصدرى، أنأى عن وخز اللعنة

أُبعدُ فى التيه،

وأرحل!

* * *

ماذا خلَّفتُ ورائى؟

عينين مؤرقتين تنوءان بعبء الساعات الممرورة

فى الشط النائى، تنتظرانى، وتحوطانى

وتخفّان ورائى حين أسير وحيدا

ألتفتُ ورائى؟ كيف؟ رماحُ القوم تلاحقنى

وتنوشُ بقايا من قطرات دمى

تتنزّى من فوق الحسك المسموم، فأرتدُّ طريدا

هأنذا، تتفتت قدمى

يتهافت قلبى،

تترنح ذاكرتى،

ويخورُ المعنى الساكن فى صدرى

أعشى ياعينىَّ، فكونا باصرتىَّ

فمالى بعدُ أنيس أو صاحب

ياويلى، لو حدقت ورائى

عيناك تردانى

وتصدَّانى عن وجه الغربة والمجهول

تملكُ أن تأمُرَنى

تملكُ أن تقعدنى

وقعيداً كنتُ، ألوكُ العجز،

وأنطحُ صخر الزمن المختلّ

ورماح القوم تلاحقنى

وتنوش بقايا من قطرات دمى

ياويلى!

* * *

قولى لهم إن يسألوك: غاب دون أن يقول أين!

وطار، لم يترك كليمة للصحبة التى تجاهد الحنين،

ماجدوى الكلام!

وليس بعدُ، غير رنوةٍ إلى النجوم وانتظار
لعلهُ يطلٌّ ذات ساعة مغبّراً من خلف قافلة
لعله يجئُ دون موعدٍ،
محملاً بلفحة السنين والأسفار
لعله، وآه من زيف لعلّ!
من أجلها،
أخوضُ في وحولهم،
أنأى عن الصحاب والأحباب،
أجتاز المضيق
أرحلُ في الليل وحيدا، مثل نورس مهاجر
لعلني
- عند نهاية المطاف والترحال -
يلقفني وجهٌ صديق
مثلي
مهاجر غريق!

المغنى..والشيخ نظام الدين

كان يغنى
يُعول فى صحن المسجد
يجأر بالصمت المخنوق، ويجهش بالدمع الأسودْ
ينسكب الحزنُ، وتتغرزُ اللحظات القاطعة النصل،
تغوصُ السكينُ، الجرح يسيلُ، الرأسُ يميلُ،
الخطوُ المشدودُ المتوتر يصفى، يثّاقلُ
يدنو من قلب المشهد
غمغمةُ الصوت تبينُ، تردد:

يثربُ،

مكةُ،

ومحمد!

ضائعة فى سيل العجمةِ، فى لفح مباخر وعطور

يا الله!..

صوتٌ يتردّدُ فى الصحن المهجور

فتميل مآذن توشك أن تركع

وتئن منابر ـ كانت تسعى صوب إمام الدنيا والدين

تُهرول بين يديه، تلامس موطئ قدميه،

وتسبح فى كلمات النور

تنكمش الآن، وتقعى فى الديجور

أخطو،

نخطو، نتأملُ قصر القلعة، من خلل المحرابْ

هذا بهو الديوان العام، وبهو الديوان الخاص،

وساحُ الرقص، وحمام الملكة، وقيان القصر

والنهرُ الجارى تحت القوم يعانق متكأ
المستعصمِ باسم الله، يقبل حبوةَ سرواله
وتفيضُ مباخرُ بالندِّ وبالعنبر
ويرن صدى فى ساح البهو الخالى يتردد
ياشيخ نظام الدين:
ياوتد الأرض، ويأمن الدنيا
يامنْ نورُ الجلوة شمعُ مجالسه المشهودة
كأسكَ مفعمة بشراب العشق الأسمى
وبُراقك يحملنا فى دهليز الرؤيا
ينجينا من أسر الظلمة، فى ساح اللقيا
أيقظّنا .. ياشيخ نظام الدين
إنّا موتى!
وسُبات الموت طويلٌ.. ماأقساه!
حدثنا .. ياشيخ نظام الدين
إنَّا غرباء بهذا العصر،

نضيعُ وراء زحام لغاه

أدركنا، ياشيخ نظام الدين

فدروبُ الحقّ تقودُ إلى كنفك

- هذا المتحلى بالياقوت وبالمسجد -

مازال يردد:

يا الله!

* * *

حين يصير الحجرُ غريباً!

ينتصب مهيب القامة.. لكنّ فى استحياء

يتسمع لغو رطانات الأقوام المبهورين

بوقفته الأسطورية

وأصابعهم تتقرّى ماأبقت أيامُ الهولِ

على صفحة خديهِ

تطالع فى عينيه وميضاً من خيلاء

تتحسس نقشا كان، حروفا نُقشت بالتبر

رسوماً طال العهد بجلوتها
أثراً .. مازال يبوحُ..
ويبقى الحجرُ الجامد وجه عزيز ذلَّ
يطالع سمت المشدوهين،
يكفكف من عدسات التصوير البلهاء
وينهنه بالصمت الراعف، بالأصداءِ
كوقْع الطبل الأجوف،
ملء غضون الذعر القابع فى الشفتين المُلْجَمتين
ويرقبُ دورة هذى الأفلاك
الحظ المعكوسُ تردى فى الخذلان
وغاب النصلُ بقاع القلب المثقل بالتذكار:
«العاشق لاينطقُ بالسر
إنْ باح يمت»
فى السند، الهند، وراء النهر
وفى قرطبةٍ.. سيان..

أطلال تبكى،

تقلع بحثا عن غفران

الطللُ الجاثم يرتاح على صدرٌ الطلل الجوّال

يتنقّلُ بين شعاب الدنيا، عمرا طال،

زماناً موصول الأحزان

فمتى.. ياشيخ نظام الدين:

الكون مريض بالأوثان

الكون ملئ بالبهتان

أدركنا..

قبل الطوفان!

فى المصيدة

عارٍ..

وترجمنى العيون!

عارٍ..

وتقذفنى الظنونُ إلى الظنون

ـ «من ذا رماك هنا؟

وكيف تأرجحت قدماك بعض هنيهةٍ ثم انحرفت

ونسيت يومكَ

والذى قد كنت تلهثُ خلفه

لما انجرفت»

عارٍ..

وصوتُ القوم يقبلُ، خطوهم نحوى يئزُّ

حشاى يسقط، آه ياهول الفضيحة لا تُعجّل

كيف لى أن أستر القبح المهين

عن العيون الوالغة!

لاشئ يسترُ!

- رب ياستار -

لا..

لا فائدة..

إنى سقطت هنا.. بقلب المصيدة!

* * *

أنا فى الطريق إليك، ياوجهى المحملق

فى الأزقة والعمائر

- ما زلتَ مرتاعا، تجوب الناس،

تنبش فى الحنايا والضمائر ـ
بينى وبينك من حطام الأرض أوراق تخبئها الدفاتر
نامت بداخلها القضية
أفعى،
تَلوّى حول عنقى
حول أعناق الصغار الراكضين وراء إرثهمو العظيم
من ذا يدلهمو عليه؟ ومن يقودهمو إلى شط الأمان؟
والحكم لم يصدر، وأقنعة القضاة تقول شيئا ما،
وتحجم عند أشياء،
وآونة تصب شكوكها فوق الجميع..
مازلتُ أحملها ـ دفاترنا المليئة بالغبار،
أوراقنا المتآكلات تضمُّ حاشية العقار
يامن يقربنا إلى يوم الخلاص؟ وكيف!
كيف!
ولا شفيع، ولاسميع

وليس غيرُ الانتظار!

أنا فى الطريق،

هواجس الخوف المرير تهزنى هزّا

وتقعدنى على وجه الرصيف، تفحصت عيناى

سيل العابرين، سرحتُ، وانقشعتْ

سحابةُ يومىَ السأمان، وارتحل النهار

- ماذا لو انّ الحكم أُجل مرة أخرى!

وثانية تعود الدائرة

وتعودُ كلُّ صحيفة الأتعاب «والرسم المسجّل»

والذهاب إلى المحاكم والإياب

وتعودُ تنقصنا الألة، والشهود!

ومالذى جعل الشهود بساحة العدل المنيع

يراووغون، ويهربون!

الأنهم خافوا؟

وممّ؟!

خطاكِ قادمة، تباغتنى، تثير ضغينة الأحقاد
فى رأسى على السعداءِ فى الدنيا، تزلزلنى
ترد إلىّ طينتىَ القديمة،
وجه أشواقى الذى نزفته أورامُ «القضية»
أو لستِ أجمل من لقائهمو جميعا؟
ـ هؤلاء القابعين وراء أقنعة القَضاءِ،
وهؤلاء الهاربين من الشهادة، والذين تجمعوا
حول القضية فى وجوم،
والذين يتابعون الأتعاب فى
الفصل الأخير من «الرواية»
بل أنت أروعُ من غدى الآتى،
ومن عمرى الذى يمضى بلا معنى
ومن وجه العمائر حين تصبح فى يدى إرثا
ومن وجه الصغار
ونظرتِ لى،

ونظرتُ

«هل حقا إلىّ أنا نظرتِ!

وابتسمت عيونك،

وابتسمت طربتُ، ياللحظة المعطاءِ

واهتزت يداك، أشرتِ لىِ؟ أم أنّ .

أوهامى تخيل لى؟ أصدق؟ لاأصدقُ؟

أنت؟ وافرحى!

صعدت، ركبت خلفك، فى الزحام دفنتُ

رأسى، كنت أسندُ نشوتى الكبرى بأنك لى

تبعتكِ

صرتُ خلفك ظلك الثانى،

عواءُ الرغبة اليقظى يمورُ، متى الوصولُ!

ألا جدارٌ واحدٌ.. يكفى ليسترنا!

ولكن! لا، فهذا بابُ بيتك قادمٌ

ـ من قال هذا الكهف فعلاً بيتها؟

ـ قطعا!

وإلا كيف لأن البابُ، وانفرجتْ مصاريعُ الأمل

دخلتْ

دخلتُ

توهّجت، فتوهّج اللهب القديم؛

تعانق الحقدُ الدفينُ مع الجمال المستثار

وسكرتُ؟ أم سكرتْ؟

تملكنا الدوار

وسكنتُ، فانطفأتْ رغابئنا معاً

وخبا الشرار!

* * *

وأَفقْتُ

لستِ بجانبى..

بل لسّتِ فى الكهف الذى قد ضمنا

ناديتُ، ليس سوى الصدى

ناديتُ، جاوبنى المدى

ونظرتُ ثانية! لقد حملتّ جميع ملابسى..

معها.. وفرت.. كيف أخرج؟

كيف أهربُ!، كيف أبقى عاريا!

كيف النجاة!

ياويلتاه!

* * *

عـارٍ..

سترجمنى العيون!

عارٍ..

وتقذفنى الظنون إلى الظنون إلى الجنون!

عارٍ، وصوت القوم يقبل، خطوهُم نحوى يئزٌّ

حشاى يسقطُ، آه ياهول الفضيحة لاتُعجّلْ

كيف لى أن أستر القبح المهين عن العيون الوالغة!

ـ «كيف انجرفتُ إلى هنا؟

ـ بل كيف قادتنى خُطاى؟ نسيتُ وجه قضيتى المغبرَّ؟

كيف إلى ابتسامتها استتمتُ؟

أكان ذلك صدفة عمياء؟ أم بلهاء؟

ـ لا..

هذى مكيدتهم، وهذا وجهها العارى

أتوا بى هاهنا، الأوغاد، حتى يفضحوا طيشى،

يسيمونى الهوان، يضيع حقى فى القضية!

ـ «أم كيف تنكرُ، والأدلةُ فى يديهم دامغة!»

وخطاهمو اقتربتْ، هسيسهمو يطنّ،

الويلُ لى،

لاشئ يسترُ،

ـ رب ياستار ـ

لا..

لافائدة!..

إنى سقطت هنا بقلب المصيدة!

ومات الفارس على فراشه

يجيئنى صوتك من قرارة الرمال
مجلجلاً، جذلان، يقرعُ المدى
أقبّل الصوت وأحضن الصدى
فلم تزلّ فيه بقيةُ النقاء فى الرجال
وكان آخر المطاف أننى سمعتهُ
ـ يجيئنى من حيث أنت،
من مكانكَ البعيد عن عيوننا ـ

* إلى صديقى «رضا»، كان فارسا نبيلا.. مات قبيل حرب أكتوبر (مايو ١٩٧٢).

وأنَّ فارسى هناك.. مايزال!

* * *

الحال من بعدك؟

هل أقول: كلّ ليلة نعشو إلى الركن الذى
ياكمّ ملأتَهُ، وظلّ رطبا فارغا
يوحشنا بلذّعة البرودة المُفزّعة
وبانطفاءةِ البريق فى عيوننا التى تآكلتْ
وبارتجافة الأصابع التى لم تقْوَ أن
تفجّر الكبريت فى عروقنا، يظلُّ ثِقْلٌ قابضٌ
ووحشةٌ تمسكنا من الرقاب..
ولفظةٌ نقولها، نقطع عبء اللحظة الشوهاء
يستدير كلُّ مانقوله، يجفُّ فى حلوقنا، نغصُّ
يصبح الحديثُ أنّت! دامعا وراعشا، وخانقا..
وعندما نُفيق من دوامة الذهول
تملكناُ الدهشةُ والسؤال: كيف؟

ـ وأمس كان بيننا .. ومايزال! ـ

وبعدُ.. لم نصدق الرحيل

ـ والموتُ راحةٌ حين يصير ماضيا مُصدّقا ـ

ونحن مانزال فى انتظار خطوتك

بعد قليل، تطرق الباب، تهلُّ طلعتك..

تملؤنا بفيض حبك الكبير للحياة..

تسكبُ فى صدورنا حنينك الجريح للسلام

وحلمك القديم أن تعود مثلنا،

للواحة التى تظللنا معا

فالفارسُ الحزينُ مايزال يسترُ الطعان والندوب

فى بريق مقلتين، تدمعان، تنطقان بالأسى..

ولايقول!

يمشى على جراحه.. ويتكئ

ينزف من أعماقه.. ولا يقول!

من يوم أجبروه أن يزيل عن صدور

رفقة السلاح شارة الميدان

وأن يمدَّ عينيه إلى عيونهم محملقاً فى هوة الفراغ والعدم

ودورة الأشياء حين يلتقى الشجاع والجبانْ

هناك، فى زنزانة السجَّان

وليس من جريمة.. ولاأثر!

لكنه الزمان!

....

بعد قليل، تطرقُ الباب، تهلُّ طلعتك

يغمرنا جناحكُ الوثير بالحنان

تلوِّنُ الكأس التى تكرهها شاحبةً، وتنتفض!

لأن شيئا فى عيوننا، كأنه الرثاءُ،

أو كأنه السؤالُ جارحا، كأنه

نزفُ القرار فيك أنت، أو لعله الشرابُ،

أو حديثنا المدبَّب الصريح

يسأل عن بطولة الميدان!

نسأل عن فجاءة الأوان!

وتجمدُ النظرة فى عينيك، يجمدُ الأسى، ولاتبوح

لكننا نسمعُ فيك ثورة البركان!

* * *

يجئُ من يقول: كان ساهرا ليلتها

ينادمُ الليل البعيد فى خلاء وحشةِ الرمال والتلال

وكان قابضا على زمام نفسه التى تئنُّ، تدمى،

يطفئُ الأنين فى سراب كأسه التى لم تمتلئ

يرقب من وراء هجعة الظلامِ

ضفة أخرى

سيصبح الصباح وهى ما تزالْ

الضفة الأخرى..

لعلنا .. نحاول المحال!

لعلنا ..

ونام دامعا، جبهتهُ المثقلة المهمومة

إلى يمينهَ التى كانت تُهيب بالرجال

لعلنا..

نُحطمُ الأوسمة القديمة!

ونلعن الخذلان والضياع والملال!

....

ولم يمت بلوعة الهزيمة

وإنما..

ـ كما نموت نحن كل يوم ـ

بالعجز عن هزيمة الهزيمة!

شهود سفينة غارقة

المشهد من الخارج:

تغرب شمسكِ الكسيرة الشعاع فى قراراة المحيطِ،
يزعم العرّاف أن فجرك الممسوخ مات
ـ من قبل أن يولد مات ـ
وأن أبناءكِ ياللعار حين غللتهم الرتابة
شدّوا الرحال،
خلّفوكِ شيخة ثقيلة الأرداف والخطى، ملعونة السيماء،
وأفردوك فى العراء

قعيدة تجتر صمت الموت والكآبة
وفوق سطح اليمّ تسبح الطحالب المزركشة
تختال فى مسيرة الديدان، تلعقُ الأوضار والأوحالَ،
تحجبُ النسيم عن رفاتنا المهترئة
ولم نعد ندرى
نحن الذين مازلنا
ـ يشدّنا التراب، والأواصر القديمة الأسباب والحرف اللعينُ ـ
هل يقتلنا الأسى المهينُ،
أم تقتلنا الدهشة فيكِ والغرابة؟

صوت أول:

أرفض أن يكون عمرنا القصير مأتما
ياطول ليلنا الذى يظل لم نثقبه بعد
لعل كوة وحيدة تضئ،
نسمةً تهبُّ،

لفظة تشعل فى عروقنا رمادنا القديم

ويلاه من ألفاظنا الباردة المحنطة

تقاذفتها الريح فى وجوهنا،

حتى إذا مااختنقت دوامة الغبار

تساقطت ألفاظنا على الورق

سطور عار

أخاف من لقائنا

من لحظة تجمعنا، نملؤها شكايةً،

ورغبة قعيدة، مغترية

ساعتها،

ويصبح الحديث سأما

ويصبح التذكار ندما

ويصبح الوجود عدما

لكننا نظل فى رتابة الأشياء، نمنح الأشياء من

صميمنا

لعل صوتنا القديم أن يعود

وينسف الحواجز الغلاظ، والمقاعد المرتبطة

وعندما يسّاقط الأسى

ولانطيق أن نرى وجوهنا،

أو نسمع النعيب فى أفواهنا

نرحل،

قبل أن يأخذنا الدّوارُ، قبل أن يسحقنا الدمارُ،

قبل أن يفجأنا النهار،

وعندما!

صوت ثان:

تأملونى

صار لى وجهان: وجه بومة ووجه ثعلبان

على دموعكم أجوس، أعبر الكهوف والخيران

ممتشقا لسانىَ المدرب الفصيح

منطلقا من ربقة الزمان والمكان

وساكبا فى سمعكم أكذوبة الأمان

أمد كفّىَّ استغاثة، أو محسنا، سيان

وليس ثَمّ من يقول كيف؟ أو لمه؟

وكلنا فى غمرة الطوفان

تنوشنا سنابك الأحزان!

صوت ثالث:

يهتز كل شئ

الشارع يهتز

- العالم يهتز

- الأفق المحدوب فوق مدينتنا يهتز

- تهتز التفعيلة، تسقط فى إيقاع الزمن المثقل بالضوضاء

نخرج مذعورين، نفتش عن مأوى، نتماسك، نهوى،

نتصادم، نقعى، نتساند، نسقط مذعورين،

يدحرجنا الرعب الوحشى، نخوض وحولَ الموت ونهوى

ألمحَ ثمَّ قبائل تأتى وتروح

بيارق ترتفع وتُطوى

وجنودا تفترش الساحة، تغفو فوق جيادٍ

كانت بالأمس تحمحم حتى أتعبها التصهالُ الكاذب

سكنت تحت غطاء الليل الكابى مقرورة

وتغيب الصورة

تهتز، فتنطمس الأشياء وترتطم الأشياء،

ولايبقى إلا صوت مشروخ

صوت مازال يئز!

هذا الصوت الضائع فى البرية

يرثى فينا كونا يهتزّ!

صوت أخير:

لا، لاتحاولوا التقاطهُ

مضى، تبدّدت خيوطه،

التقى بغير سمعكم ولن يعود

لكننى أشهد : كان شاحبا، وكانً

ينسلّ فى مرثية قديمة

لمحتُ فى سطورها غرناطة الشهيدة

تسوق للقاء فارسا وفارسا

ويسقط الأبطال فى حومتها قصيدة

أشهد، كان فى شعاعة المساء

محدّرا دموعه الساخنة المهمومة

وقبل أن يغيب رفّ مرة ومرتين

لعله يبحث فينا عن صدى

لعله كان ينادى أرضه المفقودة

وحين غاب، كان باهتا، وكان يائسا

ويطبق الأسى!

شمس اللّـه فى قرطبة

فوق الثرى العاطر فى قرطبة الوديعة المزينة
رأيت نور الله ينداح على أفق كنيسة ومئذنة
شاهدت آى الله تتّرى، فتذوب عثراتُ الأزمنة
وتَمّحى الأبعاد والأسوار، فالكل وجوهٌ مذعنة
دانتْ لوحدة الشعاع فى سريرة التقىّ المؤمنة
سمعتُ صوت الله تتلوه شفاه عامراتٌ محسنة
نبضاً سرى،

* المؤتمر الإسلامى المسيحى الثانى فى قرطبة (مارس ١٩٧٧).

ثم استكنّ فى حنايا الكلمات المعلنة!

* * *

ما زال فى المحراب من صدى زمانه الذى ولىّ أذان
ترتجُّ دون وقعهِ الجدرانُ، يهتز الزمان والمكان
وتستديرُ ملء صحنه المضمخ المعطور مقلتان
تستجليان موكب الأمان فى جلاله وتسجدان
تستشرفان دورة الأيام والرؤى، وتخشعان
هذا ضياءُ الله،
بيته المشعُّ بالسلام والأمانْ
ونحن فى سفينة النجاة نلمسُ الضفاف والشطئان
جمعانِ
من بعد الشتات، واغتراب الملتقى، يلتقيان!

* * *

ألمحُ حجرا يبكى
أطلالاً تعول فى وقفتها الأسطورية

لحناً كعزيف الجن يدمدمُ بين تخوم الربوة،
والجسر المهجور
أسمعُ هسهسةً، وشجونا، مازالت حيرى مغترية
فى قاع النفس تثور
ويداً تمتد إلى الوجه الكابى المذعور
تتقرّى وجه الحجر الصلد،
تطالع هذا السمت المأنوس،
وتخشع فى سجدتها،
ويدور الدهليز الممتدّ إلى الزهراءِ
يفاجئنا بشعاع النور
ترتاح قلوب ثكلى وصدور
كانت تضربُ فى تيه الديجور!
وتنادى،
من فوق الربوة والجسر تنادى:
«ياعبد الرحمن، ويامنصور

ها نحن نعود إليك

الأيدى سكنت فى الأيدى

وخطانا ارتاحت فى جسر الحبّ المعمور

ترسمُ دربا ميمونا للقيا

والطيفُ الهاتف مازال يشاغلنا

فى الصحو، وفى جلوات الرؤيا

فامنحنا بعض شعاع من عينيك

فالدنيا غيرُ الدنيا

لكنّ نداءك يجمعنا ويوحدنا

فى الأرض السمحة يجمعنا ويوحدنا

فانظر ماذا صنعت فينا الأيامْ

نستلّ مرارتها

ننتزعُ دمامتها

ويعودُ الإنسان إلى الإنسانْ

جمعا نتساند، كالبنيان

فى وجه الظلمة، والطوفان!

* * *

أقسمت بالإسلام،

بالسلام،

بالقلوب وهى مفعمة

أقسمت بالذى أضاء فى عيوننا طريق المرحمة

ومد فى طموحنا حتى ارتقينا للإخاء سلمه.

وبث فى صدورنا ضياء هديه لنا وعلّمه

يغسل بالنور بقايا السنوات المدبرات المظلمة

أقسمت هذه بدايةُ الطريق، بادروا مُخْتَتَمه

عيسى وأحمد عليه يغرسان فى القلوب أنجمه

تعانقا هدّيا إلهىّ السنا، متوّجاً بالمكرمة

ونحنُ حاملوه فى أعماقنا،

لن نُسلمه!

أغنيتان لمصر

«أحبك»

أحبكِ

يانبضة فى صميم الحنايا

ويادفقة من شعاع السماء تضىءُ خطايا

ويامنتهى غايتى..

إن تمنيتُ أفقا وضيئا

وفجرا نديا

---

* أكتوبر ١٩٧٣

وعيشا رضيا

وناديتُ، كنتِ الصدى فى ندايا

ويقذفنى اليوم للأمس،

يقذفنى الأمس للغدِ،

أسبحُ، عبر فضائك،

أرتادُ أفق نجومك،

أسكب روحى على ضفتيك شظايا

* * *

أحبك

فوق ترابك يغمرنى الشوقُ،

تنبض عيناك، أخشع، أرنو

وقد أتكورُ فوق يديك شهيدا، وأغفو

تُطلين فجرا جديدا، وعمرا

ويمنحنى شاطئاكِ امتدادا

وراء حدود الزمان،

وراء حدود المكان،

كأنى تماثلت فوقك دربا

تمر عليه القوافل تسعى

كأنى انتصبتُ جدارا منيعا وسدا

تطيش عليه الأعادى.. وتفنى

كأنى تلاصقت فى حضن من غاب:

أحبابنا،

والشهيد المضرَّج،

والأمل الأخضر المستثار،

ورايتنا ركزتها السواعد فى جبهة الشرق،

يكبر من حولها أمل العائدين،

يمرون،

ينبطحون عليها،

يضمون وجه ثراها المندى

تُكبر أفواههم بالصلاة،

يضمونها فى خشوع الحجيج،

وفى لهفة العاشق المستهام،

يعودون،

قد عصف الشوق

طالت ليالى البعاد،

وغاصت أصابعهم فى التراب المفدى

تبدّل وجه الليالى نهارا

تفجر صمت السنين انتصارا

* * *

وقفت أناديكِ من عمق جرحى

وأهتف: نمضى وتبقيّن أنت

وأهتف: نمضى، وتحييّن أنت بعزم الرجال

بعزم السواعد وهى تشقُّ غبار المفاوز،

تقتحم الهول من أجل عينيك،

من أجل لؤلؤتين تضيئان وجه الزمان،

من أجل وجهك هذا المضمخ بالدم،
من أجل يومك، يكبر، يمتد، ينفسحُ
الأفق حوليه،
يحمل فجرا جديدا
وحلما وليدا،
ونصرا..
وتبقين يامصر.. مصرا!

«اليوم السابع»

اليوم السابع جاء
والراية فى أيدى الأبطال الشجعان
تتلألأ فى وجه الدنيا
وترفرف أبدا فى خيلاء
من فوق التبة فى سيناء

* * *

اليوم السابع جاء
سقطت أحلام المخمورين المزهوّين
داستها أقدام الأبطال المنصورين
قذفت ببقايا الوهم الجاثم فى سيناء
- الوهم ابتلعته الصحراء -
أنبتت الأرض الطيبة المخضوبة
وردا يسقيه دم الأبطال
وحنين التواقين ليوم الثأر
جاءوا كالسيل الجارف، كالزلزال
يحملهم مد الشوق العاصف
يدنيهم من وهج الأرض المسلوبة
وترفرف أرواح الشجعان على سيناء
يرتاح الشوق اللاهب
تحتضن الأيدى وجه المحبوب العائد
وجه الوطن الغائب خلف غيابات الأيام السوداء

وجه اللحظة، حين يصب الماضى فى الحاضر
يتصل نداء الإنسان وسعى الإنسان
اليوم يعود إلى الأشياء مذاق الأشياء
يصبح للكلمات مذاق الكلمات البكر
وتعود الروح إلى مصر!

* * *

عبر الأبطال الشجعان
عبرنا نحن جدار الخوف
عبرنا وجه الأيام السوداء
عبرنا سد الذل الجاثم فوق رقاب القوم المحنية
فارتفعت كل الهامات وكل الأعناق
شامخة الطلعة.. والسيماء
تتلقى الضوء القادم من سيناء
صنعته بيارق هذا اليوم الموعودة
تتلقى الفجر القادم من سيناء

صنعته مواكبُ هذا الزحف المحشودة
تتلقى النبأ القادم من سيناء
صنعته ملامح هذا النصر المشهودة
تتلقى الصوت القادم من سيناء:
«قوموا انتبهوا..
أبناؤكم الأبطال الشجعان
صنعوا وجها آخر للتاريخ.. وللإنسان
أبناؤكم الأبطال الشجعان
ضربوا المثل الأعلى فى قلب الميدان
قوموا انتبهوا
أبناؤكم الأبطال الشجعان
عبروا..»
فعبرنا خلفهمو سدّ الأحزان!

الدائرة المحكمة

لا مفـر

هـذا أنا ..

وفى نهاية الطريق.. أنتِ

واحةٌ شهية، سحابةٌ سخية تمرّ

أدمنتُ ظلّها .. ولا مفرّ

والآخرونَ.. بيننا!

* * *

هـذا أنا

لا جائعًا أتيْتُ أو مُطارَدا

أو هاربًا من موسم الجفافِ والحطبْ
أو باحثًا فى ذروة الزحام عن مغامرة
فقد تعبتُ من تفقّد المدى
مستقرئًا للغيب أو منخذلاً فى المنحنى
ومن قلوب هشةٍ مُراوغة
حسبتُ فى بريقها تألق الذهب
لكننى صحوتُ فجأة ذات صباح
كانت ستائر الأصوات غير ما عرفتُ من أحزانْ
وفى الأثير ثَمَّ رائحة
تكشف عنها فورةُ البركان
ممزوجة الأنداء باللهبْ
أدركتُ - يالَروعةِ اللقاء، والإصغاءْ
لمقلتيّك - حين أجفل الصباحُ فى المساء
أنّى سقطتُ فى بحيرتين من صفاء
وأننى أسيرُ فى السماء

وأنَّ أياما خلَتْ من رحلتى هباء

قبل اكتمال العُمر بالضياء

قبل اتّساع العين للرؤى

قبل ارتواء القلب بالهناءْ!

* * *

تسألنى عيناكِ عن نهاية الطريق

أحارُ.. لا أُجيب

يجلدنى سُؤالكِ الصموتُ ألْفَ مرّةٍ،

ويخرس الكلام الحريقُ فى دمى،

ولا أجيب

وتستحيلُ لحظة القاء غُصّةً، وبعض بوْح

لكنّه السؤال، فى عينيكِ ما يزالُ، والحريق

أخفضُ طرفى حائراً وأستديرُ

لا أطيق!

* * *

ترى يجودُ العمر مرةً، بقطعةٍ من الخيال
تنزعنا من يومنا المغموس فى الوجوم
تطلقنا من قيدنا المغروز فى الصبَّار والزقّوم
إلى مدارات النجوم
محلِّقيِّن، تائهيِّن فى أثيرٍ، ما يزال
ندور فيه، والمدى من حولنا تخُوم
وفى الثرى البعيد عن عُيوننا
- ينأى بوجهه الدّميم -
تخلَّفت أثقالنا
وانطفأ السؤال
فليس من بدايةٍ ولا نهاية
لرحلةٍ تدورُ فى المحال
ترى يجودُ العمرُ مرةً بلحظة اكتمال!
فتسقطُ الحدود والسدود من طريقنا المرصود
وتسقُط الأقنعة التى تعافها الوجُوه والجلود

وتستريح بيننا العيون من فُجاءة الزلزال!

* * *

أغرقُ حين أرتوى

فَنبعكِ المعطاء دافقٌ، بلا حدود

وومضةُ الحنان تفتحُ الكوى

وتجعل الغرْقى يرومون المزيد

لكن شيئًا قاتمًا، يرسبُ فى قلوبنا

شيئا ثقيلا داهمًا، كقبضة الحديد

يخنقُ فينا حلمنا المزغرد السعيد

يا ويلتا، يا ويلتا

من وخزةٍ فى الصَّدر تُنهى لحظة الأمان

العمرُ لا يسعفنا

والخوف كمْ يتلفنا

هل من مزيد يا همومنا، تُرى هل من مزيد!

الليلُ موعد لنا

فجرِّبى أن تقسمينا اثنين، أو تشى بنا
والحبُّ قُوتُنا ورحلنا وكهفنا
وزادنا فى رحلة المنفى
إلى اغترابنا الجديد!

* * *

هذا أنا
وفى نهاية الطريق.. أنتِ
والآخرون بيننا!

الليل وحبة الضوء

تجيئين فى الليل - يا قسوة الليل لولاكِ -
يا حبة الضوءِ،
تسَّاقطين بقلبى
أذوب ارتجافًا
وتصطكُّ أرجاء نفسى
أموت انخطافا،
وأعشو إليك،
يجاذبنى ثقْلُ يومى

ويسحقنى حجم همىّ

ويقذفنى للبلاد السحيقة وهى تبوحُ بأسرارها

وتغادر طَوْق الرَّتابة .

أدوُر، أظلُّ أدور،

تلاحقنى ومضة من شعاعاتِ عينيكِ،

تحملنى فوق كلّ التخومِ القصيّة،

أصبح فى خفة الضوء، مُنطلقا فى الأثيرِ،

أحدّق فى عالمٍ من كآبة!

* * *

يقولُ لىَ الليل عنك كثيرا

يحُدثنى عن صباك،

وعن وجهك المستكنّ وراء الطفولة

يحُدثنى عن تجاعيد عينيك حين تضيعينَ

شاردة فى شعاب الليالى الطويلة

وحين تفكينّ لغزًا فينحلُّ،

حتى يجئ بنا لغزُنا صخرةً مستحيلة

يُحدثنى عن بقايا سجائرك المطفأة

وعن دوران الدخان المسافر فى رحلة للسآمة

وعن مزقٍ من شراعٍ تهاوى ولمّا يصلْ مرفأه

وعن دمعاتٍ تجمدن لا ينْحدرن،

وآهة صمتٍ تكتَّمْتِها

فاستحالت أنيننا، وجرحًا مدمًّى

وعاصفة من همومٍ ثقيلة

وعن أمنيات تقلَّصْنَ، صِرْنَ رؤى مرّجاة!

يقول لىَ الليلُ عنك كثيرا

أُحسك ساكنة فى جوارى

وألقاك وادعة فى انتظارى

أبوحُ،

ويسقُط عنى القناع،

وألبسُ وجهى،

أعود صغيرًا كما كنتُ فى البدءِ،
جذْلان يا حبة الضوء،
مُنتشيا بالحديث إلى جانب المدفأة
ويحملنى الليلُ، جسرُ المحبينَ،
أدنو إليك، وأرنو
وأنت سحابةُ عطرٍ، ونجمةُ ليلٍ،
وبوْحُ امرأة!

الدائـرة المحكمة

أجيئكِ،

مزدحمًا بالوعود،

مضيئًا كدائرةِ البرق،

منتظرًا لانهمار السواقى،

الاصقُ عُرّيى بجدران عزلتك الموحشة

تلوّح للعابرين الحيارى

أن انغمسوا فى رحابى

ولوذوا ببابى

وسيحوا، دروبىَ ممتدّة مدهشة
وأنشطر اثنين:
بعضى يُلاعن يوم قدومى لديك
وبعضى يبارك يوم انتسابى إليك،
وأمضى،
تلاحقنى دمدماتُ انشطارى
ويصلبنى فى الميادين جوعى وعارى
وذلٌّ انتظارى
وأرجع مختنقًا بانكسارى!

* * *

أجيئكِ،
تحملنى صهواتُ الرؤى المعلمة
بكفَّىَّ سيفكِ،
أحملهُ عن ميامين قبلى،
مضوا فى هواكِ، وغطَّوا ثراكِ،

وفاحوا مباخرَ تمسحُ بالعطر أحزانك المظلمة

ومازلت شاخصة، كالشواهد فوق القبورِ،

كوجه الخرائب فى ليلةٍ معتمة

وأنزلُ فى المعمعان،

أطاعن ثَبّتَ الجنان،

وظهرى إليكِ،

أمنتُ فجاءاتِ هذا الزمان،

تلبَّسْتُ جلد الأمانِ،

عرفتُ اختلاط المسالك،

بلبلة المدلجين،

وطعم المرارة فى طعنات الجبان

ظننتُ بأنك فى الرَّوع حصنّى

ملاذى وأمنى،

وزادى إذا جعتُ،

كهفى إذا خلعتنّى القبائلُ،

واختطفتّنى الأسنّةُ،

وانهرّتُ فى ساحة الملحمة

وها أنت،

عاريةً تسترين البقايا

تكشَّف وجهك لى،

وتساقط جلدك،

هذا الخبىءُ وراء مدى الأقنعة

وجدتكِ راجمة الأنبياءِ

وقاتلة الشعراءِ

ومخرسةَ الألسنة

وجدتك عاتية القهرِ،

شامخة العهّرِ،

فاسدة الأمكنة

وأرتدُّ،

أين المفرُّ

وأين براءة حُلمٍ تقصّفَ،

خطْوٍ توقف،

عمرٍ تجاعيدُه مبهمة

وأسقط،

تتسعين فماً لازدرادى،

ولحدًا عميق القرارِ

وفخا،

ودائرةً محكمة!

الشعر في هذا الزمان

يا حدّ السيف المرهف والقاطعْ
ها، خُذ في القوم بَراحَك لا تترددْ
واقذف برؤسٍ حان قطافُ ذوائبها
وتعرّي وجه دمامتها وغرائبها
في وحل الليل المرصود الساطع
هذا عصر الوالغ في كأس أخيه
العارض سوءته في سوق أبدًا
لا تتفدْ

هذا عصر المتورم جهلاً

من يوقظه؟ من يثنيه؟

نعرفه، ندرك حطّته، لكن في خلوتنا نبكيه

نحذرُ أن نُغمدَ فيه الرأي الفاجع

حتي لا ينهار الحفلُ الجامع والذائع

وتدوم دمامة هذا الوجه المتجدد!

* * *

يتشقق وجه الأرض، يُطلُّ العابرُ في عمق الهوة

الصمتُ يموجُ،

الرأسُ يدورُ

الصوتُ النائي يصّاعد

من قاع الهوّة يصّاعد

مذبوحًا مخنوق الشهوة

ركلته الأقدام الحمقي

وانهالت سافية العدم الأسود

وارتحنا

فالقشرةُ عادت مجلوة!

ها أنت تُحدّق مذعورًا

ووحيدًا من خَلل الكوة

فافغرْ ما شئْت فما

وانزفْ ما شئت دما

واهتف بالقادم لا يدنو

فالهوّةُ تبتلع الصفوة

كمدًا فى الخلوة، أو ندما!

* * *

تنزل من صهوة ذاك الحلم، تعود غريبًا ووحيدًا

حلَّقت طويلا

مسَّ جناحاكَ الأفق النائي

شَارفت تخوم المجهول المملوء دروبًا ومنائر

وحفائرَ شتيٍّ وبشائرْ

ومسحت وجوه الناس نبيًا ينثالُ وعودا
يبنى يويوبيا وعمائر
ورجعت بحفنة تذكاراتٍ خائبة وبقايا من أصداءْ
غرقت في جوف الضوضاء
فانظرْ حولك
وتأمَّل هذي السوقَ العارية المشهودة
فالكلُّ يبيع ويسقطُ في المحذور
واشحذْ سيفَك
قد تقطع يومًا هذى الكفَّ الممدودة
لا تدري سُمَّ أناملها
أو حجْم الطلقة في الدّيجور
واخفضْ صوتك
حتي لا يسمعك الحمقي، والسفْلة قد يستقصونك
واحذرْ قَدَرك
يترصَّد ما بين الكلماتِ المعدودة

لو تدري الغيّبَ الكامن في المجهولَ
لاختّرتَ العيش طليقًا، وبعيدًا
لكن، ها أنت تدورُ وتسقطُ في شَرَك المقدور
مقتولاً برصاص قصيدة!

لأنك الوطن

على جناح الصيف يرجعون
تُلقى بهم مدائن الغربة والعراء والحنينِ
فى مفارق الطرق
مغلولة أيديهمو إلى خزائن الأشواق
مشدودة عيونهم إلى حقائب السفر
مدموغة وجوههم بوشم عام محترق
تساقطت أيامه فى هوّة الزمن
مُشرعةً آذانهم إلى نداء بالرحيل

وخطوهم يسوخ فى عبء الأسى الثقيل
وفى العيون بعض ما تخلّف الصحراء من غبار
وفى الحلوق بعض ما استقر من أسَنْ
تتابعت حقائب المحمّلين والمزوّدين
واختلطت مواكب المشيعين والمودعين
وانفتحت خزائن المحدّقين فى انبهار
وليس فى الجراب غير كومة من السنين
وحفنة من المحار
لعلها من بعد طول النأى والترحال والطواف
ورحلة الخريف والجفاف
لعلها الثمن!

* * *

ها أنت فى وقفتك المرسومة المراوغة
لا تحتفى بهم،
ولا تصدهم..

تجمعوا أمام بابك الوصيد ذاهلين
وانفرجت شفاههم عن دهشة ونقمة
هل أخطأوا حين أتوا؟
هل أحسنوا؟
لا يعرفون
لكنهم برغم صمتك الثقيل يحشرون
تموج فى عيونهم دوائر الحنين
وحين تطبق الفخاخ حولهم يستسلمون
دون انتظار غاية لسعيهم أو حكمة!
ولستَ حانيا
كما توقّع الغيّاب حين يرجعون
أو حافلاً بالخير،
مثلما تعوّد الآباءُ
حين كانوا يغرفون من عطائك الميمون
وسرُّكَ المبارك المكنون

من حول هدأةٍ ولقمة

أو جامعا للشملِ،

عندما كنت مصلى للجميعِ

ينحنون فى ترابك

ينتشرون فى شعابك

ويقسمون فى رحابك

بأن عهدك الوثيق لن يهون

قد لا تكونُ أىَّ شئ بعْدُ، يرتجون

فقد تشققت حلوقهم، ولم يعودوا يهتفون

وانسحقت أحلامهم تحت خيول الظلمة

وأصبحوا،

حين يغنون وحين ينشجونَ

يستحون

وإن أفاقوا مرَّة وجربوا يفسرون

قالوا : تغيَّر الزمن

لكننا نلْقاك، يا سرعان ما ننهار فى أحضانك
كى ندفن الغربة فى أحزانك
ونُسكنَ العظام فى شطئانك
دون سؤالٍ عنك، أو عنا، وعنّ...
لأنَّك الوطن!

يدوسنا عام جديد

وانتظرناك، فلمّا جئت.. ماذا فى يديك؟
الدمُ المسفوح ما زال،
غُبار الموت،
أنّاتُ الثكالى والسبايا
والصدى المذعور ما زال،
هتاف الرعب،
صوت الباعة الحمقى،
ومنذورون ذابوا فى مواويل الصّبايا

عبثًا صاروا ضحايا

ويد تقذف بالأفعى فتلتفُّ

وفتيان يخوضون المنايا

أملاً فى شاطئيْك!

تعبت كلُّ انتظارات الأيامى والعيايا

عندما صارت كهوف العمر للناس مرايا

سقطت عنها التجاعيد،

وشاخ الوهم،

وانزاح القناعُ الصلدُ

وارتدَّ شظايا

وانتظرناك، وها أنت هنا،

ماذا لديك؟

حين فتشنا عن الراية، لم نلق الذى كنَّا رفعناهُ،

وغنيناهُ

عامًا ثم عاما

النداءاتُ التى بُحّت بها أصواتنا ذات صباح
فى شقوق الأرض غابت، أرضنا العطشى
وذابت فى تلافيف الجراح
وأفَقْنا
فالثرى المخضوب حنّاء وأفراحٌ وساح
والندامى سكروا من غير راح
والذى يبرق فى الأيدى سلام أم سلاح؟
نحن أغمدناه فى أحشائنا
ورقصنا رقصة الموت على أشلائنا
وغرزناه وئيدًا فى الحنايا.. فاستراح
حين فتشنا عن الراية..
لم نخرجْ على القول المباح!

* * *

أيها القادم، فى عنف قطار الموت،
رفقًا بالوجوه المتعبة

نحن جرَّبنا كثيرا

وابتلعنا خيبة الوهم حسيرًا، وكسيرا

وتعلقنا طويلا بذيول العربة

فى الغبار الأسود الملعون نرتدُّ،

وفى وجه الليالى الجوف،

فى دوامة الصمت الحزين

ودهاليز الرؤى المضطربة

لم نفارق وتدًا شُدَّت إليه كل أعناق القبيلة

لا، ولم نسأمْ أفانين هتاف الكَذَبة

لا، ولم نبرحْ مكانًا نحن فيه من سنينْ

همَلٌ من غير حيلة

هذه الأعناقُ ديست، داسها عام وعامْ

لا تكنْ أقسى

فما فى منزع الصبر بقية

لا، ولابعض إباء فى عروق الرقبة

أيها القادم، فى عنف قطار الموت، تطوى كل شىء

المدى، والعمر، والأحقاد، والصمت المهين

دامعًا وجه الليالى بالجنون

خفف الوطْءَ، فهم موتى

وهذى أرضُهم مغتصبة!

عندما يغلبنا الأسى

أهكذا يمرّ عام؟

وتنطوى الأيامُ فى لفائف الأيام

نصحو،

فلنقاك بعيدًا حيث لا صدى ولاسلام

وثَمّ ما يشغلنا

يُلقى بنا فى قبضة الزحام

أهكذا يسرقنا المنام؟

---

* فى الذكرى الأولى لرحيل الإذاعى الكبير عبد الحميد الحديدى.

ويستحيل وجهك النبيلُ بعض طيف
يعبرنا فجاءة فنرتجف
نلمحُ فيه من بريق مقلتيك جذوةً لم تنطفئ
ومن حفيف صوتك الأنيس رنّةً تُلامسُ المكانْ
ومن صدى خُطاك قادمًا تهلُّ، واندفاعة الصغار
تذيب فى أحضانهم هوى مدبًّا كسيّف
سرعان ما يفيض بالحنوّ والأمان
نلتفُّ فى عباءة الشتاء حول ركنك الأثير بيننا
وعندما نُشعل من مجامر التذكر المرير دفء ليلنا
يغلبنا الأسى، نحار كيف نبتدئ
ونملأ العيون بالدموع والكلام!
الآن حين يعتريك زهو فكرة تضجُّ بالشرر
وينذرُ الحديث بالخطر
تُرى من الذى تجيل فيه سيف فطنتك
وتنتقى من فورة الألفاظ ما يضئ فيض حكمتك

ويدمغ المحاورين بالحَصَر!

الآن مَنْ يُنجيك من بُرودة الصمت الثقيل مطبقا
وقابضا

أم يا ترى يروق لك

وقد بعدت عن سفاسف الحياة والبشر

واستسلمت عيناك للخدر

واقتحمتْ سَكينةُ الرَّدى خُطوط سحْنتك

تخفى الذى يمورُ فيك من مكيدة القَدرْ

منسحقا تحت سنابك الرضا

هل ثَمَّ ما تراهُ غامضا

أم أن دورة السؤال خاطرٌ عَبرْ

يُفضى بنا إلى القضا

ولا مفرا

* * *

يا سيدى هلاَّ تخفَّفْتَ من العبء الذى كم أثقَلك

وأنت تتشدُدُ الكمالَ والمُحال

حملته،

وليس فى يديك غيرُ قوت يومك القليل

وفى جبينك التماعة الشرف

وفى فؤادك العصىّ همّةُ الرجال

لكنه الدربُ الذى يختارُه المسافرون فى الحلَكْ

نفوسهم من فوقه تسيل

يشدُّهم توهج اليقين والهدف

وحينما تلتفتُ العيون

ونستدير باحثين عنهمو ذات مساء

ليسوا سوى حكايةٍ تُقال

حكاية بلا مثال

عن فارسٍ مُعاندٍ هلك!

فى حمى رامتان

وأطرقتُ أصغى لهمس الظلالِ،

وصوتِ الزمان القديم

وفى الأفق بعض روائحك المستكنةِ

بعضُ امتداداتِ صوتك،

بعض شعاعات عيّنيك حين تجولانِ فى القاع،

تستشرفان خبىء التخوم

الجذوعُ القديمة فى الطين تلتفُّ

---

* فى ذكرى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين.

بوحُ العطور يموجُ،

العصافيرُ تعلن عن موسم الخصْب،

تفضح أسرارها وتغادر خلْف الغيومِ،

أنا سائرٌ حيثُ كانت خُطاك تُصلى

وسمعك يلتهمُ الكون،

وقع أصابعك المرهفات انتفاضًا وقبْضا

عُزوفًا وأنْسا

تجوبُ مدار النجوم

تلامسُ وجه المكان، تطوّفُ فى سحنةِ الكائناتِ

تطالعُ هذا الوجود الدميم

وأطرقتُ،

هذا الطريقُ النحيلُ المُدمَّى

يؤدّى إليك،

ويُفضى إلى قلب مصرَ

إلى عالمٍ فيك سمحِ الأسارير،

مُشتعلِ الحسِّ،

صافى النَّسيم!

* * *

تُراكَ استحلت، كما كنت فى البدء ظلاً وجمرة

وطوّفت تشعل فى الكائناتِ رياحَ الغضبْ

وتنزع فى مهرجان الطقوسِ ثياب التنكر والأقنعة

وتسكبُ فى مسمع الوادعين

عويل الأيامى وجوع العرايا

وتقطف من شجر البؤس شوك الأسى والتمرد

وتنشر للسابحين وراءك حبل التواصل والأشرعة

وتقذف باللهب المستثارِ جدار المعرّة

فلا أنت تهجعُ فى المحبسيّن

ولا أنت ترتاع خَوف المنايا

وطاغوت من ولغوا فى الرزايا

ولا أنت بعض سطور منمقة فى زوايا الكتب

تراك استحلْت كما كنت فى البدْء نارًا وثورة!

* * *

لمحتُ الذين أحبوك جاءوا

وبعضا توقّفَ

كيف العبورُ إلى شاطئيك، وأنت الرحيبُ المدى،

شاخصٌ كالعلامة

وبعضا توهمَّ أنك فى حكمة الشيّخ،

تصفع حمق ادعاءاته،

وثرثرة اللغْو إذ يتشادقُ،

أَنَّى له أنْ يطالع سمتك، هذا العتىَّ الصرامة

وبعضا من القوم حمقى،

يظلّون أسرى دهاليزهم،

يرودونَ دربَك فى عتمّةِ الليل،

يستشعرون فجاءة لفْحتك الطاغية

يذوبون،

ينكمشون،

يظلّون خلْفَك أسرى حيارى

هو الضوء يسطعُ، كم يُنكرون!

هو الليلُ يزحف، كمْ يعمهون!

وأنت، تُساقطُ حكْمتَك الغالية

وتغفر للقوم أنْ أسرفوا

وجازوا ببابك لم يبُصروا

ولم يعرفوا زهرةً كنت تعشق أسرارها

ولا بارقًا كنت تغرسه فى ثنايا كتاب

ولا وطنًا كنْتَ توغلُ فيه بقلب صديعٍ

وفكر منيع

ويُطوى زمانٌ،

ويأتى زمانٌ

تظلُّ عروقك فيه تشبُّ

يظلُّ شعاعك فيه يجوسُ

ويغمرُ كلَّ القرى والنجوع

ويأتى على الدرب خلْفك من طين مصر جموعٌ،

وتأتى جموع!

سكن العبير

سكن العـبـيـرُ وأطرق الصـمت

والـروض لا ظـلٌّ ولا صـــــــوتُ

وعلـى الثـــرى أثـار أغـنـيـــةٍ

عـبـرتْ وغـال صُداحـهـا الموتُ

مـزق من الذكـرى، يلاحـقـهـا

نـــاىٌ شـــتـــيت راح ينـبتُّ

* فى رحيل الشاعر فوزى العنتيل صاحب ديوان عبير الأرض.

وحـــداء أقـــوام قـــد اغـــتـــربوا
عن نجـعـهـم وتبـاعـد السـمتُ
جـــاءوا غـــزاة، فـــاتحى مـــدنٍ
صـمـاء عـشَّش فـوقـهـا المقْـتُ
طحنتـــمـــو الأيام وانسكبـــوا
فـــوق الثـــرى، وتناثر الزيتُ
يا ويلهم خـــرجـــوا بما ملكوا
ومـــضـــوا، فـــلا وطن ولا بيتُ
من حـــولهم جـــثث مُحنَّطة
الشـــعـــرُ فى ألواحـــهـــا نحتُ
إبصـــارهم - لو أمـــعنوا - عَمَـــةٌ
وبلوغـــهـم - لو أدركـــوا - فـــوْتُ
إن يُســـرعـــوا فلكلّ مـــائدةٍ
وعن الخنَا أقـــلامـــهم صُمت
أو يهـــتـــفـــوا فلكل بارقـــةٍ
ولكلٌ قـــولٍ عندهم وقـــتُ

فــسَدَ الزمــانُ بهم ومن عَجبٍ
لم تنفــد الأســمــار والتَختُ
وأراك بينهــمــو شـهـيــد هوى:
«أنا من صـمـيم وجـودكم جـئتُ
من قــرية فى القــفــر نائيــة
عــذْراء فى آفــاقــهــا طرْتُ
وفضضْتُ ختم السر عن فمها
فــتكلمت لُغــتى، فــغنيتُ
بعــبــيــرها صلّيتُ مُنتــشــيًا
وبســرها المهــتــوكِ أُنطقتُ
دمــع وآهـــات وأتـــربـــة
وصــدى أيَامَى فــيــه ضُمّختُ
وجنازُ بكائين مـــا عـــرفـــوا
غــيــر النواح، بركْبــهِ ســرتُ
وحملتـهـا فى القلب، وانطلقتْ
كــفىٌ تُزيح الســتــر فــارتعتُ

فى رحلة الكلمـــاتِ قـــاتلتى
إنى نطقْت بهــــا فـــأذنبتُ
وعـــصـــيت لكن لم أخن أبدًا
وخُذلْتُ لكن مــــا تشكيتُ
ونُفـيتُ عن جَلدى، ومـا علمـوا
أنِّى عن الصـــغـــرى ترفَّعت
حسْبى إذا حُشدت سـهـامهـمو
أنِّى على يدهـا تكســـــرتُ
وجُهلت، لكن حـــسبُ ذاكـرتى
أنـــى لـطـيـن الأرض عُرْفــتُ»

* * *

الآن ترجع غـــصنَ باســقـــةٍ
فـــرعـــاء هَوّم حــولهـــا النبتُ
سكن العـبـيـرُ وأطرق الصـمتُ
والـروض لا ظـل ولا صـــــوتُ
كم أنت قـــاسٍ أيهـــا الموت!
كم أنت قـــاسٍ أيهـــا الموت!

الرحلة اكتملت

نجوسُ خلال الحروف،
نحاورها ونراك جديدًا تهلُّ علينا
تُساقطُ حكْمَتك الموُجعة
نضيع وراء الزحامِ، يفاجئنا الصوتُ، صوتُك،
نعرفُ طعمَ نداوته،
وحدودَ رحابته،
نتلاصقُ،

---

* فى رحيل الشاعر صلاح عبدالصبور.

ندركُ أنَّ الحياة امتدادٌ وأنَّ الخطي واسعة
يداهمنا الحزنُ، نعشو إليك،
ونلقاك في آخر الدرب، تسكبُ فينا الصفاءَ
وتمنحنا اللّفتةَ الوادعة
ومنْ لك حين تجوسُ،
وحين تضيعُ،
وحين يصاولك الحزنُ،
حين تفتتك الكبرياءُ،
ومنْ لك حين تميل بك الأرضُ،
تهتزُّ من حولك الكائناتُ،
تدورُ بك اللحظة المفزعة
وتدركُ كمْ أنت، يا للأسي، عاجز وشريد
وأنَّك حين اتكأت تهاوي الجدارُ الوحيد
وأنَّ الذين تؤمّلهم للزمان عُراةٌ وجوعي
يلوذون في كلِّ بابٍ،

وترتدّ أشباحهم ضائعة

فبرق الأمانيّ باطل

وهذا الزمانُ المراوغ قاتل

وهذا الأزيزُ يطنٌّ بأذنيك، ينهش صدرَك

يفرّي حشاياكَ، يُعلن عن مقدم الفاجعة

تُراكَ احترقتَ بأحزان غربتنا الموحشة

فأطلقت رُوحك من ربقة الأسر،

من أسَن الزمن المستعاد،

وآثرت أن تستدير لتُكملَ رحْلَتك المدهشة

تعودُ إلينا، كما عُدت دوماً، بصيدٍ وفير

وحزن كبير

ودمدمةٍ تقرّعُ الهاجعين، لينفجروا أو يموتوا

وعينين تستشرفان جسور التطلع للمستحيلْ

ويقدحُ زنداهما بالشرر

يضئ ويقتاتُ من زيت هيكلك المستباح

يردُّ الطعان ويعتادُ نزْف الجراح
ويخلع أقنعة القهر، يُفضي بنا للصفاء الجميل
تكاشفنا بالغرائبِ من كلّ زاد حملْتَ
وسِحرٌ ليالٍ تخطّفهن الزمانُ البخيل
وتخرسك الطلقةُ الطائشة!

* * *

تراك اعتزْلتَ،
توحّدتَ لما تقصَّيتنا
وعرفتَ مدانا
وأدركْتَ أنَّ الغيومَ اللواقح ليست تُخبّىءُ إلا الجهامة
وأنَّ الذي سوف يأتي عقيم
وأنَّ الكلام المباح نباح
فيا فارسًا دون درع وتُرّس
ويا سندبادا بغير قلاع
ويا ملكا عرشهُ الليلُ والشعرُ والأصفياء

وروادُ ساحته الأذكياء

تطفّأ نجم وأخْلف أُنس

وعشّش في الساحةِ الأدعياء

فَمن للسّقاة ومن للندامي ومن للمريدين والأصدقاء

وقد كنت تسقيهمو من ودادك

وتملؤهم باضطرامِ الحياة

وترفعهم حيث أنْتَ،

وتبقي بعيدًا، فريدًا، بلا نُظراء!

* * *

ها أنت زمان للشعر، وعمر للعشاقِ

وعطر تغمرنا سقياهُ

ها أنت زمان للشعر،

نطالعُ آخر حرف فيه،

ونغلق صفحته، فتفاوحنا رياهُ

نخلع أنفسنا منه،

نُعاود كرَّ الطرفِ،

ونبعُد عنه لعلَّ العينَ تراهُ

لكنَّا حين نفيقُ، نراك، فلا تخطئك العينُ مُسجَّي

ندنو، نتحلقُ من حولك تتأملنا، وتُصنّفنا

وتردُّ الكاذب عن بابك،

ترفضُ أن تُصبح موسمَ لغْو أو بهتان

تتململُ حين يلاحقُ سمْعَك زيفُ القول

تزياً صورة إنسان

ترفع عنَّا جبهتك المثْقلة المهمومة

مذبوحًا بفتون العشْق

مقتولاً بسياج الحكمة

محمولا حيث تغيبُ شعاعة ضوء طافية فوق الماء

تُبحر في نهر الأحزان!

عابــرة

من أنـتِ؟ لا أدرى، ولا مـن دلـيل!

يا ومـضـــة تُعـشـى فـؤاد الـكـلـيل

ولـفـــحـــة توقظ فـى خـــاطـرى

كـوامن الـعـمـر الـقـصـيـر الجـمـيل

عــيناك فـى عُـمـقـيـهـمـا عــالم

خـصـب الـرؤى، عـاتٍ، حـفـىٌّ ظليل

تلقـــفنـى فـى بغـــتـــتـى نـظـرة

أدرك فـيـهـا وقـــع خـطـبٍ جـلــيل

كم حـــاورتنى صـــامـــتًا مُرغـمًا

يقـتلنى هذا اللسـان الخـجـول!

كم أقلقت فىَّ سكون الدمى

واقــتلعت منى الرضـــا بالقليل

وأغـمــدت فى خـافـقى نصلهــا

وافـرحـتى، إنى الطعين القـتـيل

مـا أهون العمـر: حصـادُ الصبـا

ولىّ، ووافـــانا الزمـــان البـخـــيل

وأهـون القـلب، تـفــــــور المنى

من حــوله، وهو الأســيف الملول

وأهـون الســاعـــات مـــخنوقــة

يملؤها ســافى الغــبـار المهــيل

وأهـون اللقــيـــا إذا أســمــحت

فليس من مــأوى ولا من ســبــيل

نظل منبـــوذين، يقــتـــاتنـا

لفح الفــراغ الموحش المســتطيل

لو تملك النفس حـــدود المنى

لو يعـرف القلب شـفـاء الغليل

إذن لطامنت الخطى، وانتـــهى

ومض ســـراب خـــادع لا ينيل

ولاســـتـــراحت فى بحـــار المدى

أشـــرعـــة مـــشـــدودة للرحـيل

من أنتِ يا نجـمـــا بعـيـد المدى

يســقـط فى قلبى كـعـبءٍ ثقـيلْ

عـبء يشـــد الـروح أنـى ســـرت

مـــرتجَّـــةً تحلم: أين المقـــيل؟

نصل رهيف الحـــد مـــسنونه

فى عـمق أعـمـاقى حثيثا يجول

لفح كـــعـــصـف الريح فى ذرّهِ

مـــا حُمِّلته كـاسـيـات الفـصـول

ســـرب من الأحـــلام مـــذعـورة

ولّـت وفـى الآثـــار منهـــا فلول

من لى بمن يشـــعل هـذا الدجـى

ويمـــلأ الـزيت ويرعى الفـتـيل؟

عـــاتيـــة الإيقـــاع: جُنٌّ اللظى

واستيقظ العمر الوشيكُ الأفول

من أنـتِ؟ لا أدرى، ولا من دليل!

غيبى إذن، في زحمة المستحيل!

صـــورة

تعالىْ..
فهذا زمانُ التقنّع،
عصر انتهاء البراءة
تعالىْ،
أكاذيبك المشتهاة، لمثلىَ زاد،
أفيضى،
أعيدى وزيدى،
ففى السمع متّسع ما يزال،

وفى القلب جرح يقطرٌ ماءه

وأنّى اتجهتُ

صداكِ المجلجلُ يزحم كلَّ الزوايا

يلاحق كلَّ الدروب،

يساقطُ فوق البرايا غطاءه

فينغمس النور فى الظلّ،

يختلط الصبح بالليل،

تصبحُ كلُّ المرايا .. حكايا

ويصبح سيين: تصديق ما تدّعين

وتكذيبُ ما تصّدُقين

فأنت عجيبة هذا الزمان

وهذا الزمان بكفّيك يوغلُ عبر التخوم الكئيبةِ،

عبرٌ النفوسِ الشحيحةِ،

عبر السنين الجديبة، يرجو شفاءه

تعالىْ

ففى العمر متسع للفضول

وفى النفس مستودع للإساءة!

* * *

ومثلكِ، مصّاصة للدماء!

تشكّلت من أى طينٍ

وأُلبستِ أَىَّ إعوجاجٍ

ووُسّدتِ أى وسادة!

يحارون فى هودج تخطرين

بطيّاته، عندما تعبرين،

تفوحين،

تلتمعين

وتتعطفين،

فليس لما تصنعين انتهاءٌ،

ولا للذى تشتهيه العيون زيادة!

وأَعجبُ

كيف احتيال خُطاكِ

وكيف العيون، كعينى، تراكِ

وكلُّ الأصابع، مثلى تشيرُ

وكلُّ الوشايات تنثال سُمّا!

وتنثال رجما..

ولكنهم سُلبوا فى هواك الإرادة!

وأَعجبُ

هل أنتِ كلُّ النساء؟

وهل أنت أصلُ البلاءِ؟

فمثلكِ أعطى الزمانَ فساده!

لغة
من دم العاشقين

بيت فوق شجرة

كانت شجرًا، ينمو فىَّ، وأنبتُ فيه
تلتفُّ الأغصان بروحى،
يفرخُ طيرٌ بين حنايا القلبِ،
ويورقُ عمرٌ،
يسقطُ ظلٌّ
تعشبُ أرضٌ، كانت عطشى،
كانت تقذفُنا للتّيه
هذا العمرُ المجدولُ نَما

يُنضجنا لفحُ الشمْس،

وتضفّرنا سنواتُ القحطِ،

ويترعنا نبْعُ السقْيا

نتشكلُ عبَر جذورٍ موغلةٍ،

نطلعُ فى ساقٍ واحدةٍ،

نتفاوحُ من أكمامِ الزهْـرُ

هزّى جذعًا،

إنّى أساقطُ،

إنَّا نساقطُ رطبًا وعناقيد

ميلى غصنًا،

إنّا حين تشابكت الأيدى،

وتشابكت الأيامُ،

تداخلت الرُّؤيا..

نهرًا يتفجرُ بالخِصب

وشمُوسًا تسطعُ فوق حقولِ القمح

ودروبًا تُفضى، لمسالكَ تُفضى، لمدىً يمتدّ

ومدائنَ تعلو..

لايدخلها إلا المختومون بوشْم الحبّ

كانت شجرًا ينمو فىّ وأنبتُ فيه

لانعرفُ منْ منّا الغصنُ؟

ومن منًّا الأوراقُ؟

ومن منّا الثمرة؟

تقطعُنا، لو تقصِفُ غُصنًنا

تنزعنا، لو تقطعُ جذْعا

تشربُنا،

لو ترشفُ قطرة طلٍّ ذابتْ فوق جبين الشجرة

فلماذا نخشى يومًا

أن تذبل هذى الأوراقُ؟

وأن ينكسر الغصنُ؟

وأن يرتحل الظلُّ وينأَى

والشجرةُ فينا مزدهِرة!

* * *

هذى خطواتى الأولى، تمرقُ فى الطين، وتوشك أن تتعثّرَ، أسقطُ، ثم أعاودُ، وجهى لايفصح عن هدف، ويداى معلّقتان بغصنٍ، آه.. مغلّلتان بوعد، يفلت منى، لاضيّرَ، تشبثتُ بآخرَ، عاودتُ الخطوَ، الطينُ يلاحقنى، الطينُ بيوتٌ وسراديب ووحشةُ ليلٍ متكئة.

وأنا فى الظلمة مشدودٌ، لمصير مجهولٍ أمضى، لنداءٍ ناءٍ يترددُ، لحقول تملأَ أنفاسِى بروائحَ ليلٍ يتوالد، أشباحٍ تُقمى فى المنعَطف وفى السّاحاتِ تراوغُ إذ تتمطّى، وهى تطول، تسدُّ الأفق، ويصبحُ حجمُ الخوف بحجم النّخْل، ولونُ الرعب بلوّنِ اللّيل، يشقُّ عُيونًا منطفئة!

أبحثُ عن مأوى يعصمنى

عن لونٍ أخضرَ يجذبنى

عن عُشٍ فى شجر الزيتونِ، أُلاصقُهُ ويُلاصِقنى

نتداخلُ، فالكونُ عِناقٌ..

نتناغَمُ، فالموسيقى هسْهسَةٌ تعْزفها الأوراق
نتواصلُ، فالدنيا - لا أبْهى -
والعمر الآمنُ - لا أحلى -
وترفُّ خُطاىَ المبتدئة!

* * *

الآنَ يدورُ العمرُ،
ويُفصِحُ عن دوْرته،
يفجؤنا عرىُ الأشجارِ،
ولون الخضرةِ شاحبةً،
ونضُوبُ الماء...
نتساندُ.. أَحْوجَ ماكنّا
نتلاصقُ، أبْعدَ ماصرْنا
وتغرَّبْنا
تُنكرنا عيْنُ الأرض،
وذاكرةُ الأسماءْ

فلمن أتَّجهُ؟ وتتَّجهينَ؟
وهذى الأرضُ تظلُّ تُلاحقنا حتى الموت
قدرًا مشدودًا، يُوغلُ فينا
لاتُخطئهُ العينُ، ولا يُخطئهُ القلبْ
والعمرُ رهانٌ.. أن نحْيا فيها،
نجعلَ منها زمنًا للحلم،
دُرُوبًا للذكرى،
وعْدًا للموت..
العمرُ رهانٌ،
أنْ نُنْبت فيها شجرًا ملتفًّا، لانُحْصيه
العمرُ رهانٌ، أن نجعلَ منها زمنًا
ومكانًا... لايقذِفنا للتّية
شجرًا يَحيا فينا، نحْيا فيه
شجرًا ينْبُتُ فينا.. وطَنًا!

جاء عصر الشتات

أُحبُّكِ
كلُّ الكلام مُعادٌ،
وكل الحكايا بلادٌ
سُجنت بداخلها،
واصطدمتُ بحاجز عزلتها
واغتربتُ وراء دهاليزها
واشتهيتُ زمانًا
له جرأةٌ وامتدادُ!

* * *

أحبُّكِ

واخَجَلى حين أهتفُ باسْمكِ

كلُّ النداءات لغوٌ تكرَّرْ

وصوتٌ قديمٌ تناسخه العابرون

وعُرسٌ تقلَّص ضوءُ الذبالة فيه

وعشَّش وجهُ السوادْ

فكيف أُوافيكِ فى سِجْنةِ الآخرين

وفى لُغةٍ من دمِ العاشقين

وهذا دمى فى شعاب البلاد

يسيلُ انتحارًا وعشقا

ويُومض فى جَلواتِ الشروق

وينسلُّ فى لغةٍ تتخلَّقُ عَبْرَ المنافى

وتمرُق من رحمِ القهْرِ

من قبضةِ الذكريات السجينةِ

من زخرفاتِ الطقوسِ العقيمةِ

تُفلت من أسنٍ فى الحلوقْ

وترمى بنا فى خضمٍّ ليالى الحِدادْ !

* * *

أحبُّكِ

كيف اصطخابُ الرياحِ

وكيف اعتناق الصباحِ

وكيف اشتباك الرماحِ

وكيف انخلاع القلوبِ

على ومضةٍ من ثنايا الشررْ

وكيف اندفاع الغريقِ

يُطلُّ على حافة الموجِ

يرفع رأسا

وينهارنَفَسا

ويثوى على صخرةٍ فى شعاب المضيق

تلاطمها دمدمات الرياح!

* * *

أحبُّكِ

ضاقت بساكنها الكلماتُ

فلم يعد البيتُ مأوى

ولا الحُلم ظلا

ولا الزمن المحتوينا مساحة

ولا الوعد متّكأً للحزانى

وقد جاءَ عصر الشتات

فهل تسعف الذكرياتُ

وحيدَيْن

يُثقل رأسيهما الأَسنُ المستعاد؟

وهل تسعف الصبواتُ،

نداءاتنِا،

حين يرتجُ خفّقُ الزناد

يدوسُ على لغتينا السلاحُ

فيخرس صوتُ الكلامِ المباحْ!

* * *

أحبُّكِ

مازال مُتسعٌ للوقوفِ

ومتسعٌ لاختيارِ الحتوف

ومأوى

لمن يؤثرونَ العراءَ

على لغةٍ فى ظلال الكهوف!

ومأوايَ أنتِ

تشعبت حول سواحلك العنبريةِ

جاوزتُ أحراش ليلكِ

تاخمتُ خلجانَ بحّركِ

كشّفْتُ أصدافكِ اللؤلؤيةَ

حلَّقت عبْرَ التخوم

وطوَّفت بالشعب المرمرية

ومازلت عبر السواحلِ

أرقبُ سيّلِ القوافلِ

أرتاد شِعْبَ المجاهلِ

أرجع بالتحف الموسمية

وأجتاز نحوك

كلَّ المسافات

أعبرُ كلَّ الصفوف!

* * *

أحبُّكِ

أصبحت الكلمات منافىً

واللغةُ المستعارةُ سجْنًا

وأقنعة الشعراء طلاسمْ

فكلُّ الكلامِ معادٌ

وكلُّ المنافى بلادٌ

وكلُّ الحشايا سهادٌ

فلا تَسْمعينى!!

الحب.. قرار

أجتازُ وجوهَ الناسِ، رخامَ الناسِ، إليكِ، وأصطدمُ

أخطو،

أتحسسُ دربًا

يمتدُّ، يباعدنى، ويُقرّبنى

أتلمَّسُ فيه مكانا وزمانا

مأوى،

نتلاصق فيه، ونقتسمُ

أقربَ ماكُنتِ،

وأبعدَ ماجازفتِ،

يظلّ العبءُ أنوء به وحدى

وينوءُ به جَلَدى

وندائى محْضُ صدًى

لايُمسك شيْئًا منكِ، ويُفْلتنى

فلمن أتجهُ؟

مداراتى تجفوها الشمسْ

ينطفىء على أبواب مشارفها النَّجْم

يتراكُم فيها الليلُ الجدْب

وخطاىَ تسوخُ،

ولكنى

أجتاز وجوهَ الناسِ، زحامَ الناسِ، إليْكِ، وأصطدمُ

وشعاعٌ منكِ،

ألاحقُه وأطاردهُ،

أَنْسى أنى شارفتُ تخومَ الرعبِ،

واقتحمُ،

فيضئُ القلبْ

يملؤنى زهوٌ

يملؤنُى أنى بهوانا متًّهمُ!

* * *

ها، أنتِ يُطل علىَّ، على أفقى..

الوجهُ المأنوس

تتفتتُ غيماتُ الحزنِ وترحلُ، لاترحلُ،

تحتجبُ وتنأى

تسَّاقطُ شجْوًا وتجوس

أستجمعُ ما أبقتهُ بكفّىَّ الأيامُ

وماغرسته بعينىَّ الأحلامُ

وأنثرهُ فى مقْدم موكبكِ المجلوّ

يرفُّ قطوفًا وفراديس

من ينزع من ذاكرة الليل زمانًا مثلَ الأسطورة؟

وشعاعيْنِ التقيا من بعد شتات الغربة والتطواف؟

وكما يعتنقُ النجم اعتنقا

وكما يحترقُ الجمر احترقا

وكما يختنق الورد اختنقا

غرقا فى ذوّبِ السّحرِ المرصود

ذابا فى مسرى الوجدِ،

وفى جَلوات العشقِ،

وفى وهج الأنفاسْ

غابا فى نشواتِ الحُلْم،

وفي فلك الأقمار المنسيّة

غابا عن كلِّ الدنيا، عن كلّ عيونِ الناس

فالليلُ ضفافٌ مشهودة

والعمرُ خيوطٌ معدودة

تفلتُ من أيدى الحرّاس!

* * *

يتشققُ منَّا الجلدُ،

ويصبحُ وجهُ الجلدِ أخاديد

عطشًا يتشققُ

يزدحمُ ركامُ العمرِ، العمر الموحشِ منكِ، تجاعيد

وغضونا تزحفُ، لاتشفق

حتى ينفجرَ بنا الوعدُ المأمولُ

وترتجًّ الصبواتُ،

ويدّفَعنا طوفانُ اللحظةِ... للمجهول

يتبدلُ وجهُ العالمِ،

وجهُ العالمِ ما أقساه!

نتعاهدُ ثانيةً

ألا نُخلفَ حلمًا

أو نقتل وعدًا

أو نُسّقطَ زمنًا

من غير أمانٍ عشناه..

نتعاهدُ: لايخذلُ واحدُنا صاحبَه

فالكون ملىء بالخِذلان

سيمرُّ كثيرًا هذا الوقت الفارغ منكِ،

وهذا الزمنُ المولع بالإنكار

وستعبرنا هذى اللحظاتُ المخنوقةُ فى التكرار

والظمأِ القاتل فى الصحراء

لكنا ندرك أنَّ زمانًا بعْدُ، زمانًا بعدُ، لنا

نتوقفُ فيهِ، نُريحُ لُهاثَ العمر

ونُحدقُ فيه، فيبهرنا أنا أحياء

نمتلكُ الحلم، وأن نحلم

نملك أن نبنى أو نهدم

زمنًا..

لايجرفنا فيه التيار

نتدافع من فوق الموج،

ونقفز من فوق الأسوار

ونادى:

ياأحبابَ الأرض ويا أبناء التيه

الحبُّ دثارٌ

الحبُّ شعار

الحبُّ قرار!

يحدث أنْ

يحدُث أنْ نتلاقى ذات صباحٍ أو ذاتَ مساء
نتوهم أنّا، مثْلُ الناس،
لنا بيتٌ وغطاء
وزمانٌ نبحرُ فيه،
وتُقلع فيهِ الأيامُ الصّدئة
والروحُ المنخوبة بالإعياء
ومرافئُ نرتاح إليها،
ونرصُّ العمّرَ المكدود

نقتحمُ زحامَ الأرصفةِ المهترئة

وضجيجَ المدنِ المسعورة

نتوهم أن مكانا يشملنا .. يغدو كُلَّ العالم

ونداءً يجمعنا .. يصبحُ كلَّ الأنغامِ، وكلَّ الأجراس

وطريقًا يمتدُّ ويفضى

لاسِفْلَة فيه ولا حراس

يتخطفنا حُلْمٌ مجلُوّ

تتشابك أيدينا،

تتلاصق فرحتنا الممرورة

ونُحلّق فوق مدينتنا

ونطلُّ وراء نوافذها المنطفئة

ثَمّةَ مأوى..

دفءٌ يفترشُ الجدرانَ ويُقعى فى الأركان

ثَّمة أبخرةٌ،

أنفاسٌ حرَّى متكئة

وسعارٌ ضارٍ.. مزهوّ
يفترس شعابًا تتلوى
فنعودُ برؤيا... منكفئة
تتلمّسُ أعراسَ الأضواء!

* * *

يحدثُ أنْ نتصادمَ فى سجن الظلمة
يقفز كلٌّ منا مرتاعا فى وجه الآخر
وكأنْ أصبحنا، لاندرى كَيفَ! نقيضينِ، وشتيتينِ
اللغةُ اختلطتْ،
والعينُ انطفأَتْ
والشوقُ المكتوم انحلَّ
وصار الوهجُ الدّامى.. ماءَ
ساعتَها،
يدركُ كلٌّ منَّا عمق الخيبة
ويُحدّقُ كلٌّ منا فى وجه الزمن القادم

تَلُفُّنا رعدةُ يومٍ عاتٍ مجهول
وفُجاءةُ موتٍ محتوم
ونهايةُ حلمٍ يتهاوى فى قلب اللُّجّةِ أشلاءَ
ونظن بأن الكونَ مؤامرةٌ،
والشارعَ مذبحةٌ،
والعُرىَ الفاضح مقتلنا، وخطيئتنا!
فلنطرق جَوْعَى غرباءَ
ولنحمل مِلءَ حقائبنا زادًا مسمومًا، وبغيضًا
ولنلعن - ملْءَ حناجرنا - كوْنًا متسخًا ومريضًا
ولنطلق فى كلٍّ مخاضة
طلقاتِ الثأر المحمومة
تجتاحُ الأيامَ الجهمة
تقتلعُ مسوخ الظلّ
انتصبوا فى قلبِ الميدان
واقتلعوا العيْنَ المبهورة

فلعلَّ الكون ـ بأعينهم ـ يمتدُّ فسيحًا وعريضًا!
هانحن نُبادرهم بسياط اللعنة،
تتصبُّ جحيمًا كالبركان
نخرجُ من بين مسامِّ الجلدِ،
ومن شهقاتِ النفْس،
ومن صرخاتِ الرؤيَا المذعورة
نتلمسُ، بعدُ، يقينًا كانَ،
وحلمًا كان،
وعُمرًا غضًا مختَلَسا
من قبضة قضبانِ السّجان
وتعودُ، فتلتمعُ الصورة!

خطـوط فـى اللـوح

(أ) رباعيـات:

بيْنَ وقْعِ الظلِّ، والظلِّ، يميلْ
رأسهُ الغاربُ فى كلِّ اتجاه
والدمُ القانى على الأفق يسيلْ
مُعلنًا بالموت، ميلادِ حياة

* * *

طائرٌ حطَّ على الغصن وطار
حاملاً فى صدره سرَّ الرحيل

ماله يبحث عن وجه نهار

يُرجع الحُلْمَ إلى العمرِ الجميلْ

* * *

الجناحان يرفّانِ.. فيعلو

والجناحان يُسفَّانِ.. فيدنو

روضهُ الهامدُ إجدابٌ ومَحْلُ

والمدى حوليْهِ إيحاشٌ وسجنُ

* * *

يقطعُ العُمْرَ، ويجتازُ الوهادْ

حائرًا بين صعودٍ وهبوط

رأسهُ الطائرُ ملقًى فى البلادْ

ويداهُ فى شعابِ الأخطبوطْ

* * *

ذاتَ يومٍ قادمٍ سوف يجيءْ

باعثًا فى كونه سرًّ الخلودْ

روحُه تنبضُ بالحُلم الجرىء
وخُطاه تكتسى معْنى الوجود!

(ب) الشَّرَك:

تجيئين فجأةً
تغيبين فجأة
وقبْلَ المجىء المفاجئ
وبعدَ الرحيلِ المناوئ
تظلينَ فى القلب توْقًا إلى ظلٍّ هدْأة
وجُوعا لحضْن المرافئ
متى أيها الوجهُ تسفرُ عن وجْهتك؟
متى يستريحُ المسافرُ من دورانِ الغبار
ومن وخَزَاتِ الليالى
وجَدْبِ النهار
ومن شَرَكٍ كامنٍ فى المدار؟
يلفُّ خُيوطَ الأمانى بأعناقنا

فتقتلُنا مرَّتين:

فيوْمًا

لأنّا حلُمْنَا بها، وانتظرنا

ويوْمًا

لأنّا خُدعْنا بها، واغترينا

وما ثَمَّ شاطئ!

* * *

متى يا أنيسِ الزمانِ الجميلِ،

الزمان البخيلِ،

الزمانِ الذى فى الحنايا.. تعود؟

متى، من جديدٍ، يُراوغنا ظلُّكَ المستطيل

فيُلْقى عليْنَا عباءته،

ونغوصُ،

يُعاودنا وعدُكَ المستحيلْ

وننزعُ من فوْق جدراننا

وجْهَ هذا الوجودِ الثقيلْ

وتحملُنا موجةٌ فى البعيد

لنجمٍ على الأفق يحبو

وخطٍّ على اللّوحِ بادىء

مــد البحــر

(أ) كلمات متقاطعة:

جثم الحزنُ على كلٍّ البيوتْ
وتدلَّى من خيوط العنكبوت
وجهُ إنسانٍ،
تُغشّيهِ ارتعاشاتٌ ورعب وابتهالْ
وبعينيه سؤالْ،
جاحظٌ، يهتزُّ فى يأس صموتْ:
ما الذى أَلْوَى بأعناقِ الرجال؟

وأحال الألَق الكامَن فى وجْه العيون

سُحبًا تُمطرُ أحزانًا

وتثوى فى الرمال؟

وتدلَّى.. فدَنا

عارىَ الصدْر.. مُسجَّى

وحواليْه زحامُ الناسِ..

يمضى ويفوتْ

لم تلاحقْ سمْتَهُ عيْنٌ،

ولا اهتزَّ فُضولْ

صوت:

مالنا والشارعَ الصاخبَ!

سارعْ باجتيازِ الوقت مابين رصيفٍ ورصيفْ

واعبر الخلْقَ، فما ثَمَّ مكانٌ

أو زمانٌ لانتظارٍ وعُكوف!

صوت آخر:

يسقط الناسُ،

يقوم الناسُ،

يحيوْنَ، يموتونَ

يجيئون، يروحونَ

غيابٌ وقُفول..

والتزامٌ وعدول..

لا التفاتٌ للذى يجرى

ولا نُبصر إلا مايرى المدلجُ فى ليْل الكهوف

لا، ولا تشغلُنا حتى الحتوف!

صوت أخير:

جثم الحزنُ على كل البيوت

وتدلَّى من خيوط العنكبوت

وجهُ إنسانٍ صموت

وجهُ إنسانٍ يموت!

(ب)ساعديني:

هجَمتْ من كلِّ صوبٍ دمدماتُ العاصفة

والربيعُ الكاذبَ الوجهِ، تعرَّى عن رمالٍ سافيات

وتداعى المجهدون

كلّهُم يحملُ أيامًا وأعباءً ثقالا

ومرايا كاشفة

شقّقتْها أوجهٌ نافذة السهم،

وداستها قلوبٌ واجفة

المدى لايتكشفْ

والأمانى تتقصّف

ويدُ الإعصارِ تمتدُّ وتذرو

كلَّ مافوْقَ الرمالْ

من قصور زائفة!

ساعدينى

وامنحينى من عطاياك.. الذى يُمسك نفسى

ويردُّ النور للعين،

شعاعًا، ووعودًا جارفة!

لست أشكوكِ إلى شيخ القبيلة

لا، ولا أدعوكِ للثأرِ،

ولا أرجوكِ لليوم الذى يفجؤنا من غيِّرِ حيلة!

نحن مطعونانِ، والسهمُ بقلبينا مُدمّى

فاركضى فى الساح ياخيل الهموم

واقْدحى - فى ليلنِا المغلولِ فى سودِ الرؤى -

برْقَ السنابك

واهبطى كالرعد،

فالقوم المرجَّوْنَ نيامٌ

وانظرى:

خلف الخوانِ الضخم أيتامٌ

وفى الباحةِ أضياف لئامٌ

ومع الخيْمةِ أشباحٌ هزيلة!

ساعدينى.. كى أراكِ

نحن فى وجه ليالى الرّعبِ نَسّاقطُ،

فى قلب الشراكْ

كوّةٌ واحدةٌ تكفى كلينا

إن ثقبْناها نجوْنا

واشتعلنا كالبروق الخاطفة

ساعدينى

ها أنا أخطو،

فتتحلُّ غيومُ الكونِ،

تسّاقط من فيك رضابا وغضب

ها أنا أدنو،

فينداح اتساع العمر،

حلما، وشبابا ولهب

الربيع الكاذب الوجه تعرّى

فلماذا نتوارى

خلف أوراق الشجيرات العليلة
بعدما اهتزّت إلينا آسفة؟
ها أنا أدنو
وفجر كاذب يمضى
وبعد الفجر تدنو الراجفة
ساعدينى..
إن ينبوعًا من الأسرار لايكفى
وطوفانًا من الأشواق لايشفى
ومدّ البحر لايروى نفوسًا تالفة!

ملامح

يهبطُ حيثُ لاتراه عيْن

مُشتبكًا مع الخطى الوئيدة المباعدة

ونائحًا.. مع المطرْ

منُسربا فى عطش الرمال، والظلال

تسأله حين يغيبُ: أين؟

لكنه، لاصوتَ.. لا أثَرْ

وتسكن الرياحُ فى المفاوز المعاندة

* * *

من موقعى أرتقب الشروق
يدى على نافذة النهار
وجبهتى إلى جدار
وخُطوتى تغوص فى الشقوق
حَلْقى يَغصُّ بالطعومِ والروائح
والنار فى ملامحى تئزّ
والغدُ لاتشى به البروق!

* * *

سألْتِ عن مفتاحِ هذه المدينة
حتى يمرَّ الهودجُ الجليلُ فى أمان
وتهجعى إلى مكان
ينأى عن الممالك الملعونةِ القُفول
ترجَّلى..
هذا الذى يهبطُ لاتراه عين
منتظرٌ بالباب.. يطلبُ المثول!

شاعر الحراب المدبّبة

كانت حرابُكَ الطويلةُ المدبّبة
تجعلنى على مسافةٍ منْكَ،
فلا أُعاينُ الذى حويْتَ من جمال
وكان وخزُك العنيفُ حين تستهلُّ صولتك
مفتتنًا بزهوةِ النّزالِ والمبارزة
يتركنى منْكَ على انتظار
للحظةٍ، يعودُ فيها صفوُك المسكوبُ فى الرجال

* هذه القصيدة والقصيدة التالية في وداع الشاعر أمل دنقل.

ينكشفُ الوجهُ الغضوبُ عن فُجاءةِ الفَرحْ
والجسد النحيلُ بالودادِ يختلج
يموجُ فى الضلوع صدرك الوريف بالظلال
مُؤانسًا وحانيا
ويصبحُ القلب العصىُّ، فى رَحابةِ الدنيا
وفى تدفقِ البحار
كنوزةً مذخورةً لكل من عرفْت
شعابهُ طيّعةً لكلِّ من حَملْت
رحابهُ سقيفةً وبَيت
لكلِّ من صحبْت فى ممالك الليلِ،
وفى أقبيةِ النهار!

* * *

نتحلّقُ حوّلكَ،
نشهدُ كيف تذوبُ، وينطفئُ النجمُ الموعودْ
تتفلّتُ من بين أصابعنا

نَفَسًا، نفسا

تتسرّبُ من بين شواغلنا

قبَسًا، قبسا

نرتاعُ ويصدمنا الهولُ المرصود

نبتعدُ، فيطوينا دورانُ اليومِ، وننسى

حتى يرُجعنا التطوافُ إليكَ

ونُقعى حوْلكَ،

تتأملنا، وتُصنّفنا

تقرأ فينا جيشان الدمع المخبوءِ،

تطالعُ فينا زلزلة السَّمتِ المهزوم

تمتدُّ يداك، لتأخذ أنت بأيدينا وتُكفكفَنا

نتهرّب من عيْنيكَ، ولكنّ صمتُك يفضحُنا

تنهارُ سدودُ ملامحنا

ينتفض الوجُه المُعَتَصرُ المحموم

ينتفضُ الصوتُ المشروخ المكتوم

يتنفض الجسدُ المهدود المسموم
تنقضُّ عنيفًا كالنسر
فى ومْضة شِعر
تتحدّى كلّ عذاب القهر
وتفاجئنا
أنك - فى وجهِ البابِ المسدود -
أقوى منّا
نخجلُ، ونقوم!

* * *

فى زمنٍ يعلنُ عن حاجتِه لكبرياء
يخرجُ فيه السفهاءُ من جحورهم
والأدعياءُ من شقوقهم
ويعتلى المخادعون كلَّ موكبٍ وساحة
ليملأوا الدنيا، ويزحموا الفضاء
فى زمن ملوكُه السُّوقةُ والطَّغام

وناصحوهُ أغبياء

يلبس فيه السّفْلَة العُصاةُ، واللّصوص

مُسوحَ أنبياء

ينداح صوتُكَ الجسورُ واخزًا، وصاعقا

مُحذرًا من هجّمة الوباء

ومن غدٍ يطبقُ فوْقَنا، ويحجبُ السماء

يموجُ فى صواعق البلاء

ويصبحُ الأعداءُ فيه أصدقاء!

يندّاحُ صوتك الجسورُ واخزًا، وصاعقًا

يُطلق فى كلِّ اتجاه

رصاصةُ الخبئَ فى قصائد الهجاء

لعصرنا المفروش بالوحولِ والألغام

للقابعينَ فى قرارِ الجُبِّ كالنيام

والعاجزينَ عن بلوغ قامتك

لأنهم أقزام

والباحثينَ فى بلاغةِ الكلام عن عزاء
وفى أكاذيب الطُّغاة عن طعام
واخترْتَ أن تكونَ،
- حيث ينبغى لصوتكَ الفريد أن يكون -
كتيبةَ الصُّدامِ والإِقدام!

* * *

فى زمنٍ يحمل عارنا ووجهنا القبيح
لما سقطْنا فى شباك القهر
وانبهمت أمامَنا المسالك
وظنّ أعداءُ الحياة أن صوتنا الحبيس لن يبوح
وأنَّ عطرك النبيلَ لن يفوح
منطلقًا خلْفَ سياجِ الأسْر
نرفُع من رؤوسنا الغرقى، ونستديرُ
باحثينَ عن شُعاعةٍ منْكَ، وعن إشارة
تردُّنا إلى اتجاهنا الصحيح

من قبل أن نصيرَ قَبْضَ ريح
ترحلُ أنت غاربًا
مُندفعًا إلى الثرى البعيد فى صعيد مصر
مُضمَّخًا بما نزفْتَهُ من حكمةٍ وشعر
وما اختزنْتَهُ من شُعلةٍ وجمر
وما اعتصمْتَ فيه من إباء!
لاتلتفتْ حوليْكَ، ليس ثَمَّ من أحد
الكونُ كلُّهُ فسد
وأصبح المُهرِّجونَ... شعراء!

قطـار الجنـوب

فى عيونِ المحطَّاتِ يرقُد بوْحُ انتظارٍ
ويُقلعُ بَرقُ انخطافْ
تستطيلُ المسافةُ بين المودِّعِ والمترجّلِ،
بين المغامرِ والمتوجّسِ،
بين الشجاعِ المحاذرِ والغرِّ.. ذاك الذى لايخاف
والصبايا افترشْنَ المساءَ،
وأشعلن أشواقَهنّ دخانًا صعد
جئْنَ، هيّأْنَ كنْزَ الصدورِ الخبىءَ،

لحلمٍ جرىءٍ تدثرْنه،

ولوعدٍ تنظَّرْنهُ،

وليالٍ مُجهزةٍ للقِطاف

ياقطارَ الجنوبِ المسافرَ، مخترقًا صبواتِ المدى،

طائرًا بالرَّشَدْ

لا الوجوهُ الحبيبةُ عادتْ،

ولا الشوقُ منطفئٌ فى عيون البلد

الصبايا احتشدنَ،

انتظرْنَ،

انطفأْنَ،

وأوشكْنَ يبكينَ،

أوشكْنَ يرحلْنَ،

مازال خيطٌ رفيعٌ

وصبرٌ وجيعٌ

ودائرةٌ من شعاع بعيدٍ،

يُلوّحُ فيها ولدٌ!

* * *

أمهُ ودعتهُ،

انحنت فوقهُ، جذعَ صبارةٍ

ضمةً للذى.. هل تراهُ يعودُ؟

وهل يسعفُ العمرُ؟

وانداح ليلُ السفرْ

وانحنت خلفه شجراتٌ تعودنَ أن يستمعْنَ حكاياتِه

وهو ينشدها للقمر

وتعثَّر جدولُ ماءٍ،

تمنَّى يلاحقهُ

ـ كان يمرحُ فيه ويَشْغَبُ منذُ الصِّغر ـ

ياقطارَ الجنوب تمهلْ

فهذا صغيرُك مندفعٌ للمصيرِ الذى ينتظر!

صفرةٌ فى الجبينِ،

دمعٌ بعينيهِ،

والصوتُ لايسعفُ الآنَ،

يامُهجةً.. لاتَقرّ

يستديرُ الزمانُ،

ويسّاقطُ العمرُ

راحت تغيمُ الوجوهُ القديمةُ

ترحلُ شيئًا فشيئًا إلى الظلّ

تبحرُ حتى ضفاف النهرْ

ويغيمُ القمر..

ـ مرَّةً.. لو يعود؟

ـ فيم هذا التساؤلُ ياأمُّ،

ياعبقَ الأرضِ،

ياغابةَ النخْلِ

ياشجرَ السنديانِ،

وياموطئًا للخطى سار فيه الفتى مُذ وُلد

ياقطارَ الجنوب اتَّئِدْ

إن وجه الفتى يتشكلُ

قلبِ الفتى يتبدّلُ،

لونَ الفتى يتحولّ،

ياأمُّ

أخشى عليك اللقاءَ الذى لن يفيدَ

النداءَ الذى لايُردُّ

فأنسى للسكونِ،

المسافةُ حلمٌ، ووجه الليالى بَددْ

والطريقُ الذى سار فيه الفتى..

لم يعدْ منه يومًا أحد!

* * *

عارىَ الصدرِ لم تخفض الرأسَ،

أو تتحسّسْ مكانًا لخطو القدمْ
والسهامُ التى تصطفيك وتمرقُ حوليكَ
سهمان: سهمُ الصحابِ، وسهمُ انكسار القَلَم
والهمومُ التى تحتويك سمومٌ تصبّتكَ،
واقتنصتْ فيك مُتكأ للعدم
عارىَ الصدرِ، مستقبلاً للعواصف،
مشتعلاً كالحمم
نازفًا، نازفًا
والدماءُ التى كم تسيل، وتترك فى الأرض آثارَها،
تتجمعُ ثانيةً،
فيعاودك الصحو،
وهمُ الأمانِ،
وينسيك وجهُ الحياةِ انتصار الظلم
واندلاع الألم
نازفًا، نازفًا

والتحدى: كلام له رهبةُ الموتِ،
وقْعُ اختراقِ الحرابِ،
تُلقّنهُ للملأ
الكلامُ الذى حملتهُ الرياحُ
تناثر عبرَ السهولِ، وعبرَ البطاحِ،
وطوّف فى كل أرضٍ، وفم
حين أغفيت، كان الفؤاد الذى كم تفتت،
كان الإناءُ الذى فاض لما امتلأ
والشعاع الذى قهرتهُ الطعانُ
تسرَّبَ مُنطفئًا،
وابتعد!

* * *

يا قطار الجنوبِ الذى حين يصفرُ،
يمتدُّ فينا النشيج
فورانُ الدموعِ الحبيسةِ فى القلْبِ يصعد

فإذا فى العيون المطلةِ، تلك السحابةُ تغشَى العيونَ
ولاتتبدَّد
ها أوانُ التماسكِ،
إنا كبْرنا،
ويفضحنا الدمعُ،
يخذلنا الوجدُ
لكّننا نتجلّدْ..
ما الذى حين تصفرُ
ينخلع القلبُ منا
ونهوِى نعانقُ فى الأرضِ وجّهَ حبيبٍ مُوسّد
ما الذى حين تُقبلُ،
يملؤنا بانتظارٍ ثقيلٍ،
لو همٍ قديمٍ تجدّد؟
ما الذى حين تُبعدُ
يقذفنا للضياع

ويتركنا للشّجى.. والتوحُّد؟

فورانُ الدموعِ الحبيسة فى القلب يصعد

جيشانُ الهمومِ الخبيئةِ فى الكون يمتدّ

ياقطّار الجنوبِ المسافَر عَبْرَ القلوب اتئد

يا قطار الجنوب اتئد..

الغــزاة

يا أحبّاى، وقد طال الزمنْ
ما الذى يبقى لنا غيرُ شجَنْ؟
وحديثٌ لحديثٍ ينتهى
ولقاءٌ بلقاءٍ مُرتهن
صوّح العمرُ، وصِرْنا بَددًا
نتوارى فى تجاعيد المحنْ
فتلفتّنا إلى أترابنا
وبأيدينا حصادٌ من حزَنْ

وتَناديْنا، فلم نلقَ سوى

هتفةِ الريح، وترجيع الدِّمنْ

فنٌّ عشنا عليه زمنًا

هرِمَ الصوتُ، وماشاخَ الفنن

حسبُنا زهوة أيامِ الصِّبا

ورؤى العمرِ الذى كم يُمتحن

كلَّما ارتدت إلينا ذِكرٌ

سكن القلبُ إليها، واطمأنّ

مسرحٌ يُطوى، ويُطوى سامرٌ

وهوى النفس بقايا من فتنْ!

* * *

زمنٌ يسرقُ منّا عطر الأحبابْ

يتخطّفهُم وجهًا وجها

نتلفتُ لانلقى منهم أحدا

نتناثرُ أشلاءً من عمرٍ كان،

وصفو كان،

وخطْو كان لنا

أضحى بددًا

فالعمر سدى

وبقلب أزقّتنا يُقعى وجهُ الظلمة

يترصدُنا ويداهمنا

نتساندُ،

يشكو الواحدُ منا لأخيه،

ويخشى.. لا يلقاه غدا!

وتُلاحقنا عجلاتُ الليل،

وقاطرةُ الأحزان الجهمة

نتخفّى فى السّاحاتِ،

وبين شِعابِ المنعطفاتِ الخلفية

ونظنٌّ بأنا أفلتنا

هيهاتَ، فلم نفلت أبدا

ولأىِّ مدى!

* * *

يا أحبّاىَ، ولم أسعدكمو
بحديثٍ تتصبَّاهُ الأذنْ
هذه حالىَ فى صُحبتكم
كبدٌ حرَّى، وموتٌ مُختزن
ونداءاتٌ تُدوّى حولنا
برحيلٍ عن وجودٍ قد أسِن
أنا إن لم أفتح القلب لكم
وأعزِّ النفْسَ حُبًّا، فلمنْ؟
مدُنُ الحلمِ تتاءتْ فى المدى
فمتى نضحى غزاةً.. للمدن!

مضحك الملك

الملْكُ لك..

الملك لك..

فكلُّ ماتقوله صواب

وحكمةٌ لم يحوها كتابْ

وينحنى المسامر الأنيسْ

وبهجةُ الندىّ والجليسْ

والحافظُ الأسرارِ والأخبار والحكايا

يخرجها من كُمّهِ النَّفيس:

«ياسيدى

ما أجْملَك!

ما أعدلك!

لولاك مادار الفَلكْ

ولانتهى التاريخُ من بلادنا، بلا جدال

ألستَ أشجعَ الرجال!

والطاهرَ النقىَّ فى مهابةِ الملَكْ!»

وينتشى المَلِك

منتفخَ الأوداج كثَّ الحاجبينْ

محدقًا إلى البعيد

مُصطنعا تكشيرةً أو اندهاشة

أو راسمًا على الجبين سِحْنة الملائكة

وعندما يهمّ بالكلام

يسَّاقطُ الحديث من فمه

فرقعةً تذوب فى الصدى

يظنُّها العقولَ تستمع

وأنَّها القلوبُ تتخلع

لأنَّ شيئًا قادمًا كأنه الرّدى..

وضاع ظنُّه سُدَى

فقد تمخّض الزئيرُ عن هشاشة

ويسقطُ المسامرُ الأنيسُ بينَ بينَ

يحارُ كيف يبتدئ

أو يشبكُ الكلامَ من جديد:

«ياسيدى

الملك لك

لم يقدروكَ قدرَك العظيم

ولم تطلْ قاماتُهم ليبصروا

ما أبصرتْ عيناكَ من خبىء

وليس فيهم حيلتك

ومكركَ المراوغُ المداورْ

كأنه نسيم

حين تصوغُ من عجائبِ القرارِ فعْلَك الجرىء

وسعْيَك المبارك البرىء

مستلهمًا شمائل الرسول

ونفحةَ الملَك»

* * *

يجتمع الصغارُ حول تحفةِ المسامر الأنيس

يُسمعهم ما دارَ فى مجالسِ السَّمر

مطاطئين فى ذهول

محدّقين فى العجائب التى يقول

وفى الغرائب التى لم يحوِها كتاب:

«نشهدُ أنَّك المقرّب الأثير

والصاحبُ الخطير

وأنَّنا بين أصابعك

تملكُنا، كيف تشاء

فيستحيل شاعر الربابة

فى سمْتهِ المنفوخ

ربَّما يجالس الممسوخ

والقامةُ التى اعتادَتْ صنوفَ الانحناء

انتصبت فارعةً تهتزُّ كبرياء

وتستدير فى شموخ

لتمنْحَ الصغار لفتةً أو لفتتين

وينتهى الكلام

تسكتهم إشارةٌ من اليدين

أو نظرةٌ بطرْف عين

ويزحف الصغار ظامئين للمزيد

ماضرَّ أن يكونوا تابعينَ للتبيع

فليُحسنوا الصنيع

لعلَّ فى عطائه مايشملُ الجميع

وليهتفوا،

وليطلقوا البخورَ والأشعار
أليس سيِّدَ السمّار
والواحدَ المعدودَ فى غرائب الأسفار
والآمرَ المطاعَ فى بوَّابةِ الرجاء
فمن يلامسْ حَوْضةُ ملكْ
ومن يُخالف وردهُ هلكْ
ومن تزغْ عيناهُ ساعةَ اللقاء
أغرقه التيّار!

* * *

الآن يخرجُ المذعورُ من مكامنه
مفُتِّشًا عن وجهةٍ أخرى، وعن سماء
تُظلُّه من غضبة البشر
ومن شماتةِ الذين عاينوهُ فى الرَّغام
قولوا له - إذا لقيتموهُ هائمًا بلا دليل
فلم يزلْ يعيشُ فى غيابةِ الحَلَكْ

مُنتشيًا بجهله العظيم
وسرِّهِ المجرَّبِ القديم
وقفزهِ من غايةٍ لغايةٍ
وفنهِ فى لعبة الكلام - :
«أفقْ..
فإن من ظننتَهُ الملك
قد كان يومًا، مضحكَ الملك
فهل وعيّت مقتلك!»

الليـل .. والمشانق

تململَ ليلُ الخنادق

وأعوَلَ صمتُ البنادق

وطاشت رصاصات من صوبوا

بكلّ اتجاه

ومازال وجهُ الحياةِ

قبيحًا

وعمرُ الطغاةِ

فسيحًا

وفى آخرِ الليلِ
يقبعُ وجهُ المشانق!

* * *

تموجُ المدينة بالقهرِ،
تُخرجُ أحشاءَها،
تجوعُ،
فتأكلُ أبناءَها
وتُقعى
ليعبرَ من فوقها الفاتحون
يراودها الصّحوُ،
ترفعُ رأسًا
وتُطلق همسا
تلاحقها عربداتُ الغزاة
وتسقطُ تحتَ صهيل الطغاة
تُلاحقها طعناتُ السنابكِ

تخورُ المدينةُ،
تلفظُ أنفاسَها فى سكون
ويندَاحُ فى الأفقِ لحنٌ حزين
يُغنّيه - فى الظلمة - العابرون
تموجُ المدينة بالعهرِ،
تكشفُ سوءتَها للعيون
وتخرجُ عاريةً،
تتناثُر - حيث تسيرُ - الظنون
وتبدعُ..
هذا زمانُ التثنىّ
وهذا أوانُ التغنّى
وعصرُ جميعِ الفنون
وتبدعُ..
قبل انطفاءِ الشعاع
وإيقاعُها صرخاتُ الجياع

تدمدمُ، عارمةً، لاتبين

وتبدعُ..

تهتزُّ مثلَ الجوارى

توغَّل فيها خيال العبيد

يسيلُ لعابهمو من بعيد

ويضرَى سعارهُمو بالمزيد

وتجحظُ أعينهمُ فى جنون

ويملكها - آخر الليلة - المتخمون!

* * *

وكيف تنامُ؟

وكفّك فوق الزنادِ،

ورأسك مشتعلٌ بالحريق

تشعَّب سيلُ الفصائلْ

وحان شتاتُ القبائل

فكلٌّ بوادٍ

وكلٌّ ينادى
وكلٌّ لغايته فى طريقْ
فكيف الأكفُّ الشتيتةُ تهتزُّ كفّا
وكيف الصفوف البديدةُ ترتجُّ صفّا
وكيف تنامُ؟
وأنت الرفيقُ تحاذر خطوَ الرفيق
وهجّسَ الشقيقْ
وحارسُك المرتجَى.. لايفيق
وماعدتَ تدرى
وسيلُ الرصاص بكلّ اتجاه
أياتيك من خائنٍ.. أو صديق!
وكيف تنامُ؟
وكل الهمومِ وسادٌ
وكلّ الحشايا سهادٌ
وكفُّك فوق الزنادِ

مُصوّبةٌ وحدهَا للمضيق!

* * *

يظلُّ الطغاةُ طغاةً..

لأنا نُطيل لهم فى الحياة

ونلعقُ أقدامهم بالجباه

وندعو لهم فى الصلاة

وحين يُدوى النفير

نطيرُ خفافا

ونعدو ارتجافا

ونصبح نحن الضحايا.. ونحن الجناة!

يظلّ الطغاةُ طغاةً،

ونحسبُ أنَّ الزمانَ الولودَ عقيم

وأنّ البلاءَ مقيم

وأنا صغارٌ..

تُضعضنا قسوةُ التجربة

فتفجؤنا ـ حين نُغفى ـ الزلازل
وتوقُظنا دمدماتُ القنابل
مصوّبةً فى الصميم
فيسقط وجهُ الظلامِ الدميم!

كلاسيكية

هذى طريقى، وهذا منتهى أمدى
وأنتِ أمسى، فلا تستمسكى بغدى
وقفتُ عُمرى على وهم ظفرتُ بِهِ
والآن ياوهمُ ما أبقيتَ ملءَ يدى
وقفتُ صحوى على أفْق طلعتِ بهِ
شعاعَ مستدفئٍ يدنو لمرتعد
وقفتُ خطوى على دربٍ به اشتجرتْ
هوجُ الرياح وعضَّ القيدُ فى جَلَدِى

وصـوَّحتْ لحظاتٌ كنت أحسـبُها
زادًا وريًا لمخـذولِ المتـاعِ صـدى
كـانت جناحينِ من نعمىَ ومـرحمةٍ
ومن تمازجِ أرواحٍ ومـعـتـقـدِ
رفيفُ أنفاسِها أنفاسُ عـافيـتى
وبردُ أندائهـا ينسـابُ فى كـبـدى
أطبقتُ عينىَّ، يارؤيا بهـا اكتملت
مـلامحُ الأبدِ الغـافى... بلا أبدِ
حـتى صحـوتُ على دنيـا بلا أفق
ولا شـعـابٍ، ولأفـجْرٍ ولا عـمـدِ
تزاحمتْ فيكِ أضدادُ الحياةِ، فلا
نجـاةَ من صـدمـات القـهْر والعُقَدِ
وأفـرخَتْ فيكِ أوهامُ الطريقَ، فلم
تدْنُ السبـيلُ لنائى العيشِ مفـتقدِ
توقَّف الزمنُ العـاتى، وخلّفـنى
طريحَ حُلمٍ، بعـيـد المنتـأَى بددِ
هذا صهيلُ الليـالى فى محـابِسها
وتلك حـمـحـمـةُ الأيامِ فى الوتدِ

وأنتِ أسطورةٌ فى اليمِّ غـارقـةٌ
تشى بها فورةُ الأمواجِ بالزَّبدِ
ورشفةٌ من شراب سائغ عذُبتْ
تناقلتْهـا يدُ الأقداحِ كالرصدِ
لاتتبعينى، كفانى خطوُ مبتئس
أو تسبقينى، كفانى نأىُ مبتعدِ
كان الزحامُ يداوينى ويغرقنى
فصارَ بعضَ عزائى صمتُ منفردِ
لم يبق من غايتى وعدٌ يُعللنى
ومن سراب الرؤى كشفٌ لمجتهدِ
اليوم أحكمتِ الأفلاكِ دورتَها
هيهاتَ يرجعُ عمرٌ بالحنانِ ندى
ياويلتاه وظلُّ العمر مرتعشٌ
والكونُ خال، وما فى البعدِ من أحدِ
إنّى دفنتُكِ فى نفسى وفى خَلَدى
إنى بعثّتُكِ فى رُوحى وفى جسدى!

رومانتيكية

من أىِّ البحريْنِ أخاف؟

البحرِ الممتدِّ أمامى

أم بحرٍ يغرقُ فى عينيكِ

مرتجٍّ الموجة والإعصار

لا شاطئَ فيه.. ولا مجداف!

* * *

شارفتُ اليمَّ، ولم أغرقْ

وقبستُ النارَ، ولم أُحرقْ

وعزفتُ لحونًا من ظمأٍ
ودققتُ على الباب المغلقْ
ورجعتُ بعثرةِ أيامى
لدوائر من صمتٍ مطبقْ
تنزعنى من أضيق رؤيا
ترمينى فى شَرَكِ المطلقْ
ترتجُّ بأعماقى.. لغةٌ
حيرى بالسرِّ، ولم تنطقْ
من يملك ذاكرةً تُحصى
طعناتِ اللجّةِ فى زورقْ؟
أو يخلع أقنعةً تُخفى
لعثمةَ الحاجةِ.. فى منطقْ؟
ها أنتِ على سقف الدنيا
ميلادُ حياة.. تتخلّقْ
وشعاعٌ بالرحمة يدنو

لخيالٍ مكدودٍ مُرهق

وأنا فى اليمِّ، فمن يدرى

أنجو بحياتى، أم أَغرق!

* * *

نافذتى فُتحت، وأطَّلت

عيناكِ، فشمسكِ إلهامى

أَنَّى أتلفتُ، يتبعنى

سريانُ العطرِ، بأنسامى

وأجئُ إليك، يظللّنى

صوتٌ بالبشرى مُترامِ

أستجمعُ لحظاتِ اللقْيا

عقدًا منضودَ الأيامِ

وأظلُّ تلاحقنى صورٌ

تتحلُّ ملايين الأطيافْ

عن عمر، عشناهُ وئيدًا

نغمًا بأناملِ عزافْ

وأنا من حولكِ، أستدنى

موفورَ ثمارِ وقطافْ

وأخوضُ اليمَّ، ولا أخشى

أهوال الموج الرجّاف

فلعلّى أُمسك لؤلؤةً

ترقد فى قاعِ الأصدافْ

* * *

من أىّ البحرين أخاف؟

البحر الممتدّ أمامى

أم بحر يغرق فى عينيك

مرتجٌّ الموجةِ والإِعصار

لاشاطئ فيه.. ولا مجداف!

قصيدتى.. والسفر

قصيدتى حملتُها معى
يثقلُ حملُها
تسقطُ من أصابعى، ولا أعى
أظلُّ سائرًا، أجرجرُ الخطى
أجرجرُ القصيدةَ التى تساقطت
وكُلَّما أبعدتُ فى مسيرةِ الغبار
تشققتْ أصواتُها
واختلطت أناتُها

واشتبكت حروفُها بحافَّةِ الجدار
فارتمى
مُلازمًا لموقعى
الآن.. ياقصيدتى، ونحنُ فى سفر
ماذا تُراكِ تفعلين بى؟
العبءُ لم تعد تُطيقه يدايا
ولا الطريقُ صار كاشفًا مدايا
ولا النهارُ مثلما عهدتُه نهار
ولم تزلْ أصداؤكِ البعيدة
تئزّ فى خُطايا
وتحتمى بأدمعى!
بالأمس، كنت تعرفين علَّتى
وتكشفين صبْوتى
تبنين لى من لمسةِ الحنانِ، من كلامِكِ المُجنَّحِ الوثيرْ
مأوىً يضمّنى
وتفرشين من سحابةِ الألوان والعطور

ظلالَ واحةٍ

ترفُّ فى ربوعها خميلتى

فمالنا، ونحنُ فى سفرْ..

أوشكتِ تغدرين بى وتهزئين

تُلامسين مرّة، وتفلتين

تراودين مرَّة، فأسرع الخطى

حتى إذا دنوتُ للحمى

- دنوتُ وارتميتْ -

تُراوغين

وتكتمين عن مسامعى نداءكِ البعيدَ فى المدار

أصيحُ: يا لغربةِ الفراق، والتسّيار

أنا الذى نُفيت عن عوالمى

واحترقتْ قوادمى

ولم تعد قصيدتى

تضئ رحلة الوجودِ، والأسفارْ!

للعبير اختناق

«من وحى المهرجان الشعرى الذى عقد فى بغداد خلال شهر مارس ١٩٨٥ فى مناسبة الاحتفالات بأعياد المرأة العراقية وعيد المرأة العالمى، وشارك الشاعر فى هذا المهرجان ممثلاً لشعراء مصر.

ويبدو أن وصول الشاعر إلى بغداد كان سابقًا لسائر الشعراء بعدة أيام، مما جعله يكشف صبيحة وصوله أنه الرجل الوحيد فى فندق الرشيد بين أربعمائة امرأة يمثلن نساء العالم».

أخـــرســـتنى الـعـــيــونُ والأحـــداقُ
فـكـلامــى الـشــــــــــرودُ والإطـراقُ
الخطى لهفةٌ، وبعضُ انعطاف النفـ
ـسِ وجـــدٌ ولهـــفـــةٌ واشـــتـــيـــاقٌ

وجنـاحـــــــانِ مـن حـنـيـن يـرفًّا

ن، فـــهـــذا المدى ضُحىً وانـعـتــاقُ

والـهـــوى مــــركَبى لدار حِمــــاهـا

وحــــمــــاهـا النجـــومُ والأشــــواق

قــيـدتْنى سـبـيكةُ العطرِ، فــارتعـ

تُ، ولــلــعــطــرِ ســطــوةٌ ووثـــاقُ

واحـتـوتنى مـفـاتنُ السـحــر، لحظٌ

بــابـلــىٌّ، وكَرمــــــــــــةٌ وعــنـاقُ

واسـتـبـيـحـت ممالكى، فـخـيـالى

مـــشــرئبٌّ الخـطى، وقلْبى يسـاقُ

والـهـــوى دائرُ الحُمـــيًّا، فــــقـلبٌ

مـــســتــجـيـــر اللظى، وقلبٌ مــراقٌ

عنفـوانُ الجـمـالِ يعـتـو، فـأهفـو

وبـعـــــينىَّ من لظـاهُ احـــتـــــراق

حيثمـا درتُ، يصعدُ الدفءُ، طقسًا

عـــبـقـــريّا، وتُجـــهش الأعــمـــاقُ

ويغـيب المحلُ الجـْـديبُ، وتحــيــا
مـن جـــــــديدٍ، وتنـبـتُ الأوراقُ
خـفـرٌ فى العـيـون أن تكتم الشـجْـ
ـوَ، فللشّجْوِ فى العــيـونِ انبـثــاقُ
وارتـدادٌ إلـى المســـافـــاتِ ينـأيْـ
ـــنَ، وينـأى الـومـــــيضُ والإبـراقُ
السنونَ التى قطعْنا.. اغـــتــرابٌ
والطريقُ التى احــتــوتْنا.. فــراقُ
غـارقٌ فى العـيـونِ هـيـهـات أطـفـو
يـالـقـلـبِ يـلـذُّه الإغـــــــــراقُ
رب ألـقـــــــيْتـنـى بـوادٍ ظـلـيـلٍ
تتـــمـنـى ورُوده الـعـــشّـــاقُ
مــا الـذى الآن أشـتكى؟ رُبّ نعـمى
قــتلتْنى، وللعــبــيــرِ اخــتـنـاقُ!
قــد يُطاقُ الجــمــالُ فــردًا، ولكن
كلُّ هذا الجـــمــالِ كــيـف يطاقُ؟

وجـــه

وجهٌ فى واجهة الموجِ،
وعينٌ تعبرُ نحو المطلقِ،
تحلم بالإعصار الآتى
هذا وجهُكِ؟
أم عاصفة راحت تتجمع
ونذيرٌ بالغضب العاتى
كنت أمنّى النفسَ،
وأدنو منكِ،

وأنزعُ قلبى من دائرة اليوم الكاذبِ،

علّى بين يديك أفيقُ،

وأغسلُ ذاتى

لايكفى هذا البحرُ،

ولا هذى الشطئان الممتدّةُ،

أو هذى الريحُ المُشرعةُ

ولا هذا الوجه المعشوق الغائب

حتى أدنو

وأكفكف دمعى، وصلاتى

ها أنتِ تُسيئينَ لقلبى

ـ ياقلبى عجِّلْ بالعودةْ

ها أنت تقصّين جناحى

ـ يا أفقى مازلت بعيدًا

ها أنت تصدّين ندائى

ـ ياصوتى.. لاتوغل فيها

حتى لاتتبدّدَ وارحلْ

لمالك، مازالت تجلو طلعَتها،

تكشفُ عن فتنتها،

وكنوز مباهجها،

ولعمر ممتدٍّ أجملْ

لكنى ماعدتُ ببابك

أتصبىّ لمسةَ أعتابك

أو أَرِدُ النورَ بمحرابك

فأنا مشدودٌ لمصير

يسكنُ خارطة المستقبل

ترحل..؟

أم عنها لاترحل!

ماعاد سؤالكَ يشغلنى

أقلعتُ، وفى البعد شراعى

مملوءٌ برياحى مُثقَل

ياوجّها مكروبَ الرؤيا

إنّى بغبارِكَ لا أحفل

أقلعتُ،

وأنت هنا تسأل!

مواجهة

كان يؤدّبنى.. ويقول:

«ياولدى

هذا قدرُك..

أن تحيا فى سيرك العصر، ولاتنجو

تتعثر فى قبضة مهمازِيْهِ، وسطوة جلاديه

تسقط مابين الآهة.. والتصريح

فى زيّف اللغو ولغو الزيف

وتقول كلامًا محزونًا وعليلاً

يتدحرج من شفتيكَ إلى آذانٍ مُعوجّة
شُغلت عن كلّ كلامٍ أسّيان
بتعقّب مسّرى الصوت، وفهم مسارِ الريح
فانّجُ بجلّدك .
واخلع عنك رداء الحكمة، والبس ثوبَ السيرك
وبادرْ فى الميدان
ما أجملَ أن تتزيًّا كلَّ الألوان
فلعلَّ الله يبارك فى عمرى، وأراك
إنسان العصرِ المأمول
اللامعَ فى كلِّ زمانٍ ومكان!

* * *

ياشيّخى، وجليس فؤادى، ومؤانس رُوحى
لو تعلمُ قدركَ فى نفّسى
لكنّ، ها أنذا، ياويّلى، مفجوعٌ فيك
أوَ حقًّا هذى كلماتك؟

والوجه الشاحبُ آياتُك... وسماتُك؟

والصوتُ الراعشُ.. نبراتُك؟

ياويْلى، مفجوعٌ فيك..

يتدحرجُ زمنى.. لاضيْرا

لكنْ، أن تسقُط أنت؟

ياربّى.. قد وقع المحظور

وتمادى زيفُ اللغو، ولغو الزيف

فارفعْ مقتكَ عنّا

وأَنلْنى بعض يقينى

كى أُحكم قبضَة هذا السيْف!

ملامح صينية

«من وحي زيارة الشاعر للصين»
(٢٤ أكتوبر - ٤ نوفمبر ١٩٨٥)

تتسكبُ الشمسُ على أعوادِ القمحِ،
فيُشرق وجهُ الصينْ
هذا الوجهُ المغسولُ بماءِ الحكمةِ،
والمختومُ بعبقِ الطينْ
يحملُ عينينِ كخطَّينِ،
بعيدَيْن كنجمَيْنِ،
عميقينْ كسرَّيْنِ،

ويبحرُ،

كلُّ الزمن قُلوعٌ وسفائن

ونداءٌ يدعو للمجهولِ،

فيوغلُ ليْس يخافُ التِّيهَ،

ولا يرهبُ وجهَ التّينْ..

تتهمرُ خُيُوط النورِ،

يذوبُ الوجهُ الرائقُ حين يشفُّ،

وها..

تتلاصقُ بعضُ ملامحهِ،

تتقاطعُ فوق الوجه خطوطُ العُمرِ،

ويقفزُ فى العينينْ بريقُ الحزنِ،

ويثقُلُ عبءُ الحكمة،

آهِ..

امتلأ القلبُ، وفاضْ

العالمُ، كلُّ العالمِ، مذخورٌ فيه

منصهرٌ بين مراجلِه،
جوهرةً تخرجُ من بين ثناياهُ،
والكنز ثمينٌ!

* * *

أىُّ الوجهيْن يلاقينى.. وأُلاقيهِ
هأنذا تحملنى كفُّكِ،
تتفرَّسنى وتُقلِّبنى
وتخطُّ خطوطًا فى وجهى
فكأنَّ الشمْسَ تُباركنى
أتسلَّلُ من بين أناملِكِ، وأدنو
أتأملُ كفّكِ:
يالخطوطِ العُمرِ،
ويا لكُهوفِ القَهْرِ،
ويالنتوء الجمْر
أىُّ الوجهيْنِ تراكِ؟!

الوجهُ الغابرُ؟
أمْ وجهٌ آتٍ.. لاندريه؟
يتخلَّقُ عبرَ شقُوقِ الأرض،
ويوغلُ ملء شعابِ النهرِ الأصفرِ،
يخرجُ من رحمِ الفولاذِ،
ويخطو فوق السورِ الأعظمِ،
ينقش زهوَ بطولاتٍ،
ويقيم على القمة عرسًا
ترقصُ شمسُ الحكمةِ فيه!

* * *

الآنَ، وهاأنتِ على القُربِ: عجوزٌ وصبيّة
تتخفى فى أروقةِ التاريخِ،
وتقفزُ فى إيقاعِ الجاز،
وتلعبُ بالوجهيّن..
تسكُننى الحكمةُ،
ثم يُراودنى النزقُ المجنونُ،

ويصهرنى مسٌّ حميّا

أتلامسُ فى جذعيْكِ،

وفى وجهيْكِ،

وأهتف فى نفسى العطشى:

هذا زمنُ السُّقيا

وأحلِّق طيرًا عبرَ معابدكِ المهجورةِ،

عطرًا بين روابيك الممتدَّةِ،

نجمًا يمرقُ فى جلواتِ الرؤيا

ضُمينى.. فأنا مُتَّجهٌ للشرقْ

ضمينى.. فأنا محترقٌ كالبرقْ

وأنيلينى،

فى يوم العودة من ينبوع فراديسكْ

زهرةَ لوتسْ

تحمل لى من وجه الصين

عبقا مغموسًا فى الطين

يتناثَرُ فى كلِّ الدنْيا!

صدر للشاعر

(أ) دواوين شعرية

١ ـ إلى مسافرة (الطبعة الأولى ١٩٦٦، الطبعة الخامسة ١٩٩٣)

٢ ـ العيون المحترقة (الطبعة الأولى ١٩٧٢، الطبعة الرابعة ١٩٩٠)

٣ ـ لؤلؤة فى القلب (الطبعة الأولى ١٩٧٣، الطبعة الرابعة ١٩٩٠)

٤ ـ فى انتظار مالايجىء (الطبعة الأولى ١٩٧٩، الطبعة الثالثة ١٩٩٠)

٥ ـ الدائرة المحكمة (الطبعة الأولى ١٩٨٣، الطبعة الثالثة ١٩٩٠)

٦ ـ الأعمال الشعرية (المجلد الأول) (الطبعة الأولى ١٩٨٥، الطبعة الثانية ١٩٨٧)

٧ ـ لغة من دم العاشقين (الطبعة الأولى ١٩٨٦، الطبعة الثانية ١٩٨٧)

٨ ـ يقول الدم العربى (الطبعة الأولى ١٩٨٨، الطبعة الثانية ١٩٩٢)

٩ ـ عشرون قصيدة حب (الطبعة الأولى ١٩٨٩، الطبعة الثانية ١٩٩٧)

١٠ ـ هئت لك (الطبعة الأولى ١٩٩٢).

١١ ـ سيدة الماء (الطبعة الأولى ١٩٩٤).

١٢ ـ وقت لاقتناص الوقت (الطبعة الأولى ١٩٩٦).

١٣ ـ حبيبة والقمر (الطبعة الأولى ١٩٩٨).
١٤ ـ وجه أبنوسى (الطبعة الأولى ٢٠٠٠).
١٥ ـ الجميلة تنزل إلى النهر (الطبعة الأولى ٢٠٠٢).
١٦ ـ ملك تبدأ خطوتها (الطبعة الأولى ٢٠٠٢).
١٧ ـ العصفور الصغير (الطبعة الأولى ٢٠٠٢).
١٨ ـ أغنية لمصر (الطبعة الأولى ٢٠٠٣).

(ب) دراسات ومختارات :

١ ـ لغتنا الجميلة (الطبعة الأولى ١٩٧٣ ، الطبعة الرابعة ١٩٩٩).
٢ ـ أحلى عشرين قصيدة حب فى الشعر العربى (الطبعة الأولى ١٩٧٣، الطبعة العاشرة ١٩٩٧).
٣ ـ لغتنا الجميلة ومشكلات المعاصرة (الطبعة الأولى ١٩٧٩، الطبعة الثانية ١٩٩١).
٤ ـ أحلى عشرين قصيدة فى الحب الإلهى (الطبعة الأولى ١٩٨٣، الطبعة الرابعة ١٩٩٨).
٥ ـ العلاج بالشعر (الطبعة الأولى ١٩٨٢، الطبعة الثانية ١٩٩٤).
٦ ـ مواجهة ثقافية (الطبعة الأولى ١٩٨٢، الطبعة الثانية ١٩٩٤).
٧- معجم أسماء العرب: بالاشتراك (الطبعة الأولى ١٩٩١، الطبعة الثانية ١٩٩١).
٨ ـ عذابات العمر الجميل: (الطبعة الأولى ١٩٩٢، الطبعة الثانية ١٩٩٧).
٩ ـ ديوان عبد الرحمن شكرى: تقديم وتحقيق (الطبعة الأولى ٢٠٠٠).
١٠ ـ ديوان عبد الحميد الديب: مراجعة وتقديم (الطبعة الأولى ٢٠٠٠).
١١ ـ ثقافة الأسلاك الشائكة (الطبعة الأولى ٢٠٠٠).
١٢ ـ زمن للشعر والشعراء (الطبعة الأولى ٢٠٠١).
١٣ ـ الشعر أولاً والشعر أخيرًا (الطبعة الأولى ٢٠٠٢).
١٤ ـ الإغراء بالقراءة (الطبعة الأولى ٢٠٠٣).

(جـ) مؤلفات عن الشاعر :

١ ـ البنية الشعرية عند فاروق شوشة، تأليف الدكتور مصطفى عبد الغنى (١٩٩٢).
٢ ـ شعر فاروق شوشة بين الرؤيا والإبداع، تأليف الدكتور محمد السيد سلامة (١٩٩٩).

الفهـرس

إلـى مسافـرة

العيون المحترقة

لؤلؤة فى القلب

فى انتظار مالا يجىء

الدائرة المحكمة

لغة من دم العاشقين

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

شوشة ، فاروق

الأعمال الشعرية / فاروق شوشة . ـ القاهرة :

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

مج ١ ؛ ٢٤ سم .

تدمك ٣ ٤١٠ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ الشعر العربى ـ تاريخ ـ العصر الحديث.

(أ) العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٨٥٣ / ٢٠٠٨

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 410 - 3

ديوى ٨١١,٠٩

الإشراف الفنى

صبرى عبدالواحد

تصميم الغلاف : الحبيبة حسين

مدنٌ للرحيلِ
فمن يُمسكُ الأرض؟
من يتجاسرُ أن يزرَعَ القدمَينِ
ويثبُتَ للمدِّ،
يُقسمَ:
هذى نهايةُ موْتى
وهذى بدايةُ صوتى
وهذا طريقى إلى المستحيلْ!

فاروق شوشة

يقول الدم العربى

يقول الدم العربى

أخيرًا،

يقول الدم العربيُّ:

تساوَيتُ والماءَ

أصبحتُ لا طعْمَ،

لا لوْنَ،

لا رائحة!

أخيرًا،

يقُول الدم العربيُّ:

أسيلُ..

فلا يتداعى ورائى النخيلُ

ولا ينبتُ الشجرُ المستحيلُ

أسيلُ..

أُروّى الشقوقَ العطاشَ،

وأسكبُ ذاكرتى للرمالِ،

فلا يتخلّقُ وجهُ المليحةِ،

أو حُلمُ فارسها المستطارِ،

وأنزفُ حتى النُّخاع،

وينحسرُ المدُّ،

تنبُتُ فوقى حجارتُكم،

مدنًا تتمدّدُ أو تستطيلُ

وتأكلُ ما يتبقَّى من الأرضِ،

لكنها أضرحة!

* * *

أخيرًا،

يقول الدَّم العربىُّ: اكتفَيتُ

تجاوزتُ جسْرَ الشرايينِ،

أسرجُت خيلى بقلبِ العراءِ،

وخيّمتُ فى نُقطةِ الجذْبِ

أحكمْتُ أغنيتى

وانتشيتُ لنفسى

وقلتُ:

أطاولُ كلَّ الدماءِ التى أنضجتْها الحرائقُ،

كلَّ الدماءِ التى أهرقتها الملاحمُ،

كلَّ الدماءِ التى اعتصرتْها المآدبُ،

فاخرْتُ أنِّى الوحيد الذى

جعلوا من بقاياهُ خاتمة للبكاءِ

وفاتحة للغناءِ

ومن رئتى مذبحة!

* * *

أغوص بذاكرةِ الرمل،
وجهى عروسٌ تخطَّفها الموتُ،
والقاتل الهمجىُّ
تغيبُ ملامحها
ويغيبُ الهوى العربىُّ
قاومتُ،
فانفلتت فىَّ فُقَّاعةٌ،
وانطفأتُ،
تشاغلتُ،
أحكمتُ فوق ملامحها قبضتى
واسترحتُ،
أغوصُ بذاكرةِ الرُّعب،
وجهى سحابةُ يُتْمٍ،
تُعشّشُ فى كلِّ بيتٍ
وتتركُ بعض عناكبها فى تراب الملامحِ

وجهى الذى يتشكّلُ فى كلٍّ حالٍ،
ويلبسُ أقنعةً لا تبوحُ،
وينظرُ فى رحمِ الغّيبِ،
ماذا تُجنُّ الغيومُ؟
وماذا تقولُ البروقُ؟
وماذا تخبّىءُ عاصفةٌ فى العروقِ،
ودمدمةٌ فى الرؤوسِ
وأشبهت الليلةُ البارحة!

* * *

أخيرًا
يقول الدم العربىُّ المسافرُ عَبْرَ العواصمِ
والمتجمّعُ خلْفَ الحواجزِ
والمتناثر فى كلِّ أرضٍ:
تعبتُ
وهذى هويّةُ جلدى

وبعض ملامح أرضى التى سكنتْ فى العيونِ،
تعبْتُ،
فمن يحملُ الآن عنّى بقية يومى،
وأشلاء حُلمى،
ويمضى..
تعبتُ..
الدروبُ يُلاحقها الموتُ،
يسكُنها الصمتُ
والقلبُ يملؤهُ القهرُ،
والشّاحنات الرجيمةُ ترتدُّ عبْرَ الزوايا
شظايا
تعبتُ..
المدى.. لا يُبينُ
الصدى.. لا يُبينُ
ووجهَى مازال مُنسحقًا

فى جبين المرايا..

تلاحقهُ اللعنة الجامحة!

مدن للرحيل

مدنٌ للرحيلِ،

الطيورُ تغادرُ أعشاشهَا،

والغيومُ التى تتجمّعُ تُعلنُ عن زمنٍ للعواصف،

عن موعدٍ لاختلاطِ الفُصول

أفتح نافذتى ـ عبْرَ النيل ـ يُباغتنى وجهُ عدوّى

يترصّدنى

ويمدُّ ذراعيْه تطولانى حيث أكونُ،

وحيث تغيبُ الشمسُ،

محالٌ أن أتحوَّلَ عن خنجرهِ

وهو يغوصُ وئيدًا فيَّ

محالٌ أن أتلاصقَ

بعضى صار يُناجزنى

يتنكّرُ لى، ويُباعدنى

وأنا المذبوحُ على الحدّيْنِ،

أردُّ الطعْنةَ كيف؟

أصوّبُ، حين أُصوّبُ، للمجهول!

وجهُ عدوّى فى نافذتى،

فى مرآتى،

فى داخل سُمّى وطعامى

يترصّدنى

لا أتساءلُ: كيف انسلَّ وخيَّم ثم أقام

لا أتساءلُ: كيف تسوَّر أُفقى

أصبح كابوسى،

قلقى،

صحوى

هربى، حين أنام

وأنا المتظّر لحْظةَ تنفيذ الإِعدام

لو أملكُ صوتى، أصرخُ فى البريّه:

ها، تقتربُ الساعةُ

حين يجفُّ العمرُ

وحين يشيخُ النهرُ

وحين يطولُ القهرُ

وحين..

ولكنّنى، خلْفَ كلِّ الدروبِ، ولا من سبيل!

مدنٌ للرحيل

والذى قد تناثر عَبَر الرياح

وطنٌ مُستباح!

* * *

مدنٌ للرحيلِ
المدافنُ شاخصةٌ
والغبارُ الذى قد تكاثفَ موتٌ
والذى قد تكشَّف فوْتٌ
وهذى العمائرُ تزحف فى كلّ صوبٍ
تُباغتنا مُشرعاتِ الأسنَّةِ
غائصةً فى قرارِ الحلوق
والذى نبتنى
مدنٌ للبكاءِ
وأقبيةٌ للعواءِ
وفى باطن الأرض زلزلةٌ
تتشقق عنها الوجوهُ
ولكّننا لا نفيق..
مدنٌ فى انتظار الرحيل
والمشانقُ تمنعنا أن نجاوزَ حدّ البكاءِ

وحدّ العزاءِ

وأن نتصاعد فى درجات العويل

نستأذن حتى فى الأحزانِ

ونَفْرقُ من غضبِ السجانِ

فُنعلنُ أنَّ المضيق اتساعٌ

وأنَّ القفارَ جِنانٌ

وأن الزمانَ زمانٌ

وأنَّ الهسيسَ الجبانَ صهيل!

* * *

مدنٌ لاختبار النّوايا

ومهما تصوّرتَ أنك جاوزْتهم

ونجوْتَ بجلدكَ

أنك مؤتمنٌ وسميعٌ مطيع

فهم مُوقفوك

وهم سائلوكَ:

ومن أنت؟

ماذا تكون؟

وما تبتغى؟

- ما أنا!

- من أكون!

- وما أبتغى!

آه للوهم..

كان يُزَيِّن لى.. أننى

قد عبرْتُ الحدود

وحلّقت فوق الحواجز

شارفتُ كلَّ النجوم

وأَطلَلْتُ مثل انعقاد السّماءِ

على وطنٍ من نجوم

وأنَّ الأثير الذى كان يومًا بضاعتنَا

لم يضعْ فى السّديم

ولكنه، واقفٌ، كالرّدى شاخصٌ، فى عُتوٍّ دميم

يباغتنى بالسؤال العقيم:

ومن أنت؟ ما تبتغى؟

عدوٌّ هناك تسلَّل فىَّ

وآخرُ عندى عدوٌّ مُقيم

وبين عدوّيْن

ماذا أكون؟

وما أبتغى؟

وطنٌ واحدٌ لا يُباعُ

وعمرٌ جميلُ قديم!

* * *

مدنٌ للرحيل

مدنٌ للبكاء الطويل

مدنٌ لاختلاطِ الفصولِ

فمن يُمسكُ الأرضَ،

من يستميتُ على حدّ خارطةٍ فى الحدودِ،
وخارطةٍ فى الدماء،
ليعلنها وطنًا لا يضيعُ
ولا يتراجعُ،
لا يتقلّصُ يومًا فيومًا
وشبرًا فشبرًا
وتطفو بقاياهُ فوق الدموع
فمن يُمسكُ الأرض،
من يتجاسرُ أن يزْرعَ القدميْنِ
ويثبُتَ للمدِّ
يُقسمَ:
هذى نهايةُ موتى
وهذى بدايةُ صوتى
وهذا طريقى إلى المستحيل!

موكب الشهداء

خشوعًا، فهذا اليوم فى ساحهم عرسُ
وصمتًا ففى أعماقنا يورقُ الهمسُ
مواكبُ من تحت التراب، لها صدىً
ورفرفةٌ بين الضلوع، لها هسٌّ
نطالعها بالعين، لو تسعفُ الرؤى
ونحضنها بالقلبِ، لو أمكن اللَّمْسُ
ونرتاح للصدر الذى كان حانيًا
وكان أنيسًا حين يُفتقدُ الأُنسُ

وجلّى لنا معنى إلبطولة، غالياً

يُكشّفهُ درسٌ، ويعقبهُ درسُ

وصيحةُ تكبيرٍ تهلّل وقعها

فكان له فى كل جارحةٍ جرسُ

وخيط دمٍ ينصبُّ فينا، ولم تزل

كئوس الرّدى الظمأى لسيّاله تحسو

تَنازعها الفتيان فى كلّ ساحةٍ

وهاموا بها خَوّدًا مراشفُها لُعسُ

عرفنا وذُقنا، والحلاوةُ مرّةٌ

وأغلى من النفسِ الذى تفتدى النَّفسُ!

* * *

خشوعًا، فهذا اليوم فى ساحهم عرسُ

وصمْتاً، ففى أعماقنا يورقُ الهمس

ويخضلُّ بالتذكار جرحٌ تبرعمتْ

أزاهيرهُ وامتدّ فى ظلها غرْسُ

بسطْنا له أرواحنا وصدورنا

وسائد تطفو فى الدموع، ولا ترسو

نطوف به ساعين فى كلِّ موكبٍ

ويلمسنا من وقْع أصدائهِ مسٌّ

ويمتدُّ فى مسْرَى الشرايين صهدُهُ

يموج به طقسٌ ويعْنو له طقْسُ

فرضْنا على الموت الخضوع، فما الذى

يريدُ إذن؟ هذا هو الثمنُ البخْسُ

فكمْ رُدَّ مغلوبًا، وقد ظُنَّ غالباً

فعاود محتالاً، سعايتهُ خلْسُ

نخوضُ به وجها لوجهٍ فيختفى

ويُطمعهُ هذا القناعُ، فيندسُّ

على أىِّ حالٍ تستريح جُنوبُنا؟

ومن حولنا رومٌ، ومن حولنا فُرسُ!

* * *

وجهُكَ.. خضرةُ هذا البيرق
نجمٌ بالبشرى يتألّق
جسرٌ ممدودٌ للآتى
والآتى حلمٌ يتحقق
وجهُكَ صورة طفلٍ شبَّ
ملامحُ دنياهُ تتخلّق
تلْثغُ شفتاهُ بكلماتٍ
حيْرى، ودموع لا تنطق
فإذا انهمرت كانت سيْلاً
فى مجرى دمعٍ يتدفق
يكتمها فرْطَ شجاعته
وبراءةِ قلب يتمزّق
ويخطُّ سطورًا، ورسومًا
عن وجهٍ فى اللجَّةِ يغرق
ألمحُكَ تمدُّ يدًا، تدنو

والصـــدر لهـــيب يتـــحـــرّق

تحـــتـــضن جـــدارًا، وجـــدارًا

وتدقُّ علـى البــــابِ المُغلق

تنفـــــتحُ الكُوَّةُ، وافـــــرحًا

للعـــــائدِ، ذى الخَطْوِ المُرْهق

قـــد عـــاد إلى الحـضن الوافى

والوجـــــــه المكدودِ المطرقْ

وارتفعت عينٌ،

واندفعت لغةٌ،

وتدلَّى استبرقْ

الفــــــارس مــــــازال أبيًّا

يطأُ الأحـــلامَ، ويتـــــرفَّق

جلْوتُه عـــــينٌ ســــاهدةٌ

تتـــملّى فـــجــرًا، لم يُشـــرق!

* * *

خشوعًا، فهذا اليومُ فى ساحهم عرسُ
وصمتا ففى أعماقنا يورقُ الهمس
ونحن شهود اليوم، ماذا يئودُنا؟
غدٌ يتصبّانا، فهل يسعفُ الأمسُ؟
قلوب لنا بالحزن ملاى، وأعينٌ
تُداهمُها الرؤيا، وألسنة خرسُ!

بيـروت

مِزقٌ من قمرْ
وبقايا غمامْ
لم تصدهُ القذائف فى الليلة العاصفة
وصدًى يتقصّفُ،
وجهٌ لطفلٍ على البعد يشحبُ،
يغرقُ فى هُوّةِ النّزفِ
والدهشةِ الجارفة
آه، ترنيمةً هشةً تتوقفُ،

تجدلُ بنتٌ ضفيرتَها

وتغادر ضيْعَتها

فتضيعُ،

ويرحلُ سرْبُ اليمامْ

ويدٌ تستطيبُ الزنادَ

وتكمن فى المنحدر

وهى تُرخى مساحةَ حزنٍ جديدٍ

وتطلقُ زخَّاتها

فى انتظارِ المطرْ

أىُّ وعد يخبّئهُ القادمُ المُنتظر

والمنايا بَشرا

حين تعولُ ريحٌ

وترعدُ عاصفةٌ فى الخيامْ

يتوارى خبرْ

ويدوّى خبرْ

ثُمّ نُغلق صوتًا لمذياعنا،

وننام!

* * *

كان قلبى على حافّة المدّ مُنفتحًا،

والسماءُ تنوءُ عناقيدها

والضلوعُ التى تتلاصقُ، تحضن بُرغم حلمٍ،

وهذى أصابعنا تنبشُ المستحيلَ،

وتلمسُ واجهة الكون،

تمتدُ شهوتنا للذى لا يُنالُ،

فيدنو المحالُ،

وتشرقُ بيروت فى دارةِ القلْبِ،

نجْمًا عصيًّا

وأفقًا سخيًّا

وكوْكبةَ الكلماتِ الرجالْ

الخيول التى غادرتْ قَيْدَها، لم تعد

والليالى التى انطلقت إثْرَها، وهى مُجفلةً،
تتلفّتُ،
يا مَنْ يعيدُ إليها تباريح شوقٍ،
ويضرمُ أعصابَها،
فى جوًى واشتعالْ
ما الذى لم يزل يترصّدُ فاتنةَ الماءِ،
ينهشُ لحمًا طريًا .
ويجتاح صدرًا حفيًا
ويقتل كلّ انتظارٍ لجلْوتها،
حين يعتو،
ويمعنُ فى سفهٍ وارتجال
نعبرُ الآنَ من حولها، ونصيحُ
نعاينُ رجْعَ الصدى
زمنًا جاء منطفئًا
تتكسَّرُ فيه النّصالْ!

تلك بيروتُ، أم؟

ـ فاشتموا أيها الشامتون ـ

مزقٌ من قمرْ

وقلوبٌ حجرْ

وبقايا خبرْ

ورصيفٌ على البحر،

ناءَ بأحزانِهِ

وانكسرْ!

يتغير لون الماء

يتغيّرُ لونُ الماءِ، ويُعتمُ وجهُ النهر
يعبرُ منكسراً، مكدوداً،
تثقله سنواتُ القهْر
تمتدُّ ذراعاهُ لتحتضنا الشطئانَ،
فترجعُ بالخذلان
لا موجَ الآن، ولا شاطىء
هذا شبحُ اليمِّ بعيدٌ، فارحلْ فيهِ،
وغيِّبْ هذا الوجه، وهذا اللوْنَ،

وهذى الأحزان

وارحلْ عبْرَ مصبٍّ الدمعِ، إلى المجهول

ماذا تحملُ؟

أىٌّ وعودٍ بعْد؟

وأىٌّ سيوفك سوف يصول؟

النهرُ المُتكسّرُ فيك،

وجذْبُ القاعِ،

وملْحُ التُرْبةِ

والإنسان!

* * *

منفيًا أخرج من زمنى

أبحثُ عن وجهى عبْرَ مرايا الرُّعبِ،

وأحمل فى أشرعتى.. كفنى

لا تُثقلْ قلْبكَ بالذكرى، فالقلب ملولٌ سأمان

لا تشغل ليلك منتظراً..

فالفجرُ المأمولُ.. جبانْ

والصورة شاحبةُ الألوانْ

ما أقبحَ وجهَ القومِ،

سعارٌ وحشىٌّ يتراقصُ فيه

وفؤوسٌ بالأيدى.. تهوى

مشرعةً تطعن طعْنَتها

وتواسى القتلى.. فى العلنِ

منفيا أخرجُ من زمنى

فى أقصى الغربةِ مدُّ السَّيْلِ

ووجهُ الرُّعبِ،

ووقْعُ الرَّجفةِ فى وطنى!

* * *

مُتَّجهٌ أنت..

ولا تدرى أيَّان تكون!

فتخيَّر أرضاً وطريقا

وتخيَّر عُمرا، ورفيقا

وتخيَّر شجناً، وحريقا

وتخيَّر سجْنَك أو منْفَاك

فالأرض منافٍ وسُجون

العمرُ يهونْ

والموتُ يهونْ

والحلمُ الغائبُ، ليس يهونْ!

رسالة إلى أبى

يفجؤنى الذى اكتشفتُ: أنتَ فى نفّسى حَللّت!
فى صوتَى الـمُرتجّ بعضُ صوتك القديمْ
فى سِحْنتى بقيةٌ من حزنك المُنْسلّ فى ملامِحك
وفى خفوت نَبْرتى ـ اذا انطفأْتُ ـ ألمحُ انكسارتكْ
وأنتَ..
عازفاً حيناً،
وحيناً مُقبلا
وراضياً، تأخذنى فى بُرْدِكَ الحميمْ

أو عاتباً، مُغاضبا
فأنت فى الحالين، لن تصدّنى..
وتستخيرُ الله، أن تكون قد عَدلْت!
يفجؤنى أنك لَم تزْل معى
وأنت شاخصٌ فى وقفتى الصماءِ،
والتفاتتى
أرقُبنى فيكَ،
وأستديرُ باحثاً لدىَّ عنْك
تحوطُنى، فأتكىء
تمسكُ بى، إذا انخلعْت
تردُّنى لِوجهتى
مقتحماً كآبة الليل المقيم
الآن، عندما اختلطْنا
صرتُ واحداً،
وصرتُ اثنيْنِ

عدتُ واحداً،

عنك انفصلْتُ، واتصلتُ،

وانفصلْتُ، واكتملْت

لم أدْر كم من شجْوِك النبيلِ قد حملْت

أضفْتُه لغربتى

ومن إبائكَ الذى يطاولُ الزمانَ.. كمْ نَهلْت

فاكتملتْ معرفتى

واتّسعت أحزانُ قلبىَ اليتيمْ

بالرغم من أُبوَّتكْ

وأنت ناصحى المُجرّبُ الحكيم

لم تُنْجِنى من شِقْوتك!

* * *

أبى..

تُراكَ فى مكانِكَ الأثيرِ مانحى سكينتك

وقد فرغْتَ من رغائب الحياة

فانسكبتْ شيخوختك

على مدارجِ الصفاءِ والرضا

وصار قوسُ الدائرة

أقربَ ما يكون لاكتمالها الفريدْ

هأنذا ألوذُ بِك

أنا المحارب الذى عرفْتَهُ، المفتونُ بالنِّزالْ

وابْنُكَ..

حينما يفاخُر الآباءُ، بالبُنوّةِ الرجال

منكسراً أعدو إليك

أشكو سرابَ رحلتى

وغربتى

ووَحدتى

محتمياً بما لديك من أُبوّتى

ولم يزلْ فى صدرك الرحيب مُتسع

وفى نفاذ الضوء من بصيرتك

جلاءُ ظُلمتى وكُربتى

فامددْ يديك للذى قد غاله الطريق

واخترقت سهامُهم صميمه.. فلم يقعْ

لكنه أتاك نازفاً مُضرّجا

دماؤُه تقودهُ إليك

ونُدبةٌ فى جبهته

وصرخةٌ مكتومةٌ يُطلقها.. إذا امتقعْ

هذا ابنُكَ القديمُ،

وابنُكَ الجديدْ..

يبحث فيك عن زمانِه،

وحُلمهِ البعيد

فافتحْ له خزائنكْ!

دعونى أؤجل حـزنى

هو الوقتُ،

ما بين عينيْكَ والدمْعِ،

ما بين صوْتِكَ.. والقَهْرِ،

ما بين فرْحتنا.. والختام

وموعد حزن، نؤجِّلُه كلَّ عام

ونخشاهُ

نحمله فى الحنايا

يُجلّلهُ خَجلٌ، واكتتامٌ!

هو الوقتُ،

ساعةَ دوّى النذيرُ،

وفى القلب أُغمد حدُّ الحسامْ

لقد آن للشمسِ أن تسْتريحَ،

وأن يتلبّدَ وجهُ الغمامْ

وللحلم، أن تتلاشى رؤاه

ليفصحَ عن وجعٍ لا ينامْ

لماذا يقولون: ساعةَ نحْسٍ تُحلّق فوق الجُمَع؟

وصوتُ المؤذن يعولُ فى البعْدِ،

ينعى رحيلَ القطا

واختفاء اليمام!

* * *

وشقَّ المدى صوتُ جارتنا الطيبة

تقول وداعا..

وشقَّ الظهيرةَ ركبُ الجنازِ،

وأوْغلَ فى الطرق المُتربة

نغوص بأقدامنا فى الثرى
تغوصُ ملامح هذا الزمان القديم
ونهوى بأحزاننا فى السَّديم
ونرحل مثْلَ انكسار النهارِ،
يُلاحقه هاجسٌ لا يريم
ومن أنتِ؟
من نحنُ؟
كيف ابتعدْنا؟
وكيف انهمارُ البلاءِ المقيم؟
سآوى إلى الركن، لا تخذلينى،
ولا تحرمينى الرضا والنعيم
وعُمراً تسلّل مثْلَ النسيمْ
ومازال صوتٌ يقول: وداعاً
وما زال يُعولُ قلبٌ يتيم!

* * *

دعونى أُؤجّلُ حُزنى

لأفسح وقتاً لأحزانكم

وحين تجفُّ الدموع،

ويُطوَى بساطُ العزاء

وتأوون للغرف الباردة..

وتنسوْنَ هذا الفراقَ، وهذا الرحيلا

ووجهاً،

عبرْنا عليه الزمان الجميلا

سأبكى وحيداً

وأبكى طويلا!

فى أرض رفاعة

أبحثُ عن موطِىء خُطواتِك
أتنسّمُ عبقاً يسرى حُـرًا فى شُرفاتِك
وبقايا عطرٍ،
طوَّف فى الآفاقِ وهاجر فى كلِّ الدنيا
يُوقظنا وقْدُ الفطنةِ من لفحاتِك
نتخطَّى قيْدَ العصرِ،
ونقتحمُ الدَّيجور
يغزونا البحرُ،

فنعبرُهُ والقلبُ جسورْ

ونعودُ نُفتّحُ أبوابا

ونُزيلُ حجاباً وحجابا

ونُواجهُ لفْحَ التنّورْ

أبحثُ عن موطىءِ خُطواتِك

وأُلامسُ ذاتى فى ذاتِك

أعرضُ وجهى فى مرآتِك

وأقول - وقد دار الزمنُ المحدوّدبُ،

واختلَّت آفاقُ الرؤيا،

وبدأنا نسألُ عمَّا خلْفَ السُّورْ:

ها نحنُ نعودُ إليْك

لنُسافرَ فيكَ

ونبدأَ ثانيةً رحلتك المرجوَّة للنور

نبدأ من مطلعِ كلماتك!(١)

---

(١) ولدت القصيدة خلال لقاء بين الشاعر ونخبة من شعراء محافظة سوهاج حيث موطن رفاعة رافع الطهطاوى.

عن الحب والحرية

تبدأُ الأشياءُ فى حُسباننا أصغر مما نتصوّر
ثم تمتدُّ، وتكبر
فإذا عيناكِ فى الدنيا، اتجاهاتُ شمالى وجنوبى
وإذا اللحظة فيما بيننا
عمرٌ من الأزمانِ يطوينا
ولا ندرى بأنا نتغيّر
تبدأ الأشياء منكِ
ثم ترتدُّ إليكِ

وأنا، بين البداياتِ التى تصبحُ من بعْدُ ارتداداتٍ
أرانا
قد تجاوزنا حديث القيد والقضبانِ،
والقهر، وأحزان المدينة
واخترقنا الحاجز الماثل ما بين ارتعاش الظلّ
والنفس الحزينة
فإذا نحن صغيرانِ، كبيرانِ، بحجمِ الكونِ،
نجتازُ، ونعبرُ!

* * *

الأنى حين أحببتُكِ
أحببتُ جناحيّن يطيرانِ،
فلا تجسرُ ريحٌ أَن تقاوم
لا،
ولا عاصفةٌ مسكونة بالرعد يوماً،
أن تصادم

لا،

ولا قضبان هذا العالم المملوءِ جوْراً وقتامة

أن تُزاحمْ

الأنى حين أحببتُكِ واجهتُ جحيمى

وتنفَّستُ نسيمى

مُسلماً عمرى إلى ريح الصَّبا

وشميمٍ من عرارٍ وخُزامى

فيكِ عاينتُ سمائى ونجومى

فتعرّى كلُّ ما فى الأرض من قُبحٍ كريهٍ ودمامة

باحثاً عن جلْوةِ الحسْنِ الذى يقطرُ من ذوْبِ ابتسامة

وعن الدفء الذى يكسو محيّاكِ وسامة

عندما ينهلّ هذا الموكب الأسنى

فأنشقّ حجازاً وتهامة

برزخى أنتِ

وفى دربِك من عُمرى علامة

كيف ألقاكِ هروباً وانهزاما
وأنا الضاربُ فى الأرضِ،
بهذا الحبّ أقوى
وبهذا الفيض أبقى
ساريا فى عبق الطين دماً
صاعداً فى ألق الجوّ غمامة
ذائباً فى النيل،
شطّاهُ امتداداتى
نداءاتىَ موجاتٌ سجيناتٌ
وروحى فى قيود الأسْرِ
تحليقٌ مُدمّى وارتطامة
داخلى ذرٌّ من الصحراءِ
ممزوجٌ بطمْىِ النيلِ
مقذوفٌ بهذا الكونِ
أجتاز على كَرْهٍ زحامه!

* * *

وليكن،
ما الذى يبقى من العُمرِ
إذا ما كان هذا العمرُ سجْنا
والمدى الممدودُ جُبنا
والربيع الطلّقُ حزنا
وليكن،
ما الذى نصنعُ بالحبّ إذا كان اغتيالاً للخلايا
وانطفاءً للذى يلمع فى عيْن الصبايا
وانغماساً فى سراديب الحكايا
دون أن يرتجّ فينا كلُّ بركانِ الحنايا
فنرى الميلاد فى قلْب المنايا
والمدى المنسوجَ من عزْفِ الشظايا
والغدَ الطالعَ من عُرسِ النهار
ساطعاً،
منكسراً فوق المرايا

* * *

ما الذى يجعل صحراءَ - إذا امتدَّت حواليْنا - بساتينَ
فَرح
ما الذى يجعل هذا الأفقَ العارىَ ركْباً من حكايا
ومُويْجاتِ نغم
وعناقيد تلالٍ نسجت بُرْدَ التجلِّى
واستكنّت فى الحنايا
أمطرت فى حبّة العينِ مواعيد انعطاف
ما الذى يطلقُ فى وجه أعاصير الطريق
عاصفاً مُشتعلاً بالصبوات
يتخطّى كلّ ذرّاتِ الرمال الهوجِ،
مدفوعاً إلى عينينِ،
غاصت فيهما ومضةُ حبٍّ وانخطافْ
تعبت أسئلتى ... فلتتوقف
إننى أعرف ما بعد لماذا!
ولهذا

كلّما امتدت ذراعایَ، وأوشكتُ
تتاءيْتِ
تتاءَى الحلمُ،
وازداد الغد المأمولُ بُعدا
آهِ لو تدرينَ، آه
إنّ كيمياءَ الشرايين تزيد القلبَ صهدا
أمطرى يا غيمتى ناراً وشهدا
إنَّ لى فى مُقبل التاريخ وعدا
إنَّ لى فى فحمة النيران وقدا
وأنا المشدودُ كالأوتارِ،
كالإعصارِ،
كالتيارِ،
شدّا
ولقد قاربتُ جدّا
إننى قَاربتُ جدّا!

رحيــل المغنى

لماذا بدأتُ بكِ المستحيلا؟

وشارفتُ فيكِ النجومَ - توهَّمتُ -

كدتُ أُلامسُ وجْهَكِ

كدتُ أصافحُ عينيْكِ،

لكنّنى الآنَ - حين بلغتُ مدارى

وذقتُ انكسارى

ولازمتُ دارىَ -

أدركُ أنّى تجاوزْتُ،

حين افترضتُ إليّكِ الوصولا!

لماذا..

وقد كنتِ أقربَ نجمٍ يُطالعنى وجهُهُ المُتقلّبُ

حتى كأنَّ بعينيهِ دمعًا

وفى الصدرِ عاصفةً من شجونٍ،

وأُفقا أُعاينُ فيه الأُفولا

فغنَّيْتُ،

ما كنتُ أعبأ بالسّامعينَ،

ولا المُدّلجينَ الحيارى إليّكِ،

ولا المُنّتوين الرّحيلا

فَأبعدُ مما يظنون.. أنتِ

وأَمْنَعُ مما يرومونَ.. ساحُكِ،

حتى ولو أدمنوا منك فى كل يومٍ،

وفى كلِّ عُرسٍ،

زمانًا جميلا

ووجهًا جميلا

وغنّيْتُ،

تحفزنى نشوتى أن أُطيلا

وها أنا فى ساحة القومِ، مغتربٌ، أتلاصقُ فىَّ،

وأخشى الدخولا

لماذا، وقد عُدتُ، ألقاكِ حِضْنًا عَزُوفًا

ووجهًا بخيلا

تقلّص ظلُّكِ حتى توارى

وأمعن وجهُكِ حتى تبدَّل،

حتى تراءيْتِ كالطيف،

حين يراودُ،

حين يشاغلُ،

مستعذبًا أن يزولا

وأسقطُ ما بين حُلميْنِ:

حلمٍ سريع الزوال،

وآخرَ ـ فى القلب ـ يشكو الذبولا!

* * *

غدًا تدركين رحيل المُغنّى
إذا طار عنك بعيدًا، وأغفى
وأدرك قبل انغلاق المدى
بأنَّ الجناحيْن قُصّا
وأن الطريق الذى كان يُفْضى توقَّف،
والقلْب أصبح قلبًا ملولا
فهل تسمعين العويلا؟
وهل تأذنين له ـ مُرغما ـ أن يقولا:
أحبُّكِ ليلاً ثقيلاً بقلبى
وعبئًا مقيمًا بدرْبى
وفاتحةً من بكاءٍ تؤرخُ خاتمةً للغناءِ
ووعدًا،
عرفتُ به المستحيلا!

الوجه المراوغ

وجهكِ مثلُ وطنى المراوغْ
أعجبُ من قدرته على تلبّسُ المسوح والألوان
وعجزِه عن لحظةٍ، يلوذُ بالأمان
فيها .. المُعذّبُ الإِنسان
الليلُ حالٌ، والنهار حال
بينهما الحلمُ الذى انقضى
والقادمُ المبحرُ فى المحال
خاوٍ كتابُ عُمرنا وفارغ

نعبُرهُ صحائفًا مثقوبةً، مُضرّجة
تنزفُ من سطورها الأحزان
وتيبسُ العينانْ!

* * *

ها أنتِ مثل وطنى، تبتلعين الطعْم
تُشوّهين بالمساحيق، وبالأصباغ
نقاءَ وجْهِ العالَمِ الحبيس فى إسارِ فِطْرتكِ
وترقصين رقصة الفتونِ والإغواء
للطامعينَ الآن فى المستور خلْفَ حكمتِكْ -
وتُسفرينَ عن عجائبٍ بلا هويّة
مخلوعةٍ من أُفقها، وسحْرها العتيدْ
سيدتى..
كيف يجارى حُلمكِ السَّعيد
مَنْ حُلمُه فى يومِه وغدهِ البعيد
حسْوةُ منقارٍ،

وحشْوُ فم

ولغةٌ جامحةٌ برّية

لا تنطفى

تحت فداحةِ الألم!

* * *

وجهُكِ صار غابةً، وبعْض نار

أغصانُها تنوءُ من ثمارها المحرّمة

يا كمْ سرقْنا من قِطافها

وارتبكت خطوتُنا الشّوْهاءُ فى ظلالها

واشتعلت أرواحنا باللـذة المؤثّمـة

ثم اكتشفنا أننا أسْرى الدروبِ المعتمة

تُرى، متى يشتعل الفتيل

وتنتشى ملامحُ الإِعصار

بالموعد الخبئ فى الأقدار

ساعتهَا،

يسقطُ عنْكِ العار

ويشرقُ النهار!

وردتنا تفتحت

حين انحنت برأسها فَراشةً مُطوَّقة
وثبّتت عينيّن،
رفّت فيهما لَمعَةُ صفْوٍ ماكرة
تسألنى..
عن موعدٍ لزهوةِ الصِّبا متى يجئ
وعن تثنّى العود، والتفافةِ الغصّنِ النحيل
وموكبِ الأحلام فى انطلاقة العمر الجميل
وعن مواقيتَ لِجنَى الثمرة

وفورة العطور والظلال والألوان

وعن مدى تُطلّ فى آفاقه مُحدِّقة

وسبب للهاجسِ المشبوبِ فى صهد الحنايا الضيّقة

يتوقُ للإبحار والمغامرة

تسألنى،

تسألنى،

تُمطرنى الأسئلة المُحيّرة

ساعَتها عرفتُ يا صغيرتى، عرفْت

القطّةُ المناورة

تخطّت السياجَ نحو العاشرة!

* * *

عيناك، حيثما أكون، واحتانِ من أمان

شعاعتانِ من حنان

سحابتانِ بالهوى سخيتان

عيناكِ حيثما أكونُ، تغسلانِ قبْحَ هذا الزمن الردىء

وتمسحانِ عن مراياىَ عناكب النفوسِ الصّدئة
وتدفعانى كى أخوض فى الزحامِ والمناكب
وغابة الأظفار والأنياب والعقارب
من أجل أن أعود غانمًا،
لوجهِك الوضئ
مشتعلا بالغضبِ النبيل
والأمل المقاتل الجرئ
فى موعدٍ لِفَرْحةِ الإِنسانْ!
* * *
وردتنا تفتّحت، والعطرُ فاحْ
يا أهل هذه المدينة السّجينة العينيْنِ فى الإِطراق
انتبهوا،
فموكبُ الربيع مرَّ تحت دارنا
مكتملَ البهاءِ والإِشراق
تفتَّح التّويْجُ فى زُهيرةٍ مُلونة

وانسكب الرحيق فى مراشف الثمار
وحلَّقت نُجيْمةٌ فى أُفقِ المدار
تبثّ سرَّ شجوها إلى ضفائر الرياح
وهى تضمُّ صدْرها فى لهفةِ العناق
على تميمةٍ يصونُها الغدُ المُطلُّ للصغار
والفرحة التى تخلَّفت عنا وعن نهارنا
عادت بساتين وعطرًا وأراجيح مُنَى
يا أهلَ هذه المدينة المشدودةِ الأعناق
فى قبضةِ الزحام واللقاءِ والفراق
الليلُ نورَّت لنا دروبهُ الفساح
والقمرُ الذى على شباكنا انحنى
مُردّدًا تغريدة السّنا:
رنا[1]
رنا
فتشرقُ العيونُ بالأشواق!

---

(١) رنا: ابنة الشاعر.

حبة رمل

كانت حبةُ رملٍ تغفى، تائهة فى قلب الصَحراء
تلفحها الشمسُ،
ويقتلها البردُ
وتطمسها الأقدام السارية بليل البيداء
تتلاصق فى وَحدتها
وتنقّب فى حبّات الرمل الأخرى
تسأل عن سر يطوى فى بطن الغيبِ،
وعن أنباء:

ماذا يحمل هذا اليوم القادم بعد زمان القهرِ،

وطول الجدّبِ،

ووجه الوحشة والظلماء؟

ماذا يحدثُ حولى؟

فالكون، جميع الكون، يموجُ،

وحولى ترتجُّ الأرجاء

عرسٌ فى الأرضِ،

وأنغامٌ تَشدو

وبسمعى تهتزُّ الأصداء

أتسمّع:

هذا شجنُ الناىِ،

وهذا بّوحُ النخْلِ،

وهذى وشّوشةُ الأنداء

وأنا العطشى..

يغمرنى الظلُّ،

وأستلقى فى قطرةِ ماءٍ!

* * *

يتشقق وجهُ الأرضِ

وتشرق نبْتة نورٍ،

تصبحُ شجرًا،

تصبحُ أغصانًا وثمارًا وأمانًا

ويفيض على الكون الغافى وجهٌ أسْمى

يتفجر أُنسًا وحنانا

وفؤادٌ عرف اليُتْمَ

وذاق الحُزْنَ،

فأَقسم لا يترك أحزانا

نتأملُ جلْوةَ موكبه الأسْنى

ونطالع كيف يذوبُ القلبُ الوعْرُ،

وكيف يرقُّ الجبلُ الصلْدُ

وكيف يصيرُ الوجهُ القاسى إحسانًا

تتماوجُ فى الأعماقِ خيوطُ الحبّ،
وتفصحُ عن عروتها الوثقى
تصبحُ خيّطًا مشدودًا
نبضًا يتجسدُ إنسانا
هذا سمْتُكَ،
هذى خطوتُك الأولى،
تنسابُ على الأرض الظمأى
وتبارك فيض النورِ،
تجلّى فوق شعاب الدنيا إيمانا
ساعَتها،
تغّنو للّه جباه
الخطّو حياة
والنبض صلاة
والنظرة ترتدُّ وتدعو:
يا اللّه..

يا اللّه..

* * *

يجمعُنا يومُكَ،

حين نُجيلُ الطّرفَ، ونبحثُ عنّا

عن صوت حقيقتنا الخرساء

نتأمّلُ فجْرَ النورِ،

ويوْمَ الأسْرى،

والطُلقاء!

ورجالا من حولك صدقوا

كالشهبِ يقينا ومضاء

وملاحم كانت شرف الحقّ

يُروَّى بدماءِ الشهداء

وسيوفُ اللّه بأيديهم

تلتمع ثباتا، وفداء

يفجؤنا أنّا نحمل سمْتَ الوجْهِ،

ويغمرُنا عبقُ الأسماء

ننتسبُ إليهم؟

كيْف؟

وهذى صفحتنا..

نعرضها فى صفحتهم: أرضٌ وسماء.

حبّاتُ الرملِ تُطالعنا

وتُواجهنا

قدرًا يترصّد وقضاء

الأرض الحبلى تأْنفُ أن تحملنا

حتى نجعلها طاهرةً،

تتفجَّرُ قُدُسًا ونقاء

يتدفق فيها نهرُ الإيمان،

يُروِيّنا عطشى، وظماءَ

ويُجلجلُ فيها صوتُ الحق،

مآذنَ تعلو شمّاءَ

ونُسلّمها لغدٍ يأتى

أرضَ نُبوّاتٍ

لا أشـلاء!

الليل.. موعدنا

هو: يعلّمنى الليلُ أن الضياء الذى نترقبُ
لم يأتِ بعد
وأنَّا قطعْنا المسافاتِ عدْوًا
وفى الأفق وعد
هى: متى نتآلف والليلَ،
نصبح بعض نجاواهُ
أو بعْض أسرارِه؟
هو: متى نتعانقُ والفجْرَ

يحملنا العمرُ إلى نبع تّيارهِ؟
هى: بداخلنا يشرقُ النورُ،
فلْنتجهْ للحنايا
ونمْضِ وراء الزوايا
إذا أعتم الليل، حلَّ ضياءُ القلوبِ
فصارت شعابُ النفوس مرايا
هو: يُعلّمنى الليلُ شيئّين: أن أنتظر
وأن أتأمَّل لحْنَ الوجودِ،
وصمْت القمر..
هى: تطلّعتُ: هل آن للضوءِ أن يحتجب!
وأصغيتُ: هل آن للبوح أن ينسحب!
وينثال فى القلب دمع السّحب!

* * *

هو: سؤال.. جواب
وتمضى الحياةُ بنا لَهفٌ واقتراب

وآنا رحيقٌ،

وآنا عذاب

هى: نعود إلى الليل، نضرعُ من كلِّ أعماقنا

ونترك عصف الشجون على بابنا

لعلَّ صباحاً يجىءُ يُدثّرنا بالأمانِ

ويحملُنا،

ويضىءُ لنا كالشهاب

هو: هو الليلُ: بابٌ وباب وباب

وسرٌّ سيُفضى بنا للمدى

ويغمرُنا بالرحيق المذاب

نظلُّ نُردّدُ:

يا أيها الليل: هذى صلاةُ القلوبِ الكسيرة

ويا أيها العمر: هذى شعاب الدروب المريرة

ويا أيها الحلم: أطفىء شعاعك فى كلّ صورة

* * *

هى: ستسألنى عنك ساعاتنا
وتسكبنى فيك أوقاتنا
وقلبى صلاةٌ،
ودمعى ابتهال
هو: سيجمعنا الصفو:
صفْو الجمالِ، وصفْوُ الكمال
وينثرنا الليلُ: فوق الروابى
وفوق الذرى والظلال
هى: وفوق الهجير الجحيم، تلظّى
ودبّت أفاعيه تحت الرمال
هو: معاً نحن، فانطلقى يا صلال
وهُبّى زوابع ليل الجنون
ركاماً يسدُّ عيون الزوال
ويتركُنا للمصير المُحال..
هى: معاً نحن، أىُّ رضاً وامتثال!

وأىُّ تحدٍّ،

وأىُّ انعتاقٍ

وأىُّ انثيال!

فأجمل صفْو الليالى هوًى

يجىء على غفْلةٍ وارتجال

هو: ومادام فى القلب صوتٌ يُردّد

وفى مُقبلِ العُمر عُمرٌ تجدّد

فأهلاً، وإن لم تجىء، يا صباح

وأهلاً،

وإن جئتِنا،

يا رياح!(١)

(١) مقاطع من النجوى الشعرية الطويلة «الليل موعدنا».

ترنيمة للنـــور

عند بابى يستريح الظلُّ من نار الهجير
ويرفُّ العطرُ،
مسكوباً على خدّ الزهور
وتطوفُ الروح نشوى
سبحت فى فيض نور
عانقت صفْوَ الليالى
فى مدى الكون الكبير
وبأعماق الضمير

رعشة تنساب فى كلّ صلاة

وهوًى يملأُ نفسى بهداه

وضياءٌ،

آه كم يحلو سناه

وهو مسكوب ندىٌّ فى الصدور

سرُّه يسرى،

كما تسرى العطور

* * *

هزّنى رجعُ الصدى، يكسو المدى

فتسمّعتُ، وأصغيتُ مليّا

إنه الكون الذى قد أنشدا

يرسلُ اللحن شفيفًا ونديّا

كلٌّ شئٍ يتكلم

مُعلنًا مكنون سرّه

كلُ طيرٍ يترنّم
والتسابيحُ بذكره
فإذا الكونُ صلاةٌ ونشيدُ
وإذا اللحنُ شجىٌ وفريدُ
وإذا العمرُ - وإن طال - جديدُ
والأمانىُّ التى ضاعت تعودُ:
«يا ضياءً يتجلّى
وشعاعًا قد أهلاً
ها .. فؤادى يتملّى
فاستبقْ أهلاً فأهلا
يا رحيقًا يتقطّر
ونداءً يتعطّر
ها .. فؤادى يتنوَّر،
بضياءٍ قد أطلا»

* * *

لا تغيبى يا أماسّى الشعاع

لا تضيعى،

عندما يُطوى الشراع

إنّ فى صدرى رُؤًى لم تكتمل

وبقلبى صبواتٍ واندفاع

لاتغيبى،

قد سكنّا فى رحابك

واسترحْنا لرحيقٍ من شرابك

وسكبْنا العُمرَ غضًا فى إهابك

وتطلعنا لينبوع شبابك

فاملئينا بضياءٍ.. لايغيب

واحملينا نبضاتٍ فى القلوب

واجعلى منّا، ومن أشواقنا

أملاً، يشرقُ فى كلِّ صباح

وهوًى..

يسكنُ فى سرّ الرياح

جلــوة ليــل

كان طريقى يحملُ خطْوى، ويقرّبنى
وأنا أتلفّت بحْثًا عن نور يقينى
وأطلّ الفجرُ، فقلتُ: الآن وصلْتُ،
الآن عرفْتُ،
الآن أُروّى أشواقى وحنينى
لا قيْتُكَ عند ظلالِ الأفْقِ
وكان الموعد ساعَة تصفو الروحُ
تشفٌ،

وتكشفُ عن جلوتها
عمقِ نفاذ شعاعِ بصيرتها،
فتغادرُ طينةَ حيْرتها
وتُسبّحُ فى فلكِ الملكوت
خُطواتى تسرعُ نحو النور
وشراعى فى اللجّة منشور
والقلبُ الواجفُ يُؤوينى!

* * *

حدّثنى الليلُ عن الأسرارِ،
وعن مكنونِ حكاياته
ولواعج نفْسٍ ساهرةٍ تغتسلُ بدمعةِ أحزانه
يسّاقطُ فيضُ النور بدربى
ويضىء حناياى
تتلاصق نفسى فى نفسى
ويُغرّد طيرٌ فى قلبى

يحملنى الليلُ، ويأخذنى فى بستانه
هذى نجمةُ حبٍّ تتألّق
أقطف من شجرات الليل
ثمراً مسكوناً بالحكمة
أسبحُ فى ملكوت الليل
حتى أتلاصق فى شطآنه
ونداءُ الموجة يُغوينى!

* * *

يذكرُك القلبُ ولا ينساك
يا نجّمَ الليل المُتوحّد
لا تُغلق بابَك فى وجهى
فأنا ملهوف للقاك
لا تُبعد طيفك عن أُفقى
فأنا أنتظر عطاياك
يا وجه الليل المتفرّد

يا صوْت الليل المُتردّد

يا حزْنَ الليل المُتجدّد

الأرض حدودٌ لمراياك

والنفس وعاءٌ لحكاياك

يا نَبْعَ الرؤيا والإلهام

وجناحَ الجلْوةِ، والأنسام

ونداءَ الشوقِ المُتبدّد

إنّى والعمرَ على بابِكْ

ظمأً موصول

والفيض الغامرُ يدعونى

لهوًى مأمول

يا نجماً يلتمعُ ويخفى

وشعاعاً يقربُ ثم يغيب

من أىّ سبيلٍ تأتينا

وبأىِّ رداءٍ تكسُونا

فتضىء عيونُ ليالينا

وتُبدّد عن ليلى الخوفا

يا فيّض النور أضىءْ دربى

عطّرْ دنياى

يهواك القلبُ وينتظرك

يا سرَّ هواى!

زيت ونيران

خاشعًا،
أسترقُ الخطْوَ،
إلى الباب اتجهتُ
حاملاً أمسى ويومى،
وغدًا منه اقتربتُ
وعلى وجهى صلاةٌ فى ثناياها سكَنْتُ
وتسابيحُ عميقاتٌ برؤياها سبحْتُ
غمرت نفسى،

وفى درّب أمانيها انطلقتُ

ساريا،

أحتطبُ الوهمَ،

كأنى ما سريْتُ

وأرى قبضة أيامىَ عبئًا قد حملْتُ

وإذا نورُك يدعونى..

وللنور مضيْتُ

آن أن أنفُض زورًا،

فى مهاويه انجرفتُ

آن أن أقصد بابًا

طالما عنه نأيْتُ!

* * *

ومضــةٌ

وانفتحَ الدربُ وضيئًا،

فَعبرتُ

عالمٌ، سمْحُ الأسارير، طوانى

فانتشيْتُ

ويدٌ، فى موكب البشرى أشارت

فتبعْتُ

وخطى تنثال كالأنغام فى صدرى

سمعتُ

ونشيدٌ ساحر الإيقاع غنّى،

فطربْتُ

موكب بالمجد طوّافٌ طوانى

فصغُرتُ

صولجان الدين والدنيا..

وسلطانٌ..

وصوتٌ..

ويحَ نفسى..

كلَّما طالعتُ آبائى.. خَجلْتُ!

* * *

ظامئًا،

جئتُ إلى النبع المُصفّى،

فارتويتُ

ذكرياتٌ من عبير الحقِّ فاحت..

فانتشيّتُ

وثمارٌ من جنى الرّضوانِ وافتْ..

فقطفّتُ..

وحديث يقطرُ السّحْرَ

من السَّحر رشَفتُ

ورُضابٌ هوّمت نفسىَ فيه

فسكرتُ

فهو نورٌ فيه سرتُ..

وهو فيضٌ فيه تُهتُ

وهو سرٌّ..

إن أقل أخفى من السرِّ.. صدقتُ

وهو برقٌ من سنا الإيماض.. وافَى

فانتفضْتُ ..

ودعاءٌ.. كم تذوبُ النفسُ فيه..

إذْ دعوتُ

ونداءٌ من حُمّيا الروح،

لا يحدوهُ صوتُ..:

نحن فى يومك، لا نحنُ..!

ولا بيْتُك بيتُ!

نحن فى يومكَ:

تاريخٌ..

وتذكارٌ..

وفوْتُ!

نحن فى يومكَ..

أحزانٌ عميقاتُ

وصمتُ..!

نحن فى يومِكَ..

إعصارٌ..

ونيرانٌ..

وزيتُ..!

نحن فى يومكَ.. ثأرٌ

يمسحُ العارَ

وموتُ!

هئت لك

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

(سورة يوسف، الآية ٢٣)

انتساب

قيل: انتسبوا

قلنا: ننتسب إلى الماءِ

الشمسِ

الريحِ

البركانْ

هل ينتسب الحطبُ لغير النارِ،

وهل تنتسب الأرض لغير لصوص الأرضِ،

وتنتسب الجرذان لغير خزائن بيت المالِ،

وتنتسب الحملان لغير الذؤبانِ
وينتسب الأفّاكون لغير السلطانْ؟

* * *

قيل: اعترفوا
قلنا: أجرمنا فى حقّ القومِ،
فلم نُطنب فى القولِ،
ولم نظفرْ ببراعةِ أىّ استهلالْ
لم نعرف كيف نُفرّق بين الصفوة والسّوقة
بين الأمراءِ الخُلَّصِ، والأُجراء الأعوانْ
بين بُغام الطيَّر،
ونفخ دعاةِ الأبواقْ
فخَلطْنا الأوراقَ
وخالطنا الأسواقَ
ولم نُدرك معنى أىّ سؤال
لم نكسبْ غير الأعداءِ وغير الأرزاء

فى زمنٍ آفتهُ النسيان!

* * *

قيل: انصرفوا

قلنا: لن نَبرحَ هذى السَّاحةَ،

حتى يندحر الإِفْكُ

وحتى ينبلجَ الفجرُ

وحتى ينتصب الشعرُ

ويعتدلَ الميزانُ!

هئت لك

أتدفّأ فى ذاتى

أسمع قعقعةً، وأزيز رياح محمومة

أدرك أن عظامى عريتْ منى

جلدى يسّاقط مسموما

لحمى يتناثر من حولى

يتخطّفهُ طير جارح

وعيون تُنشبُ فىَّ مخالبها

والفةً تنهشُ أحشائى

الليل المنهمر السّاقط

عيْنا بومة

وأنا مقرور

انتظر بُراقا لا يأتى

وتأوّب ضِلّيل نازح

وصهيل حصان يركض فى أوردتى

يلسعنى الوقتُ،

ويخذلنى قلب مذعور

فى موقف بثّى وشكاتى

أسند جبهتىَ المهمومة

أتوارى خشية مرآتى

تتآكل ذاتى فى ذاتى!

* * *

أحكمت نوافذ كانت مُشرعةً فى وجه الريح

غلّقتُ الأبوابَ،

وأرخيتُ ستائرَ،

مسّحتُ الجدرانَ

وأشعلت النيران

وقذفت بنفسى فى اللهب الجامح

وهتفتُ لنفسى: هنئت لكِ

الآن أمنّتُ،

الآن تدفّأتٌ

فليعصف موج البحر المتلاطم

ولتطلق كلُّ الأحزان قذائفها الثلجية

ولتعْوِ الريحُ،

وتتهزمِ الأشجارُ،

ويجمدٌ فى النهر التيارُ

وتتهدمِ الدنيا

ما عاد يهمّ!

مادمت حبيس القلعة، والأسوار

أتدّفأ فى ذاتى

* * *

عبثًا تنشدُ ما ليس يُنال

والزمنُ المعطوبُ سؤال

يبحث عن معنى

نتقاذفُه..

يتقاذفُنا..

نحملهُ.. أو يحملنا

طللا مسكوبًا فوق رمال

وحراب الرعب تطاردنا

تثقب ذاكرةً،

تاريخًا،

سأمًا،

قلقًا،

تُمعن فينا فتكًا ومصاولةً

ولَجاج جدال

نتحسّسُ فى الجَنبين نصالاً فوق نصال

نتساءلُ:

هل هو هذا الزمن المزعوم لنا؟

نلعنهُ!

أم نبكيه!

العمر يصبُّ بنا فى التيه

يجرفنا مدُّ التيار

وتحرقنا لغةُ الأشعارِ

ونحن نحاول مُلْكا

نسّاقطُ هلكى

تنمو فينا شجرات الحنظل والصبارْ

تثمرُ سفّاحِينَ،

ومأجورينَ،

ومنخوبين من الإِعياء

ورجالاً أشباهَ رجال
يشطرنا همٌّ كونيٌّ،
وغدٌ محتال
يدفعنا وجه مشبوه
- لصّ أو صعلوك أو داعية أو زنديق -
يُدخلنا مسرح مأساة إغريقية
نتلبّس فى الحال شخوصا ومشاهد رعب مُختلّة
وفضاءٌ تسكنهُ الغربان
يصرع قِرْنٌ قِرْنا
يطحن حزنٌ حزنا
يفتك كلٌّ أخٍ بأخيه،
ويعلن أن الحق غريبٌ، لا يعرف أهله
لا ندرى مَنْ فى فلك الشيطانِ
ومَنْ فى حزب الرحمنِ
وأىٌّ الناس يُحكّم عقله!

فالساحة هدًى ومضلَّة!

والموت مسافة بوْحٍ

ومساحةُ جُرحٍ

وفُجاءة رحلة

جزرٌ تتباعد فى ثبج الطوفانِ

وتغرق فى موج الأحزانِ

وترفع شاهد مقْتٍ ومذلّة!

يا منْ يُغريه الوقتُ وتدفعهُ الساعةُ،

يتلصّصُ حوله

كىْ ينأى عن زمن هالك

أو طعنة لصٍّ فاتك

ولَّى زمن النَّفْطِ

وجاء زمان القحْطِ

وصار القرصان مظلّة!

عبثًا تتدفأُ فى ذاتك

أو تنجو يومًا بحياتك!

هلوسة

وأمدُّ عصاىَ،

الكلماتِ المحتقنة فى صدأ الأسْر

وأشيرُ إلى طير مازال يُحلّقُ

رغم سماء قد لوّثها غضبُ الأرضِ

وجوع الخلْقِ

وزيت الأوهام المحترقة

لكنّ الطائر يعرف وجهتهُ

الريح تشاكسه

ودخان الرعب يسدُّ مسالك رئتيه

ويختنق، ويمضى

غايتهُ فى أقصى الأرض، وفى قرصِ الشمس

من كلّ ثقوب الدنيا يندفع الطائر، ينطلقُ الشعر

هو ذا منسكبٌ

يتلبّسنى

أتلبّسُه

حالاتٍ، وقَوامًا، وشواغل

يتدافع موجٌ وحشىّ، يحمل من أصداف البحرِ

ويخلط فى لؤلؤه بعض حصاه وميراث الأيام الأولى

ألمح جمجمة سقطت من جندى لم يعرف من أين أتى

ماذا كانت وجهتُه

وقضّيتُه

حين يموت ويصبح بعض طعام للحيتانْ

وبقايا هيكل ديناصور

تمسك ببقايا بارجة رنّقها الموت
عالقة فى بعض طحالب مرجانية
سكبت فى الطمى اللاهث بعض أجنّتها
تفرخ فى زمن يأتى، لا نعرفُه،
رُعبا يسطو
أو موسيقى تغسل طينيّة هذا العالم
ورمادية هذا الإنسان
وتعيد إلى اللون الألوان!
محترقًا أبحرُ،
طيرا مجهولا يبحث عن سقفٍ
فى معبد أول مصرى قد أدرك سرّ الله وسرّ الكون
فحَنى، من فوق الوادى، الرأس الشامخ
وانزلق بأحضان البِركة
يغتسلُ، مياه النيل مقدسةٌ،
وسراب الأفق يُشاغله،

والقلب عليل

أغمس صدرى فى بعض روائح منف

أستاف عبيراً من طيبة

نفسًا يأتى من حضن البر الغربى

يؤجُّ عبير ملوك الشمس

أرحلُ فى زمنٍ منتكسٍ

محترقًا، أقبضُ جمْر السَّيلِ

وأصغى لحصى يتدافعُ

لا ألمس عقدا فى صدرى

أو أتمثل حادثة يغرق فيها اللؤلؤ فى ثبج الموْج

ولا أعقدُ ظلَّ مقارنة بين الشاخص والمتبدِّد فىَّ

تلك هيولى تبحث عن خالقها

وكواكب تفضى لمدارات محترقة

ورماد يكمل دورته فى الجسد الحىّ

وأنا -

يتمزّقنى خَلْق محكومٌ

بإسار السرِّ المختومِ

وتوجعنى آهٌ مختنقة

حين يفور بأضلاعى جوع جارف

لظلالٍ راحت تتكسَّرُ فى أحذية الجند

تتكسر رؤوس العشبِ

وتهوى أعواد اليقطينِ

وتفرخ أحزان نيلية

حتى يستحضرنى الحاجزُ

يُمسك بى

هأنذا بعض طيور الزينة

مشدود السّاق إلى قاعدة خشبيّة

محمول حيث عيون الناس تطالع فىَّ جَمال الموتِ

وسرَّ الصمْت

فى بيت عصرى مشهود

أتأمل ما يسّاقطُ من فضلات الحفل
يُلقيها مَنْ أتخمهم زخم المائدةِ
وأغراهم جاه السلطان
وأنادى فى صوت مكتوم:
العصر مُدان
عجّل بالرشوةِ،
فالأيدى حولك مُمتدة
واحمل قنبلة موقوتة
قد تنفجر وأنت قريبٌ
أو أنت بعيدٌ ـ سيان!
العصرُ مُدان
اخرج للسوقِ،
وخلِّ الصدر العارىَ يستقبلُ عنك سهام القومِ،
ويُبحر فى الأحزان
واشخص بالقول ولا تتردّد

ليس على المجنون حرج!
فاغنم هذى اللحظةَ،
قد لا تتكررُ أبدا
واحمل سَيفَك،
ليس لما ترجوه ضمان
أحذيةُ الجند على صهواتِ الناسِ
ففيم مُبارزةُ الفرسانِ؟
وفيم ملاطفةُ الحرَّاسِ؟
وفيم مُلاعبةُ الأعوانْ؟
والراكب، لو يدرى مركوب!
أطلق شكواكَ.. الدارُ أَمان
مثلُك لا يُغريه الوقتُ
ولا تفتنه صاحبةُ الإِيوان!

القصيدة والرعد

كان بين القصيدة والرعد ثأرٌ قديمْ
كلّما نزفَتْ بوْحها
لاحقتها سنابكهُ بالغبار الرجيم
فتهاوت على درج الأرجوانِ
مُضمخة بالأسى العبقرىّ،
ودافنة همَّها فى انعقاد الغيومْ
القصيدة، باكيةً، تستجيرُ
وللرعد مطرقة وزئيرٌ

ودمدمةٌ،

وفضاءٌ حميم

وانتشاءٌ يخامر كلَّ الذين يُطلّون من شاهق الكونِ،

يمتلكون المدى والتُّخوم

القصيدة ها.. تتناثر كالذرِّ

سابحة فى هيولى السّديم

تتفتت ذائبة فى عروق الحجارةِ

فى غِرْيَن النهرِ،

فى جذع صبّارةٍ..

شوكها من حروف الشقاء النّظيم

ثم ترتاح من وحشة فى العراءِ

ومن شجنٍ فى الدماءِ،

فتأوى إلى الليل،

ساكبةً دمعها

فى عيون النجوم!

* * *

القصيدة، شاخصةً، تتساءلُ
وهى تطلُّ على الكونِ..
أىُّ بلاءٍ عظيم!
ترصّدنى الرعدُ
حتى انطفأت
وأوشكتُ أذبلُ
أوشكتُ أرحلُ
رعدٌ يُباغتنى
قلت: خيرٌ سيأتى
ودنيا ستُمطر..
لكنه انجاب.. رعدٌ عقيم!
هل أجاريه قعقعةً؟
الوجود ضجيجٌ
له لغة من رمادِ المداخنِ
والأفق كابٍ دميم

فجأةً،

مثل ومض الشهاب

ووقْع النبوءة فى القلبِ،

ها،

يتكشّفُ لى بارقٌ.. لا يريمْ!

لا تخافى من الرعدِ،

وانطلقى بالغناءِ،

الغناءِ الذى يتخلَّلُ هذا السّديم

لا تخافى من الرعدِ، لا

إنه زمنٌ عابرٌ

والقصيدةَ فاتحةٌ..

وزمان مُقيم!

اعتذار..

ليس ما نحملُه اليوم.. سهاما
إنها أوسمةٌ،
جئنا بها معتذرين،
بعد أن فات الأوان
لم يعد يبرقُ في الكفّين رمحٌ أو سنان
واقتتالٌ،
واحترابٌ، وطعان..

---

* فى وداع يوسف إدريس

حسمَ الموتُ اصطراع المُنكريك
حينما ضنُّوا عليك
عشيتْ أعينهم دونك، لم تُدرك مداكْ
وامتلا القلب المجافي لك نُكرانًا ونقمة
فاغفر اليوم لهم، لم يعرفوك
لم يروْا أبعد من أقدامهم، حين انطلقْت
عاريَ الصدر، جريئا، نازفا
تتلقاك سهامٌ، وحرابٌ، ونصال
تتواري، كلّما حدقتَ، أشباهُ الرجال
تتخطَاك حتوفٌ،
ويُجاريك انفعال..
رافعًا بيرقك العاليَ، كالنجم المضيء
تطلبُ القمةَ،
من غير شبيهٍ، أو شريك!

* * *

أيها الضاربُ في ليل الكتاباتِ،
وفي ومض العذاباتِ،
وفي همِّ البلد
باحثا عن جلْوة العقل التي تسطعُ،
والحلم الذي يركعُ،
والفيْض الذي يُعطي المددْ
كم تآكلْتَ!
سري جسمُك فينا،
شجراً يورقُ في أوصالنا
عُشباً نديًا، حارقا
ونسيماً.. لافحاً
كم كان يُغوي عاشقيه
ثم تنقضُّ يدٌ مقتحمة
لم يزلْ يأسو
ويكوي الجرحَ في آنٍ..

يعرّينا،

ويكسونا

ويُلقي حُمَمه

واقفاً بين انتماء القلبِ والروحِ،

وعدّوي الموتِ والغفلّةِ،

مصلوبا

علي وخْز سطورٍ مُفعمة!

* * *

عجباً،

كيف ائتنسّنا بكَ،

حتي لم نعدْ نَذكرُ يا مُقلقنا،

معني القلق

فاسترحنا..

للذي يأتي ولا يأتي

وداوينا هُزالاً، بهزال

أتُرَاهُ سمْتُك الحاني احتوانا

فغفرْنا صَوْلتك؟

أم تُراهُ صوتُك المنذورُ،

لما اكتملت أصداؤه فينا

تواري..

فاستبنًّا صرْخَتك

وعرفْنا حكْمتَك!

كيف أسلمناك للقهر الذي يغتالُنا

ونسينا أنَّ هذا الجبلَ الشامخَ،

ماءٌ ورمال!

عصبٌ عارٍ

وأوتارٌ،

وجُوعٌ،

وسؤال!

كيف من نَفْسك لم نُشفق عليك؟

وتركْناك مع العمر المُدمّي

سائراً، فوق نزيفٍ واشتعال

عجباً،

كيف ائتنسْنا بك في ليل الكآبات الثقال

فَخُدعنا

عندما طالعْتَنا ذات صباح

سارياً في لغة الأرض،

وفي جِذْع السماء

أفُقاً محدودباً يحنو علي أوجاعنا

وجمالاً

غابَ في أَوْجِ اكتمال!

محاولة لاصطياد رامبو

طفل نزقٌ،

كرةٌ من لهبٍ،

وعل برّىٌّ،

يركض فى عشب الغابات المحترقة

ومدًّى يتخطّفه اللمحُ،

ومجهول يتقصّفُ،

يُفصح عن لغةٍ نافرةٍ

تقفز من رئةٍ مختنقة

طفلٌ فى ملكوتِ الله
يعاين بعض فساد الكوْنِ
فيقذف وجه الليل بسهمٍ
يَشْهرُ قبضته فى وجه الريحِ
ويسحب نَفَسًا ممصوصا
وتصوغ أصابعه كونا من كبريت
وحقولا من ألغاز
يَفرغ من لُعبته،
ويُحدّق فى الوحشة
فتلاحقه أشباح سودٌ،
وجحيمٌ ضارٍ،
وعيون وحشية
يتسلّق أعلى سارية
ويطلُّ على أفق مخبوء
ويحذّر من هول الآتى

ترصدهُ عين مخترقة!

* * *

هو ذا

يمسك قلما

يشطب تاريخا

يكشف عن شهوته للوطءِ

ولمس تخوم الكونْ

ترتطمُ حدود الأرض وتهتز الجغرافيا

ما بين الساقِ إلى الساقِ

تعومُ القارّاتُ

وتتبطحُ الصبوات

وتأتلقُ الجلَواتُ

ويسطعُ فى الزمن المختلّ بهاء العقل

ها أنت يُراودك الإغواء

تسكنكُ النارُ الوحشية

وتصبُّ حريقك فى الأشياء .
يتطاير منك رمادٌ شرقى
شَبقٌ مجنون الأعضاء
تلْقفُه الأرض على استحياء!
فى أىِّ الأوقاتِ
تدورُ على نفْسِكَ
لا تتجاوز؟
فى أىّ بقاع الدنيا
ترسى المرْساةَ
وتُقعى،
لا تتقافز؟
فى أىّ الحالاتِ
تقول: الآن وصلتُ
الآن عرفْتُ
شبعتُ،

وأُتخمتُ،

وداهمنى الإِعياء؟

الصبوة لا تسلمُ إلا للصبواتِ

وجوعك مرهون بالموتِ

وهذا الحائط لا يفضى إلا للصحراء..

ففيم العجلةُ؟

خفّف هذا الوطءَ

وإلا حرّكت الأشلاءَ

ودبّت روحك فى شجر الزقومِ

وجاوزت الحدّ إلى الفعل المرجومِ

فأفسدّتَ السّاكن فى ملكوتِ الله

وأيقظت نفوساً عمياء!

* * *

طفلٌ آبق

يقفز من شرك الكلماتِ

ولا تُغويه بلاغتها المسكونةُ بالضوضاء
هل ننصبُ فخًّا شعريا لأمير فِخاخِ الشعرِ
وهل ننجحُ فى صيد الوعل البرىّ،
وكرةِ اللهب المُرتجّةِ،
وخرير الماء؟
جزرُ المَرْجان تلوحُ
وعشبُ الكلماتِ يفوحُ
وطلحٌ إثيوبى محترقٌ
يتراكم فى نهرٍ مسفوح
وشراعٌ يُبعدُ فى اليمّ
فرارًا من أَسنِ الكوْنِ
وجذْبِ الروحِ
وتوقٌ للمجهولِ..
يراوغُ .. ثم يراودُ .. ثم يبوح
وزمان بالوصل شحيح..

رامبو..

إخصابٌ تحمله الريح!

مكان ضيق القلب

نهضتْ من نومها،

واكتست وجها جديدا للصباح

ها هو الوجه المراوغ

ينتقى أغلى المساحيقِ، وأبهى الأقنعة

علّه . قبل طقوس الذّبح .

يستدنى رجاءً ضارعاً منك

وتصديقا لما يحدثُ

فالعبء ثقيل

إنها تعرف ما تصنع
ما سوف تقول
فلديها ألف عذر يقتل الوعدَ،
وألف من أعاصير الفصول
سوف لا يستغرق الأمر سوى لفظة: «لا»
وهى تهوى مثل سكين تجول
وهى لن تفتح بابا للحكايا والفضول
حسْبُها أن ردَّدَت «لا»
وانتهى الوقت المتاح
فلماذا وقفة العاتب يا قلبى
وإطراق الذهول
ولماذا لم تزل تسألُ
والعمر قصير وبخيل!

* * *

وانطوى يوم جديد

لم تمت،

مازلتَ حيًّا يتعايى

آه، لو جرَّبت أن تُغمد فى الصدر البقايا

لاسترحْت

ولعدتَ الآن من وهمٍ تصبَّاك إلى الدنيا البعيدة

والمدى المفتوح فى وجه النهار

لمكانٍ ضيق القلبِ،

وحزن جارف المدِّ

وظلٍّ يحتويك

عُدْ إلى الكهف الذى يعتمُ فيك

واسكن الظلمة والوحشة، والصمت البليد

واستعدْ وحدك تاريخا من القهر العنيد

إنها نفسُك، فاسكنها،

ولا تبحث لميراثك فيها عن شريك!

* * *

عبثًا ينسيك «لا» وجهُ «نَعمْ»
عبثاً تنهض من كبوة حُلمٍ لم يطلْ
حين داسته الخيول الراكضة
وتلاشى فى سحابات الغبار
إنه الجرح الذى يمتدُّ فى الفوْرِ ويمتدُّ
ولا يدرى أحدٌ!
فتماسك..
واتئد فى خُطواتك
واحتمل وقع الذى يأتى من العمر ويمضى
دون أن تحفل فيه بانتظار
ها هو الوجه الذى أدمنت
مبسوط على الدنيا
فلا مهرب منه أو فرار
ها هو الليل الذى واجهْت
أخدود عميق الجبّ، من غير قرار

ها هو الحلم الذى طاردْتَ..
تاريخ مُدمًّى، وانكسار
فتعلم..
لا يزغْ خطوك فى الوجه المراوغ
واغتسلْ
هذا هو الضوءُ.
وفى الأُفقِ ينابيعُ نهار!

البحــث عــن مــأوى

يولد من رحم الحلم ويسبقنى
يتشكّلُ،
وجهاً وحشياً،
عاصفةً
أو لعنة نارٍ
تشعل حطبَ الوقت،
وتُشعلنى
أتقدم بحثا عن مأوى

هذى أحشائى بين يدىَّ

وعُريى يتقدمنى

فلمن أنحازُ؟

أهوِى شرقاً؟

أهوِى غرباً؟

لا ضيرَ..

صراط الرعب يجاذب خطوى

ويدحرجنى

تقتحم الكهف شعاعةُ نور

فأرى الأشياء تبالغ فى إعلان دمامتها

يولد من رحم القهر، ويسبقنى

المارد يسحق عشب البيد، ويسحقنى

أتقدم بحثا عن مأوى..

مأواى الليلُ.

وسجّانى لا يعرفنى

حتى أحزانى.. تُنكرنى!

* * *

سَبَقتْ خَطْوَ الريح وفاضت عطرا

فتثنت أعناق الركْبِ نشاوى

وانخلع القلب لموكبها

راح الحراس يفضّون غطاء السرِّ،

ويختصمونَ:

لماذا اجتمع الناس؟

وماذا يحدث بين العطر وشجر الليلِ؟

وأىُّ مؤامرةٍ تُحبك فى مملكة العشقِ؟

وأىُّ ذراع تبدأ فى دورتها إذ تلتفُّ

وماذا يسكنُ فى قبضتها؟

سكينٌ تُغمد؟

أم لغم يوشك أن ينفجرَ!

وطلعة فجر تسفرُ عن جلْوتها!

من أعطاها اللونَ؟

وصبّ سلاف النعمة فى زهوتها!

يا حُراس القلعة

يا من تمتحنون الناسَ،

وتلتمسون لهذا الحفل بطاقة إذن أو تصريح

إنى مدعوٌّ

هذى لغةُ الوجدِ

ولونُ الشوقِ

وآهاتُ التبريح!

* * *

عجلّ قبل مغيب الشمسِ

وحظّر الهمةِ،

والتجوال..

وادخل شرنقةً تؤويك..

فكِّر أنك حين يجىء الليل مُطارَد

هذا شِعر الوقتِ

ووقتُ الشعرِ

وبارودُ الأشياء

فاسبق دمدمة الزلزال

الآتى يوشك أن يُفلت

يترصّد موطىء خطُواتك

ينتظر مُثولَك دون شريك

هل تأذن يا مولاى الشعر؟

أن تجعلنا بعض رعاياك

أن تمنحنا بعض المعنى

تؤوينا أنتَ

وتجمعنا

هل تأذن يا مولاى الشعر؟

إنا بالباب على استحياء!

الزمن الغارب

كنتُ اقولُ لنفسى حين تُراجعنى نفسى:
لستِ مجرد وجه امرأةٍ
أتأمل فيه جبروت الحسّنِ،
وزهوه..
لسّتِ مجرد عشٌ ليليٌ، أو مأوى
يقذفنى نحوك..
جوع، أو برد، أو شهوة
لستِ صحيفة يوم فارغ

أقرؤها..

وأنا أرشف قطرة سمٍّ فى قهوة

لكنك وجهى الغائبُ

لغتى حين تفوحُ

ونزفى حين يبوحُ

وبعثى حين يلوحُ

فيصبح نشوةً!

* * *

كنتُ أقولُ، وأُسرفُ، لا أتَورّعُ:

حين يسيلُ الفجر،

ويسكبُ عسجدَهُ

فنُلاحق خَطْوه

أسرعُ نحو بقية ضوءٍ

فرَّت منكِ،

وجاءت تهبُ الكوْنَ..

فُجاءةَ جَلوة

هأنذا أستندُ إلى مُتكأٍ منّكِ

ويومٍ يأتى أو لا يأتى

يوقف فيه قطارُ الزمن الموحشِ

عَدْوه

لستِ مجرد وجه امرأةٍ

أنت بديلُ الزمن الغاربِ

حين تداعى

ثم ترنَّح فى كبوة!

* * *

هذا الوجه غريب عنى

يوشك يطعننى ثانيةً

أوشك أن أتحسسَّ جُرحى

لستُ غريرًا بعدُ،

وليس الزمن القادم مُتّسعا

ليناُجزنى

وأُناجزه

فتطيش حرابى فى نَبْوة

لستُ غريراً بَعدُ،

وهذا الوجهُ غريب عنى

لكنْ

هـأنذا مُتّجه نحْوه!

هذا زمنُ الخطّائينَ،

وهذا قدرُ المنْفيّين،

لأصفر هَفْوة

فلأتأمَّلْ

أين خطاى؟

وأين سماؤُكِ بعد سَماىَ؟

وأرحلْ -

عنْكِ

وعنّى

وعن العُمر المائلِ فىَّ

خُطوطاً،

ألواناً

وروائح

وتضاريسَ اختلَفتْ

شقّت أُخدوداً

قذفتْ حُمماً

كَسرتْ قشرتها

فانطفأتْ روحى

وتداعت

فى هُوّة

وتجاعيدَ اندلعت..

أتحسّسها..

وأنا

اقرأُ فيك كتابَ الكونِ

فادركُ

جِدَّ الزمنِ

وَلَهْوه!

صيفية

هَطلتْ، فاخضوْضلَ القلبُ الصدِي
أيُّ نُعمى بعد فوْتِ الموعدِ!
أيُّ دنيا انفتحت أبوابُها
وهي تخطو كالشعاع المُبْعدِ
أيُّ حلمٍ رائعٍ، أيُّ مدًى
أطلقتْه، واختفتْ كالبَددِ
أيُّ بستانٍ تجلى ثمراً
وتهيّا لقطافٍ... ودَدِ

كلَّمـــا قـــاربتُ منه أمـــلاً
عــريتْ روحى ولم تُمــسك يدى

* * *

هـطلتْ فــانهلّ وعــدٌ، مــثلمــا
رفــرف الطيـــرُ بأفقٍ مُوصــدِ
أنا ذا مكتــشفٌ قــيـدى الذى
حــزَّ فى ســاقى وأدمى جَلَدى
حــــامــلٌ ثِقْلى الذى نُؤتُ بِه
وأنا أرجـــو انفـــراج المَشْهــدِ
نــاطـحٌ ســـقـف زمـــانٍ، ظلُّه
فــوق صــدرى جــاثمٌ كـالرَّصـدِ

* * *

أىُّ بُشـــرى حــملت أعطافُهـــا
فى تجلِّى وجـهـهـا الطلْقِ النَّدى
فى تثنِّيــهـــا، وفى لفْتـــتـهـــا
لغـــةُ البـــوْحِ، وآه المُنشـــدِ

وبعينيّها، وقد أوْمضَتا

رفَةُ الحلمِ الكريمِ المُسعدِ

يا تُرى.. تكفى حياة بُسطت

وامتدادُ العمر حتى الأبدِ

لأروّى ظمأً، لا يرتوى

واشتياقاً، كاللظى فى كبدى!

يا أوانَ النَّزق الحلوِ اقتربْ

يا فضاءاتِ الوقار ابتعدى

يا سُعار الرغبة الكبرى اشتعلْ

وأعدّنى جمرةً فى الموقِدِ

وافت اللحظةُ، فاخلط زمنى

وامزج الأمس ببركان الغدِ

وأعنّى، يالهول الملتقى

أىُّ حشدٍ أرتجى! أو مَددا!

* * *

آهِ لو تدرين ما خلَّفْتِهِ

من حريق الخاطرِ المتّقدِ

واندلاع الجوع فى صهد الجوى

واشتعال الروح عبر الجسدِ

فتنٌ أنتِ لقلبى خُلقت

وغوايات صبا، لم يرشد

لا تكونى ومض حُلمٍ، فَلكمْ

ذقتُ ليل البائس المنفردِ

أنت عندى هبةُ الله، التى

ليس يدرى سرَّها من أحدِ!

عصفورة

من فوق الجبل العالى حطّت عصفورة
عيناها وطنٌ فى الأسْرِ،
جناحاها حلمٌ بالعودةِ،
أمدٌ ناءٍ كالأسطورة
طارت فى بهو القلعةِ
عبْرَ السورِ،
ومن فوق الأسلاك الممتدة
فارتجّ بداخلها فرحُ اللُّقيا

وانطلقت زقزقة القلب

وترًا مشدودًا فى الصدرِ،

وهسهسةً تسعُ الدنيا

عصفورة قلْبى، غيبى أو عودى

طيرى أو حُطّى

سيّانِ،

فهذا العشُّ قرارُكِ

هذا القلبُ مزارُكِ

حين يفيض القلبُ بما تُعطينَ

تلاحقُ أنسامُك صمتى

يتألقُ عزْفُ الروحِ

ويهدأ شجنُ الريحِ

يوصوصُ نجمُ الليْلِ

وتهدأ آهاتُ التبريحِ

وتكتملُ الصورة

فى ومض الجلوةِ محفورة!

عودى بروائح هذا الحلمِ،

نسائم بهو القلعةِ

وجهٍ شرقىٍّ القسماتِ

وصهدٍ يُشعل تنّوره

الوجدُ الكائن يفصحُ حين نبوحُ

شعاع الفجر يُلاحقنا

وخيوط العمر الموصول

غيبى أو عودى

هذا عطش القلبِ يزولُ

وهذا وجه الزمن يحولُ

فتُقبل دنيا مسحورة

قلبى مشدود ليغنى

واللحن سجين

غيبى أو عودى

العمر قصيرٌ وشحيحٌ
والعش حزين
فمتى تأتينَ..
متى تأتين!

تشكيل

شاخص كالدمى، عالق بالجدار
ظلُّه المرتدى غبطة زائفة
والجبين الذى تُقلع العاصفة
من ثنايا تجاعيده الزاحفة
ناحل فى اصفرار
دمدمت فوقه لحظة كاشفة
فهوى قلبه قشةً واجفة
واستدار النهار

لائذا بالفرار!

* * *

قلت: لا تمتثل، فاستدار الصدى

محكما قبضة فى ذراع الرياح

واستهلّ الصباح

سجنه الموصدا

مسدلاً وجهه، حائلا أسودا

واستمر النِّدا

قلت: لا تمتثل

لم يجبنى الصدى

وانطوى غائبا فى اشتعال الهوى

ونزيف الجراح!

* * *

للهوى موعد...

ها أوان البشارة

مثلما غيمة تستهلُّ: ائتلاقُ المعانى
ووقع ارتطام العبارة
يا رفاقى الذين استطابوا خيوط المهارة
واستظلوا برشوة هذا الزمان المخيف
وارتضوًا سكة لاغتراب الحتوف
واقتسام الرغيف
وعدنا قائمٌ...
فالبسوا كلَّ لفظ
واستقيموا وراء الحروف
وابعثوا فى قواديسها خيط ماء
جدبنا شامخ..
والوجود استعارة!

أغنية حب إلى عمّان

كانت تشاغلنى...

وكنت أزورها فى الحلمِ،

تحملنى عيون المغرمين بها

عصافيرُ الحكايا عن مرابعها

ورفرفةُ الحنين لها

ويجرفنى انخطافُ الحرفِ

وهو يصوغ أغنية التولُّهِ

دهشَةَ اللقيا

ويمسح دمعة عند الرحيلِ
ولم تكن عمّان للسارين فى ساحاتها
المتقاسمين عنادها الصخرىَّ،
والحظَّ القليل
الساهرين لومضةٍ تتداح فى مصباحها
المتصعلكين على مساقط فيِّئها ورمالها
كانت لنا
نحن الذين نشبُّ بالأعناق من خلف الحدودِ
نكاد نلمس باليدين المستحيل
ويشدُّنا عبر الصحارى الشاسعات مدًى
وأغنية لقافلةٍ تفتش عن دليل
وصدًى من الغور البعيد يئنّ عبر رياحها
ويسيل تحت جراحها العطشى، يسيل
كانت لنا
جبلاً ونارا،

واشتعالاً فى عروق الومضِ،

فى زمن التوهجِ،

موعداً فوق النجومِ

وتلّةً منها نُعيد الكرَّ

نقتحمُ الذى لم يأتِ بعدُ

نروم فيه صياغة الدنيا

ونلتمسُ السبيل!

كانت هى الزمن الجميلَ،

وكان فينا، أننا فينا أقمنا،

لم نُغادر جلدنا المشدود فوق القهرِ،

لم نرحل عن النبع الذى يسرى،

ولم نُشغل عن الليل الطويل

ويظلُّ وجه دافىء القسماتِ

مزهوُّ الملامحِ

يستحثُّ خُطى الإيابِ

يمدُّ كرْمته لمن عبروا
ويعتصر السَنين رضًا
ويحمل فوق طاقتهِ
شجونًا،
وانكساراتٍ،
ودنيا، مالها أبدًا مثيل!

* * *

كانت تشاغلنى فأحلمُ
لا أصدّقُ أن يومًا قادمًا، تتحقق الرؤيا،
وها
عينان فى عمّان أَشْعلتا رماد العمرِ
فانسكب اللهيب على الفتيل
وذبالة كادت تضيع سُدًى
وكاد قَوامُ ومضتها يميلُ
توهّجت ألقاً

وضجّ الصحو فى العود النّحيل

هى لحظةٌ،

وتعيدُ عيْنٌ بوْحَها

ويفتش العشاقُ عن مأوى،

وتتهمكُ الأماكنُ

مُشرعاتٍ للعناقِ الرَّحْبِ،

والشوقِ الجميل

عمّانُ فى عينيكِ آسرتى

وذاكرتى

وباصرتى

إذا احتاج النهارُ إلى دليل

هذا هو الصدر الحفىُّ يضمّنى

ويفور فى صهد الحنايا ألف عاصفةٍ من الوجد العصىِّ

وتُسدلُ الدنيا ستائرها على الوجه القبيحِ

وتصبحُ الدنيا لنا .

يا روعة اللقيا

ويا وعدًا به يتلطف الزمن البخيل!

حديث اليمامة

عندما سمّيتُ عينيكِ .. يمامة
لم تحدثنى النبوءاتُ عن الوعد الذى يُجفلُ،
والقلب الذى يسعى حثيثاً للهلاك
ثم ناديْتكِ،
مسحورًا بهذا الغىِّ،
مأخوذا بما يعرض لى من نزق الوقتِ
ومن هم اشتهاءٍ وامتلاك
وتماديتُ،

فسمّيْتِك رفّات جناحى

وائتلاقاتِ صباحى

حاملاً همّ انطلاقى فى مدى العمر المتاح

قدرًا يرصد خطوى

وأنا أجتاز أفْقا من شباك

لا وعينيْكِ

وما تحمل لى جبهة أيامى المريبة

لم يعد غيرك لى مأوى،

لروحى سكنا،

وأنا..

حذرا أخطو إلى موعد صحوى وانتشائى

وأنا أدلف من بين الشرايين، وأرتدُّ

فلا يسعفنى نبض حضورى وانتمائى

ذائبا فى دورة الحلمِ الذى يولد حتى يتشكلّ

طالعا فى سنبلات القمحِ،

أو عيدانِ كرْمة

مُشرعاً فى جهة الريح التى تعصفُ،

والأفْق الذى يُعتمُ،

والقلب الذى ينأى ويثقُلْ

ساقطا ما بين زهوى وانطفائى

ومدى يزداد قبحا وجهامة

عندما سميتُ عينيكِ يمامة

وتمنيتكِ لى، مهما يطلْ بى المنتأى،

وطناً،

ماجت أعاصيرُ القيامة

حجبونى عنكِ،

دارت بى الفضاءاتُ،

ودُقّت بيننا الأسلاكُ،

وامتدت زنازين القتامة..

حجبونى عنّكِ،

نزّفى يتخطّانى إليّك،

راسماً لى أثرًا فى الأرضِ.. ها

موعدا لا بُدَّ يأتى

لحظةً أرفعُ فيها الرأسَ

مزهوّا بخطوى ودمائى

وبأنى فى طريقى لكِ

ميلاد علامة!

انظرى،

ما الذى يحملهُ الأفق؟

وماذا يخبّئك الليلُ؟

وراء الجبل العالى سحابٌ يتجمع

ودخان يتصاعد

وطيور أدركت معنى النبوءة

حوَّمت تنذرُ من؟

مَنْ تُرى يقرأ هذا القادم المخبوء فى عين اليمامة؟

يرفع الراية فى الريحِ،

ويُعطينا الإِشارة

هيه يا زرقاءُ..

ماذا يضمر الليلُ لنا؟

أنا أهواكِ،

وأفدى ومضةً منكِ بعمرى

وأرى فيك امتداداتى وأسرار وجودى

ذائقا من خمرك الشهد المُصفَّى

مُدركاً أنَ الخلايا تتعانق

والنسيج الحىّ فينا يتشابك

والوجود الرحب، من غيرِك، سجنٌ ضمّنا

أنا أهواكِ،

ولكنّ وجوه الناسِ حولى مستعارة

ألفت هدهدة العيشِ

وإيثار السلامة!

إنّ فى عينيك - إذ أقرأ - أهوال القيامة

فدعينا نتماسك!

واهتفى بالقوم يصغون إلى عينىَّ يمامة:

جبلٌ ينطق أشجارا

وأشجار تشكّلن رجالاً

ورجال يسكنون العاصفة

فلنقاتل..

إنه اليوم الذى يأتى، فنعطيه ولا نملك ردّا

قادم مهما ظننّاه ترجَّل

ورمى البيرق للريح وغاب

آهِ يا يوم الحساب

كم تنظَّرناك كى تولد من قلب الشرارة

فاصلٌ أنت، وفى كفَّيك تحقيق الجواب

فلْنقاتل..

دون حُسبانٍ لربحٍ أو خسارة!

البحث عن بداية

من أى قاع سحيق سوف نبتدىءُ
وكلمـــــا لاح نجّم راح ينطفىءُ
العمر ضاع سدىً، عمر بأكمله
ونحن نلبس حلما بات يهترىء
نستقرىء الغيب علَّ الغيب يسعفنا
ونستريح إلى السلوى ونتكىء
تئودنا عثرة حتى إذا اعتدلت
أقدامنا خطوة عدنا فننكفىءُ

هذى القـبـيلة قـد فـحّت ضـغـائنهـا
فليس يجـمـعـهـا مـاءً ولا كـلأُ
إن تسّع يومـا فـفى خُلف وتفـرقـةٍ
وإن تسـرْ فـعلى أقـداسـهـا تطأُ
هـل يكتب الـدهـر عنهم أَنـهم وُئِدوا
أو أنهم بُعـثـروا فى التـيه واختـبأوا
وأنـهـم ذات يوم هـاهـنـا عـــبـــروا
على الرمـال، ويومـا هـاهنا طرأوا
اللهَ فـى هـممٍ باتت مُضـــيَّعـــة
وفى نفـوس عـرا جـدرانهـا الصـدأ
هذا هو الجمع، عِقدا كان، وانفـرطت
حـبّاته، مـثلمـا قـد ضُيـعت سـبـأُ
يا من رمـــيت فلم تدرك لأى مـــدى
لما رمـــيت، ولما طُيّر النـبــــأُ
ليس العـدو أشـقـاء عـصـفت بهم
غدراً، وأنت على الأرحـام تجـترئُ

سلبْتَهم جلوة الدنيـــا وزينتـــهـــا
وديرةً، فى ليــالى أُنســهــا نشـــأوا
كم آزروك وودوا لو فـــــدوْك هوًى
كم دافـعـوا عنك أخطارا وكم درأوا
وألّهـوا منك فى أعـمـاقـهم صنمـا
لمثل طلعــتـــه فى ليلهم ظمــئـــوا
طعنت حلمــهم الوردىّ، حــين رأوا
أن الذى عـــشـــقـــوه منه قــد رُزئوا
وأن خنـجـرك المســمـوم حـين هوى
أصــاب قلبـا بفـيض الحب يمـتلىءُ
ليس العدو شقيقا قد عصفت به
غـدرا وأنت على الأرحـام تجـتـرىء
إن العــدو بســاح القــدس تعــرفـه
كلُّ الرصــاص الذى أطلقْتــه خطأُ!

* * *

فى معرض الكون يجلو الناس صورتهم
ونحن يأسى على مأساتنا الملأُ
كانوا فحولا، فغاصوا فى مضاجعهم
وكلما أخذتهم رجفة قمؤُوا
كان السبيل هدى لو أنهم رشدوا
كان النهار ضحى لو أنهم جرؤوا
كان المدى باذخا من حوله احتشدوا
فليت أنهمو تاريخهم قرأوا
لست الزمان الذى نرجو، وليس لنا
لديك إلا الردى المسموم والحمأُ

* * *

يا أيها المريدُ المحزون كم حشدوا
من حول نارك، ماكلُّوا ولا هدأوا
كانت زمازمهم فى الساح واحدةً
مكرورة اللحن تُنهيها ليبتدئوا
بأى خزى ووجه شائه ويدٍ
شلاء تستقبل الشعر الذى عبأوا

هذى القصائد عار الشعر فوقهمو

فليت أنهمو من عارهم برئوا

هذى الحناجر كم ضجّت وكم هتفت

ليستريح على أنفاسنا وَبَأُ

انظر إلى حالهم تلّق الذين أتوّا

يوما إليك بهذا الشعر قد هزئوا

فى ذمة الله والتاريخ ما كتبوا

فى ذمة الحق والأرحام ما اجترأوا

* * *

يا من تقطّع فى أوصال أمتنا

وأنت تمعن فى نهبٍ وتدَّرىء

من كان يعشق عدلا كيف يصلبه

أو كان يطلب حقا كيف يجتزىء؟

تبقى الكويت ـ برغم البغى ـ لؤلؤة

بريقها فى الليالى ليس ينطفىء

مملكة الغسق

هُنيْهةٌ. ويعتم الأفق
يسطع فى الظلام وجه بومةٍ ثكلى..
ووجهُ أفعوان
وجهانِ شاخصانِ.. يشهدانْ
على اندلاع الحزن فى الفؤادِ
واشتعال النار فى الرَّمادِ
واجتياح القهر للعبادِ
وانطفاءةِ الحلمِ الذى احترقْ!

أسنّةٌ مسنونةٌ .. نزيفها بَرقٌ
مغموسةُ الأنياب فى الحَدقْ
مُشرعة فى كفّ فاتح عظيم
ينزع من ذاكرة النهار معناهُ
وينتشى إذا مشى فوق ضحاياهُ
أو ارتوت من جثة التاريخ عيناهُ
ومن خريف قادم يكسو محياهُ
اللهَ من سحر البيانِ.. واللُّغَى
إذا استعاذ أو نطقْ
وانشق باسمه الفَلَقْ
ونام لم يعبأ
ولم يُراوده قَلقْ!

* * *

عناكب المساء أحكمت خيوطها
لعلها تنقضُّ عند اللحظة المواتية

على نفوس واجفة

قرونها تستقبل الريح التى تهب من بعيد

وتنفث القذى الذى قد سممّ الوجود

وفى حلوقنا التصق

وسرب طير عائدٍ، جناحُه مِزق

يرى نذير العاصفة

على مرايا كاشفة

والرعب فى الحاليّنِ..

إن أخطأَنا

وإن صَدقْ!

* * *

الآن.. هل يُفيد العقلُ؟

الجنون حكمةٌ..

والموقف الحصيفُ فى حُسبانهم نَزقْ

ونحن مقذوفون فى العراءِ

ليس فى خارطة الدنيا مكانُنا
وليس فى صحائف التاريخ موضعٌ لنا
ندور خارج السِّياقِ
والسِّباقُ دُونَنا انطلق!
بأىّ وجه نسترُ الوجه الدميم المخترق؟
ونغفر البغى القبيح المختلقْ؟
بأى وجه نسترُ العار الذى يُظلّنا؟
من قبل أن تُزلزلَ الدنيا
ويُعتم الأفق
وتستوى مملكةُ الغَسق!

أبو جهاد

كان يريقُ عمره على مساحة الخطر
فتكتسى الحجارة الصماءُ سحْنَة البشر
وتبرى الحياة فى سنبلة على الهشيم تُحتضر
كان يريق عمرهُ،
كى لا تخيِّب السماء وعدها مع المطر
فالكرمة التى جفّت ضروعها تئنُّ
والغور السحيق يابسٌ
والبحر ميّت، ولا سفين

حتى الضفائر الصغيرة المجدولة الخيوط
تنسجها أيدى الصبايا الحالمات بالقمر
قد أصبحت حول الرقاب حبلَ مشنقة
تشدُّه ذراع أخطبوط
يدوس عاتىَ القدم
كان يخوض فى الرّدى
مسابقا دقاتِ قلبهِ
توْقاً لحلم منتظر
مُحلّقاً كالنسرِ،
منقضّا على مشارف القمم
عيناه تسّبحان فى توهج السنين
«الكرمل» البعيد قِبْلتُه
والقدسُ فى قرار قلبه الحزين
الحرب فنُّه، ولُعبته
وعشقُه الوحيد أن يجاوز التخوم والمدى

ويقتحم..

وكلما ترفّقت به الخطى

أَبَى..

وهزّ رأسه العنيد،

وابتسم

كان يريق عمره، لا يعرف الحذر

لكنه يدرى مسار خطوه لأيّن

ولا يبوح بالذى يُخبّىء القدر!

* * *

ياكمْ تُرى جازفْتَ حينما أمنْت

حتى أتى اليوم الذى لا تنفع المجازفة

وانطرح الوجه الوضىء فى فُجاءة الألمْ

مضرّجاً فى لحظة الصدام والمكاشفة

منسكباً على جذوع التين والزيتون

وموغلاً فى شجر الخليل والجليل

وراسماً بدمك الذى يسيل

وصهدك الذى استحال غيّمةً ونجمة،

خارطةً للوطن المضمخ البعيد

والتمعت فى جلوة الشهاب والظلم

عينان طفلتان غاصتا معك

أُطلّ فيهما..

عينىّ صغيرة تحلم أن تراك يوم عُرسها

أباً مؤانساً ومُتّكا

وسنديانةً وليلكا

وفارسا يضىء برْقُهُ سنابكا

وساحةً حفيّةً،

ورايةً،

وسارية

تحملها مبهورة الفؤاد، تعبُر الممالكا

تجوب فوق صدرك الحنون عالم الرؤى الوثير

مزهوّةً بحلمها الأثير

وكيف لا؟

كلّ فتاةٍ بأبيها مُعجبة

كانت هناكَ،

فى انتظار يوم قادم، تراك

يالوجهها المطلّ فى السنين

توقّفَ العمر بها، فى لحظة مُدبّبة

إلى قلوبنا مُصوّبة

إلى المخادع التى يأوى إليها الحالمون

الواهمون بالأمانِ والسلام

حتى يفيقوا ذات يوم

على دوىّ العاصفة!

* * *

نلعنُ، كلما أضاء طيفك النبيل،

عصراً لأبناء الأفاعى الوالغين فى لحومنا

المارقين من ثيابنا،
ومن جلودنا
الآكلين ملحنا وخبزنا
والشاربين من مياه نيلنا
نلعنهُ،
ونلمحُ البشارة
فأنت عصر قادمٌ
للغضب الذى انفجر
وهذه بداية الشرارة:
الهيكل الذى أقيم من جماجم البشر
هوى به إلى الثرى.. حجرا!

الكلمة

كانت فى البدء الكلمة
قبساً من نور اللهِ،
وسرًا من أسرار الكونِ،
وفيضا من نور الحكمة!
كانت فى البدء الكلمة
صوتاً كهدير الريحِ،
وعصف الموجِ،
هتاف الرعدِ،

وومض البرقِ،

وطعنة رمح مقتحمة!

كانت فى البدء الكلمة

شجناً كبكاء الروحْ

طيراً خفاقا لم تحبسه قبضة إنسان

يتخطَّى كلَّ الأسوارِ،

وكلَّ سدود العزلة والقضبان

العالمُ ـ كلُّ العالم ـ فى عينيه

حسوة منقار

ورفيف جناح

ومدى الدنيا أضيقُ من بعض خواطِرِه

حين يطوّف بالعقل اللمّاح

تنشق دهاليز الظلمة

وتضىء العين بنور القلب

ونُحلق فى جلوات الرؤيا

فى فردوس النور،

وفى ملكوت الكلمة!

* * *

كانت فى البدء الكلمة

طيراً حرا،

يتنقل عبرَ الأوطان

فلماذا، حين تغيب الحكمة

يطغى الإنسان!

فيطارد هذا الطير الشارد

ويقصُّ جناحيهِ،

ويحرمه حلم الطيران

ويظنُّ بأن الدنيا طوع يديه

حين يُغلّق كلَّ الأبوابِ

ويحكم كلّ الجدران

ساعتها،

يحجبُ ذاكرةَ الآذان
ويظن بأن الجبَّ عميقٌ
والليل طويلٌ،
والدرب بلا عنوان
لكنّ الصوت الهادر يفجؤه دون استئذان
اشتعل أثير الصمتِ،
وغضبُ الوقتِ،
وفاضت موجات الطوفان
تهوى بالسجن وبالسجّان!

* * *

الكلمةُ حرف عربىّ
غنّى فى زمن الحلم العربىّ
ممدود الظّل، ومنكسرا
معروق الوجه، ومنتصرا
فاللحن شجىّ

والسمع بهذا الحرف حفىّ

مهما اغتربت آفاقُ الحلمِ،

وقلنا: ضاع الصوت

أو غابت شمس الروحِ

فقلنا: فات الوقت!

يبقى فى نور العينّينِ،

وفى غمض الشفتّينِ،

وقبّل الفوّت

لحن عربى واحد

لنداء عربى واحد

تعزفهُ الأرضُ،

ولا تُنكرهُ الريحُ

ولا يَقّربُهُ الموت!

لحن موصول

لغدٍ مأمول

وزمانٍ ندركهُ
أو يُدركنا نحن الطوفان!

* * *

الآنَ، الآن
تتشكل كلُّ حروف الكلمة
فى أيدى أطفال الأرضِ
وحُرّاس العرضِ
وأبطالِ الساحةِ، والميدان
تتشكل كلُّ حروف الكلمة
تصبحُ حجراً،
حجرا يصبحُ وطنا
وطنا يتشكلُ،
يأخذ موقعه بين خطوط الطولِ،
ويشمخ بين خطوط العرضِ
ويرسم دُنيّا من ألوان

لصغار نضجوا فى صهد الأحزان

كبروا..

تحت لهيب الشمسِ،

وعصف الريحِ،

وزلزلة البركان

خرجوا من كلِّ شقوق الأرضِ،

وكلِّ سفوح الغوْرِ،

ومن قاع الوديان

وانشقت عنهم كلُّ الجدران

ذاقوا ثمر الحكمة، لم يُسعفهم ثمر الحكمة

فرموا حجرا فى وجه الموت

حجرا يصبح وطنا

وطناً يتجمع من كلِّ الأشلاءِ

ومن كلِّ الأحزانِ

ومن كلِّ الأشواقِ

ومن كلِّ النيران
وطناً كجميع الأوطان
أعظم ما فيه الإنسان!

بلادى التى أكلت عاشقيها

سمعتُكَ..

كنت تقول بأن الزمان الخسيس اجترأ

ألم يكُ طفلا

وكنت تصاولهُ

وتردُّ عليه ألاعيبَهُ

حين يعلن عن صبوةٍ

ويشاغب مصطدماً .. بالملأ!

سمعتُك تهتفُ!

«هذى بلادى تعود إلىَّ،
ويرجع لى وجهها العسجدىُّ
ويدفعنى النّزق المستطيرُ،
تراودنى شهوة لامتلاك الوجودِ
ويُسرجنى حُلمٌ مستطارٌ
فأصهلُ،
ياللنبوءة إذ تتحقق!
إنّ زمانا بحجم الفضاءاتِ يرتع فىَّ
وعشباً يشبُّ
وناراً تؤجّجنى
لا أطيق انتظارا..»
فأسرعتَ..
صرتَ حروف النّبأ
رماداً يذكّرنا بالمشيب المطلّ
بوجهٍ جميل توارى

وصوت تمزق نزفا

وعاصفة أكلت نفسَها

وزمانٍ جريح

ونجمٍ تدلّى..

تدلّى..

وأوشكتُ ألمسهُ..

فانطفأ!

* * *

بلادى التى لا تعودُ إلىَّ

وتسكننى لغةُ لا تضىءُ

ونارٌ مُداجيةٌ..

أستحيلُ مدائن مغلقةً

ومتاحفَ منهوبةً

وشوارع تفترشُ العابريها

وسَرجا يطير على كلِّ ريح

فضاءً ينوح
بلادى التى أنبتتّنى سِنانا
وعلّمنى صهدها أن أخوض
وأعبر فوق الجراحِ،
وفوق المنايا
وعلّمنى صبرُها لا أبوحُ
أعيدى إلىَّ الأمانَ
أنا هاجسٌ مستباحٌ
وجدْبٌ بَراحٌ
ودمع شحيحٌ
بلادى التى أسلمتنى لهذا الزمانِ القبيحِ
لَقًى سائغاً
واعوجاجَ خطوط
لَقًى سائغاً
واختلاط ملامحَ

إن الحروف التى صنعت حُلمنَا تتفكَّكُ
والثمر المرتجى، قبل موعده، يتساقطُ
إن الطيور التى آذنت باكتمال الربيع
لتصنع أغنيةً،
باغتتها المرارةُ،
فابتلعت غيظها مرّة، علّها !
داسها حظّها مرتين، استكانت
وعاودها الصحو،
فانفجرت، بدأتْ عزْفها
فى اندلاع الحريقِ،
ونزْف الخلايا
شظايا ..!
شظايا !

* * *

أنادى

بلادى التى أكلت عاشِقيها
أطلّى
فها أنتِ مرسومةً فى انسحاق المرايا
حرائق منصوبة ودخان كثيف
تلافيف منخوبة وجدار مخيف
هنا لغة للرمادِ،
وأحزان نخيل أسيف
لماذا تسوقين للذبح أطفالك الشعراءَ
فلا يرجعون
تساقر فينا ملامحهُم،
وتغيبُ،
ونشْتاقُهم
فيحدِّق فينا خيالٌ يطوف
لماذا تظلّين صَماءَ، بكماءَ
إنهمو يعْزفون وهم ينْزفونَ

ويغتسلون بدمع الغناءِ

فلا تسْمعين!

ولا تُبصرين!

ويقتربون..

- لعلَّكِ بالباب -

بالباب يقبع وجهُ الحتوفْ!

بلادى التى أكلت عاشقيها:

نجيئك فى أىِّ صفٍّ؟

وندخل فى أىِّ ساحٍ؟

ونُوغل فى أىِّ عمرٍ؟

سيدركنا الدور يوما..

فلا تأذنى بالوقوف!

تفرق السمار

تفرق السمارُ
وارتحل الجمع الذى هفا
إلى ينابيع الصفا
وساحة الوجد الذى انطفا
وكان شارد القلاع والمدى
يهيس فى البحار والأسرار
ويحمل العجائب التى لم تحوها أسفار

* فى وداع الشاعر طاهر أبو فاشا.

فتلتأذنوا للقادم المجهول

أن يُترع الكؤوس للنهاية

ويبدأ الإيقاع والحكايا

ويطلق القيثار

تفرق السمار

وآذن الليل المقيم بانحسار

يا أيها الليل المطلّ، قادما، مُعجِّلا

مقطب الجبينِ

غائر العيونِ

أشعث الرؤى كفورة الغبار

قد آن أن نُغادر الرواية

وننزل الستار

لا شهرزاد اليوم فى مكانها

ولا هناك شهريار!

* * *

هل كنت تعابثنا ويباغتنا شررُك؟

الوارى اللمح ككهربةٍ تحيى وتميت

حتى تصرفنا عنكَ،

فلا نتأمل حزنا فيكَ،

تسرَّب تحت الجلدِ،

وخيَّم فى العينين الضاحكتين

بنشوة منتصرٍ فى ساح القولِ

وفتَّاك فى حومة كلّ نزال؟

فالقول الفاصل قولك

والنصل الساطع نصلك

والوجه المترع بالإيناس يشاغلنا

حتى لا نُبصر نزْفا فيكَ،

ولا ندرى أنك تستجمع منك بقية صوتٍ

وحشاشة نفس تتقطعُ

تذبحها سكين الوقت!

وتُراوغنا

حتى لا ندرى أن البسمة حين تروح وحين تجىءُ

يُشاغلها سمسار الموت!

* * *

إن الثمانين . وجاوزْتها .

. يا أيها الشاب الذى مازال فى مدارج الصبا

لم ينفض اليديْنِ من شقاوته .

عبءٌ..

تكسَّرت نصاله على النّصال

وانكشفت جروحه عن القروح

حتى أتتك الطلقة التى لا تخطىء الرجال

وعندما سبحْت فى سَكينة الرضا

مُنفلتا من رِبقة العذاب والألم

كان فؤادك الجريح يبتسم

يغفر ما أتى به القضا

لأنه مضى!

* * *

أكاد أصغى الآن من بعيد

لصوتك القصىّ

وقلبك البكىّ

يقول للإنسانِ: يا إنسان

هبْك رفعْتَ الصوت فغطى طول الأرض

هبْك دخلْتَ السيركَ

ورحت تجيد فنون العرضِ

وكلَّ فنون الركْض

تتعلق بالأحبال وتُمسك بالخطاف

آنا تصمتُ حين تُخيفُ..

وآناً تزأر حين تخاف!

هبك نفذْت إلى السرِّ المخبوء المبهم

يتخفى خلف عيون الغمْض

فَنفخْتَ بروحك فى موتى

وهتكْت حجاباً عن أحياء

وغفْرت لكلّ الناس وضاعة كلِّ الناسِ

لأنك بعضُ الناس

ورفعْت خفضْتَ

خفضْتَ رَفعْتَ

ورحت تراوغ فى الميزانِ

فتُسرف حين تكيلُ

وتخسفُ حين تميلُ

ولا تعوزُك الحجة أو يضنيك البرهان

وعلوْتَ علوْتَ

فلا أعلى من بيرق مجدك أو أسْنى

يتلألأ فى جَلواتِ الومْض

فأنت التابعُ والمتبوعُ

وأنت الراسمُ والمرسومُ

وأنت الخادمُ والمخدومُ

هبّكَ..

وهَبّكَ

وهَبّكَ..

فلماذا بعد الضجة يبقى؟

بعد غبار الموكبِ

حين تُشيّع ذات صباحٍ

حين تُسجّى ذات مساء

أسمعك تقول الآن:

ماذا يبقى.. إلا ما أبقيت؟

ما صاغ فؤادك من فيض الكلماتِ!

لؤلؤة يحملها السمّارُ إلى السمّار

ونجاوى حب يحملها شجن الأسحار

وسلالا ملأى بقطافٍ

فيهنّ قلوبٌ

لا أشعار!

موعدك الآن

زمـــانـك مـــوصـــول وعطرك دائمُ
وورْدٌ على ســـاحـــاته نتـــزاحمُ
نجيءُ إلـى شطَّيك، ضـــاءت منارةٌ
ودلّت عــلامـاتٌ وفـاحت مـــواسمُ
ونسكن مـا بين الظـلال، وننتـمى
تُراوحنـا ريّا، وتســرى نســـائمُ

---

* فى وداع الدكتور عبد المحسن طه بدر.

تـرود الـحــمى عــين، وتـلمــســه يـدٌ

ويـرعــاه شـوق فى الضـلـوع مـلازمُ

وأنت أمـامَ الصف تحـمل مـشـعـلا

تخـوض بـه وجـه الـدجى وتـصـادمُ

وأنت اشـتعال النجم، أو طلقة الردى

تـســددهـا، والـلـيل عـــاتٍ وجــاثمُ

تعلمنـا أن الـحــيــاة كـــرامــــةٌ

وأن شــعـــاع الـفــجــر لابدً قــادمُ

* * *

كنا إن جاء الليلُ وأسعفت الخلوة

نتحلّق من حولك،

نرشف ما يسّاقط من ثمر الحكمة

ما يتدفق من جلوات الروحِ

وما يتسلل من فيض النجوى والإِفضاء

ونطالع فيك زماناً راحَ،

وعطرا فاحَ

وقلبا متّقد الهمة

بركانا يقذف أقباسا تشعل وتضىء

عيناك تردان الأفق النائى

وتعودان بما شارفت وما طالعْتَ

فأنت المبحر دوما،

ليس يُبالى العصف الهائج، والأنواء

فلكلّ سفين تمخرُ هذا الموج علامة

ولكلٍّ طريق تُبحرُ فيه.. شهود لا ترجع..

لكنّ العمر يصير بلا معنى

إن لم يطلق كلّ منا سهمه!

كانت عيناهُ تقولان

كانت كفّاه تشيران

والصوت الغاضب يعلو ويدوّى

حين يصاب بخيبة وعدٍ.. فى إنسان!

* * *

كان جسورا وذكيا

يدرك فى ومضة برقٍ حجم الطعنة

وجّه القاتل إذ يتبدل أو يتشكل حين يصول

مهما يتلبّسَ أقنعةً،

أو تتلَّبسه حالات وفُصول

فيعرّيه بلمحة صدق

ويفاجئه حين يقول..

ويقدم ذوب القلب فداءً للمقتول

ويكاد يلاحقنا عشقا

فيحيّى أجمل ما فينا

يستوحى الأنبلَ والأبقى

فإذا كفّاهُ المُثقلتان

والصدر الريفىّ المجهد

يحنو،

منكفئاً فوق مواجعنا

ليهدهدنا ويُشكّلنا

ويلُمَّ شتاتَ هزائمنا

ويعيد الفارس فينا للميدانْ!

* * *

هل فجّر هذا الزمن القاتل فى صدرك لغْمه

فمضيْت تدارى نزْفكَ عنا

تطوى الأحشاء على سُمٍّ يسرى

كبدٍ تتفتت،

وفؤاد منخوبٍ بالإِعياء

لكنك تمشى فوق الألم، وتنزف،

لا تتخلَّف فى سيمائك نأمة

أو تتأخر عن أحبابك نسمة

أو تفلتُ فى كلماتك نِقْمة

حين تجلجل بالصوت الداوى الرنّان

تقتحم البغى بلا استئذان

وتواجه هذا العالم.. بالصدر العريان
ينزف حتى آخر رمقٍ..
فى أصغر أصغر شريان!

* * *

ويمرُّ زمانٌ بعدكَ..
ثم يجىء زمان
نتلفت حولَينا،
نبحث عن أنبل ما فينا
عن صوتٍ تعرفه الآذان
عن وقفة حق لا تخشى بطش السلطان
لا يغويها ذهب أو جاهٌ أو نيشان
السّاحة ملأى بالبهتان..
وهزائمُ قومٍ،
مثل بطولة قومٍ سيّان
موعدُك الآن..

ليطلَّ علينا الوجهُ القاسى الإِنسان
تمثال حىٍّ .. ومكانْ
يبقى فى قاع الوجدان..

سيدة الماء

النيــل

ألقى النيلُ عباءتهُ فوق البرِّ الشرقيِّ ونامْ
هذا الشيخُ المحنيُّ الظهرِ
احدودبَ،
ثم تقوّس عبرَ الأيام
العمرُ امتدَّ
وليلُ القهر اشتدَّ
وصاغ الوراقون فنونَ الكذبةِ في إحكامْ
لكن الرحلة ماضيةٌ

والدرب سدودٌ

والألغام!

حمل العكاز وسار يحدق فى الشطآنِ

وفى البلدانْ

قيل: القاهرةُ

توقفَ..

جاء يدقُ البابَ ويحلم..

هل سيصلى الجمعة فى أزهرها؟

يمشى فى «الموسكى» و«العتبةِ»؟

يعبرُ نحو «القلعةِ»

أو يتخايل عُجُبًا فى ظلّ الأهرام؟

ويظلَّ الشيخُ النيلُ يحدّقُ

لايجدُ وجوهًا يعرفها

وبيوتًا كان يطلُّ عليها

وسماءً كانت تعكسُ زرقتهُ

وهو يمدُّ الخطوَ

ويسبقُ عزفَ الريحِ

ويفردُ أشرعةَ الأحلام

وقف الشيخُ النيلُ يسائلُ نفسهٌ:

هل تتغيرُ سحنُ الناس

كما يتغيرُ لونُ الزىٌ؟

وهل تتراجع لغةُ العين

كما يتراجعُ مدُّ البحرِ؟

وهل ينطفىءُ شعاعُ القلب

فتسقطُ جوهرةُ الإنسانِ

ويركلها زحفُ الأقدام؟

دقَّ الشيخُ النيلُ البابَ

فما اختلجتْ عينٌ خلف الأبراج

ولاارتدّ صدى فى المرسى الآسنِ

أو طار يمام!

من يدرى أنَّ النيل أتى

أو أنّ له ميعادًا تصدح فيه الموسيقى

ويؤذّن فيه الفجرُ

فتتخلعُ الأفئدةُ

ويكسو العينينِ غمام!

وتتحنحَ مزدردًا غصتهُ

عاود دقَّ البابِ

الناسُ نيامٌ!

ألقى النيل عباءته فوق البرِّ الغربيِّ

ونام!

كرة النار

كرةُ النار فى يديك
وفى وجهك سدٌّ
أتلك آخرةُ الشوطِ
أم البحرُ مسعفٌ حين تغرق!
قلتَ لى:
لانجاةَ إلا بأن أعدوَ
حتى ألاصق الأفق مأخوذاً،

* «إلى الصديق الشاعر محمد إبراهيم ابو سنة»

وأرمى كلَّ الوجوه ورائى

نازعًا من دمى تلفّته نحوى

ومن هاجس الرمال صدى خطوى

وفى الريح دمعةُ القلب بيرق!

أتراها الفصولُ خاتلها البرقُ

فلم تثمر غراسٌ

ولا أطلَّ ربيعٌ

- كمْ تمنيتَهُ -

ولا العمرُ أورق!

ضاربٌ أنت في اليبابِ

فضاءاتُك خلوٌ

أشباحُها كامناتٌ فيكَ

تعرى فى الشمسِ

حين تمدُّ الطرفَ مستفهمًا

تشعلُ التيهَ

فتأتى مواكبًا تتحلقّ

هل وراء الرمال إلا الرمالُ؟

وهل فى الأرضِ من غاية تُذلُّ؟

وكم فى النفس من قشرةٍ تتشقق!

أنت لا تبتغى سوى الماء والظلّ

ويوم يرمّمُ القلبَ،

فهل تستطيع لمّ شظاياهُ

ـ تناثرن في البلاد ـ

ووجهًا بين الدروبِ تفرّقّ!

والصدى،

هل يعيد للسمع أناتِ السبايا

ترحلن من زمانٍ بعيدٍ

وأنات عبيدٍ

تجمعتّ فى شعابِ الوقتِ،

يغلى بها الأثيرُ ويفهقّ!

فى عويل الرياح صوتك ملتاعًا،
تناءى
فتطلعْ حوليكَ،
ليس إلا غبارُ قافلة الموتِ
رفيقٌ
وفى آخرِ هذا القتامِ
وجهٌ مُكبّلُ السمتِ مطرق
كرةُ النار في يديكَ
فمنْ ترمي بها الآنَ..
من قبل أن تراعَ وتُحَرق!
إنّ فى حلمكَ الطعين دماءً
نازفاتٍ
حتى تجفَّ،
ووجها فى صورةٍ تتمزق!

الإسكندرية

الحوارُ الذى مع البحر لم يهدأ
ولاجاوزتُ خطاكِ بعيدًا
حد اكتمال البداية!
شررٌ فى مراجلِ الجمرِ
ينداحُ على شطكِ
فالماءُ والنارُ..
صفحتانِ
وآية!

أفقٌ باذخٌ،

يُرنّقهُ بوحٌ شجىٌّ

وهاجسٌ لوداعٍ

وعاشقٌ يصطفى فيكِ

زمانا

وموعدا

ونهاية!

الحكاياتُ ملءُ صدركِ

والبحرُ هو البحرُ،

يوافيك جاثيًا

- مثلما الآنَ -

ومستغرقًا

إلى ركبكِ الملكىِّ

وفى قصركِ العسجدىِّ

على عرشكِ الثبجىِّ

ويعطيكِ من نفسهِ

لايضنُّ،

ولايشتكى

إنه باسطٌ ذراعيهِ حوليكِ

ومازلتِ..

هل تبوحين؟

تصدين؟

أم لعلكِ فى أسرِ هواهُ

ترخينَ حبلَ الغواية!

حاجزُ الرمل خلفَ ظهركِ يمتد

وفى وجهكِ وجهانِ:

أوسطىٌّ

وحالمٌ بالبداية!

رأسكِ الآن غارقٌ..

وعلي ثوبكِ

أخلاطُ رحلةٍ فى امتدادِ العمرِ
تتسابُ في خيوط الحكاية
ما الذي تزمعين؟
قفزٌ إلى المجهولِ..
أم غفوةٌ إلى الأمسِ ترتدُّ
وماضٍ يروم بعثَ الرواية
بين حلمينِ تستديرينَ للشمسِ
وتمضينَ..
وفى مقلتيكِ دمعةُ «إيزيسَ»
وفى خطوتيك إغواءُ «روما»
وبسمعيكِ هاتف من أذانِ الفجرِ..
هل أنتِ فى طريق الهداية!
وحدكِ الآنَ في القرارِ
فكونى أنتِ
لاتحفلى بكلام الناسِ

إنَ الهدير حوليكِ يشتدٌّ
الوجوه التي صحتْ تشرئبُّ الآنَ
هذى الشقوق قد قذفتْ ساكنيها
هل تُولّى مشدوهةً
فى فجاج الأرضِ
تغلى قيعانُها -
وتصلى؟
هل تُولّى..!
ينتحى البحرُ..
يختفى..
وطيورُ البحرِ تبكى..
وعلى الشاطىءِ الحزين المدمى
دمعةٌ من «كافافيس» المتوحدّ
إنه ذائبٌ، كما تتهاوى
شمعةٌ،

أشعلتْ ظنون لياليهِ
وآثامهُ
وعُقابٌ من الهواجسِ ينقضُّ عليهِ
ينوشهُ فى انفعالٍ،
يسوقهُ للنهاية!
وهو فى كهفهِ يردُّ جيوش الخوفِ عنهُ
ويحتمي من صباحهِ
بمجىء البرابرة
إنهم - إن أتوا مدينته المستباحةَ -
بعضُ حلٍّ من الحلول!
أم تراهُ «داريل»
يخوِّضُ فى الوحل،
ويرتاد قبوهُ فى شعابِ الليلِ
كىْ يطفىءَ السعارَ الذى يُنشبُ فيهِ
أظفارهُ الوحشية!

والرفاق الذين جاسوا

وجاءوه خفافًا

يودون لو تطولُ المسافاتُ

انتهازًا للحظة العبثية!

يُطبقُ الأفقُ حول عينيه

فالبحر غريقٌ

والقبوُ موسيقى دخانٍ

صخابةُ همجية

إنه عاشقٌ يضلّ

وتغويهُ الأباطيلُ،

فلا يبصرُ إلا أشباحه الوهمية

لو رنا منصتا إلى وجهك الشرقىّ

يومًا

فاضتْ حناياهُ بالنورِ،

والوعود السخية!

كيف لم يبصروا منارِكِ يختالُ
وبرقا يضيءُ..
إسكندرية!
جاء سمانكِ الخريفىُّ
فاهتزت لأسرابه الشطوطُ القصية
وتنادت حتى الشعابُ العصيّة
تلك ريحُ الشمالِ،
تتهلُّ فى صدركِ
مبتلةَ الثيابِ..
ندية
قبليها..
وعانقى فى ثناياها هوى كامنًا
وزحامًا من الأمانىِّ
فنونًا من التصاويرِ
أيقونةً من النجومِ الحفية

أنتِ لن تغلقي نوافذكِ البيضَ
ولن ترتضى حياةَ الدنية
التتارُ الذين يسّبُونكِ اليومَ
ويبنونَ فوق صدركِ أبراجًا
ويُزْهونَ بالقلاعِ العلية
إنهم يفقأون عينيك والبحرَ،
يصيدون النسيمَ الطليق
والحرية..
إنهم قادمون من زمنِ الجدبِ
حريقًا مدمرًا
وجرادًا معربدًا
وامتدادًا للهجمة البربرية
ما الذى ينتوون أبعد من ذبحكِ؟
ماذا يفيدُ سلخُ الضحية؟
وحدكِ الآنَ فى القرارِ

فكونى أنتِ

كونى نبض الحياةِ الفتية

وانهضى،

واقذفى إلى لجةِ البحر

غزاةً تجاسروا ..

لطخوا وجهكِ الجميلَ

أضاعوا سمتك المزدهى

وعاثوا فيك نهبًا

وذلةً

وسعاية

وحدكِ الآنَ فى القرارِ

فكونى أنتِ

كى لايغيبَ وجهُ القضية!

هل تضجين بالشكاة؟

وهل يردعُ جيش التتارِ وخزُ الشكاية؟

إنك الآنَ فى الطريق إلى الحلمِ..

وهذى ـ

بدايةٌ للبداية!

إنها تمطرُ صيفًا

ـ هل ستمطرُ فى الصيفِ؟

ـ تمطرُ..

فانتفخى يا جيوب الرعاةِ

ومت كمدًا يا ربيع المواسم

إنَّ مآلكَ للقحطِ

هذا مزيدٌ من السنواتِ العجافِ

تحلق فوق الرءوسِ

وفاكهةُ الصيف فاسدةٌ،

والذى نرتجيه هشيمٌ!

الفصول التى فتلتْ حبلها

حدَّ أنشوطة فى رقابِ العبادِ

يلازمها الآن نوحُ النواعيرِ

فارغةً

وعويلُ غناء قديمٌ!

المواسمُ - متخمةً بالوعود -

تُساقطُ حباتِها للجياعِ

وتعلن عن زمنٍ للرمادِ

وموعد جدبٍ عظيم!

- هل تغادرُ دائرةَ القحطِ؟

إنَ براقك يركضُ في التيه

والسرجَ منزلقٌ -

والزمانَ العصىَّ بخيلٌ

- كيف تصعد؟

ـ رمحك منكسرٌ،

فى الفضاء يداك معلقتانِ

ووجهُ البلاءِ مقيم!

* * *

لا ..

ليست سحابةً

تلك التي عيونها تبكى،

ولا الذى يهمى مطرًا

هذا شواظٌ حارقٌ

من رحم الأرضِ ابتدا ..

ومن تصدع الحجرًا

من غضبةٍ يحملها الرعدُ،

كأنها صرخةُ كونٍ يُحتضر

لفحُ جحيمٍ يستعر

ومن فسادٍ عارمٍ

يدقُّ ناقوس الوباءِ والخطرْ
على جناية البشر
لا،
ليس غدًا ما يُنتظر!
لكنها اللحظةُ قد دارتْ بنا،
ثم استطال ظلها
حتى ظنناهُ عبرْ
وحينما نرتابُ فيه
نمدُّ للآتى أثرْ!

* * *

ـ ما الذى تطلبُ الصغيرةُ؟
عشٌّ من يمامٍ
وقبضةً من نجومْ
ويدٌ تمسكُ السحابَ،
فلا يرحلُ،

حتى يضىء وجهُ الفيوم

دعْ لها أن تكورَ الحلم فى المهدِ

وأن تطلق مرجًا من العصافيرِ

فى فوضى براحٍ

وفى فضاءٍ حميمٍ

دميةٌ أنتَ فى سبيكة عينيها

خيالُ المآتةِ الهشُّ

ذراعٌ مجدولةٌ لاتريمْ!

قبل أن يستجيب رأسك للغفوةِ،

بادرْ..

هذا أوانُ التخطى

وهذا أوانُ بدءِ الصعود

والطريق الذى سترقاهُ مُواتٍ

والخيرُ طاغٍ عميم

إنها فى انطلاقها لاتبالى

أجديدٌ بُراقها أم قديم

فانتظرْ ريثَ يشتعلُ العشبُ،

وبادرْ،

إن اللقاء حميمٌ!

* * *

ـ ما الذى تطلبُ الصغيرة!

ـ هيِّءْ مهدها..

قبل أن تمضى إلى رحلة المدى والتخوم

والذى تطلبُ الصغيرةُ لو تدرى

قريبٌ من إصبعيها

لكنه لايقيم!

إلغاء

زمنٌ للرحيلِ
فماذا هنا تطمعُ الآنَ فيهِ؟
بكفيكَ هذا النتوءُ الذى لايريحُ
وأنت تصافحهم واحدًا واحدًا
وتخرجُ من بينهم مثلما قد دخلتَ
سوى نتنٍ عالقٍ بالثيابِ
وشعوذةٍ خلف هذا الإهابِ الصقيلْ
فمنْ ذا يطامنُ من زهوهم بالحياةِ

ومن ذا يُلاحقهم حين يفترسونَ

ويغتصبونَ

ويقترفون كبيرةَ كلِّ الكبائرِ

حين يُراؤونَ،

أويعظونَ

وأنتَ تصافحهم واحدًا واحدًا

ثم تخرج من بينهم..

هل تأملتهم؟

إنهم بضعةٌ من أصابع كفيكَ

هل تقطعُ الآنَ كفيكَ

كى يستريح البشر

وتحوز القبولّ!

* * *

ما الذى فيك لا يُرّتجى أو يسرّ؟

وماذا يراود قومَك حين تبالغُ أيديهمو

فى السلامْ..

وتلمع أسنانهم فى ثنايا الكلامْ..

وتربدُّ سحنتهم فى اهتمامْ!..

ويشخصُ خدامهم فى فضولْ..

المهمون همْ..

آه إياك أن تنظر الآن شزرا

وتنطق هذرا

إنهم فوق مسرحهم واقفونَ ومستعرضونَ

ولكنهم ـ خلفَ هذى الستارةِ ـ

منكمشونَ

ومرتعشونَ

ولايعرفون إذا كان يومٌ جديدٌ سيأتى

وهم شاخصون!

المهمون همْ

فهل قلتَ كفرا

وعينكَ تثقبهم

وتعاينُ هذى الفسولةَ سرا وجهرا

ما الذى فيكَ؟

لا..

إنها عينك المستبدةُ..

هل تفقا الآنَ عينيكَ

كى تستحقَّ المثولْ!

* * *

المماليكُ يحتشدونَ لحفل زفافِ المدينةِ

ها..

الوليمةُ ساخنةٌ،

والميادين مفعمةٌ بعتاقِ الخيولِ

فمن يرثُ الآن هذى التكايا

وعصر السبايا

وأوزار كلِّ البغايا

وينصبُ مملكة الفقراء وراء جدار العويلْ

المماليكُ يستعرضون الوجوه الحزينة

منتفخينَ

علي وقعِ دقٍّ الطبولْ

والبيارقُ مرفوعةٌ

والسماء مواتيةٌ

والفضاءُ المدمي ظليل

فمن يصرخ الآن أو يستغيثُ

وماذا يفيدُ احتجاجٌ هزيلْ

ستصبحُ فى الركب،

منتفخًا كمماليك مصرَ

تشاركُ فى المهرجانِ الجليلِ

ولكنَّ وجهكَ مختلفٌ..!

هل تُبدلُ وجهكَ؟

تلغيهِ؟

سارعٌ..

وعدٌ لهمو بالقناع البديلْ!

* * *

ملغيًا أنت كلَّ الذى كان معترضًا

والذى كان مشتبكًا

والذى لم يزلْ يتململُ فيكَ..

وأبدلتَ حتى ملامحَ وجهكَ..

ها أنت بالباب منتظرٌ

هل يتاحُ لك الآن..؟

إنك منزلقٌ كالنسيم

وهذا أوانُ الدخول!

فتيلة من رماد الوقت

لاتقل للربيع سركَ
فالعطر مذاعٌ،
والطير تلتمسُ الصحوَ
وفوحُ الوجودِ
ريانُ
فاغمْ
بين ظلينِ،
عابرين على النهر،

توقفتَ..

هل تريد مزيدًا؟

أم هو القلبُ..

فى فضاء الصباباتِ

وفى جلوةِ الحقيقةِ -

هائمٌ!

عدْ إلى نقطةٍ

تخيمُ فى البدءِ،

عهودٍ طليقةٍ من إسارِ الوعىِ،

دنيا من الغرور الذى يُعمى

حبالٍ ممدودةٍ

تحتها الجمرُ،

وعمرٍ قطعتهُ..

شبهَ نائمٌ!

* * *

هل تجيدُ الذى تقولُ..؟
إذن قلهُ..
وحاذر ألاَّ تصيبَ وتصمى
شجرٌ حائلٌ...
فلستَ ترى الثغرةَ منه..
ولاانفراجةَ سهمٍ
فى قبضة الصقر حائمْ
شجرٌ حائلٌ كثيفٌ..
وحراسٌ غلاظٌ
وصبيةٌ يتباروْنَ،
وساحٌ مملوءةٌ بالسوائمْ!
والثغاءُ الذى يمور ويشتدُّ،
- ولازامرُ حيٌّ -
خلال ذاك رغاءٌ
ليتهم أجمعوا بليلٍ

فكانت تلك ضوضاءهم..
ولكنها الفتنةُ
فى مقلةِ الردى وهو نائمٌ!
خضْ عبابَ الكلامِ
واعبر شعابَ الموتِ
أشعلْ فتيلةً..
من رمادِ الوقتِ
وانشر حريقها فى الجماجمْ
إنّ هذا الطريق يستقبل الموتى
ويعطى شهادةً بانتقالِ العهدِ
من مرغَمٍ
لآخر راغمٍ..
تلك أفواجهم..
وهذى خطاهم..
مضرِماتٌ شواظها فى امتداد الأرضِ

تُبقي لنا الهشيم

ولا يُبقى لظاها

مساحةً لامتدادِ العشبِ

أو موعدًا..

لبدء المواسمْ!

إنها آخرُ الفصول من الدنيا..

فمن قال إنها لن تدور الآن..؟

هذى أنفاسنا تسرق الصحوَ

وهذى رؤوسنا

فوق موج اليمِّ تعلو،

وعلى الأفقِ..

كلكلُ الليلِ جاثم!

* * *

إنهم يقبلون من آخر الدنيا

إلى حتفهم،

كطيور الماء،

هذى شباكها فاغراتٌ

وعلى البحر مخلبُ الموتِ عائم

رفرفاتُ مهيضةٌ

ويحط الطيرُ،

ها آخرالمطاف الذى طالَ

وســـرٌّ،

مآله للنسائم!

فى السكون الأخير من صخبِ الليل

أنينٌ،

وصحوةٌ لعواءٍ

وصفيرٌ..

وظلمةٌ تتصادم..

إنهم عائدون من ساحة المجد المولّى

فيالقًا تتزاحمْ

من زمانٍ كأنه باطنُ القبوِ
رجالاتهُ تنوءُ بما تحملُ
منخوبة القلوب، بما تنزفُ،
منفوخة الجيوب بما تملكُ
لكنهم عبيدُ الدراهم!
البطولاتُ راقصاتٌ
وراياتُ السكارى منصوبةٌ..
ولهيبُ الوجدِ طاغٍ..
وأنت فيهم مسالمٌ!
تتحرى كنزَ المواقيت للبوح،
وتصغى
لتمتمات الهزائم..
إنهم يحملون أوسمة الليلِ
وشاراته التى تملأ الدنيا..
فما الحاجةُ يومًا

لغير هذى العظائم

لاتقل للربيع سرك..

إن الجمرَ يذكو..

وحارس الليلِ يدنو

والقِدّرَ تغلي وتغلى

والفجرَ لاشكَّ قادم!

مـاوية

من الماءِ أنتِ

فلا تبرحى الماءَ،

إنَّ جفافَ الجداولِ

ترضعه شهقةً منك

يندى

وتتعطفُ الريحُ

حين تروم احتواءكِ

---

* الماوية: نسبة إلى الماء مثل سماوية وصحراوية، لأنها تشبه الماء فى الصفاء والنقاء.

هيهاتَ!

أنتِ مراوغةٌ

جسمك الياسمينُ

تأوّد منسريًا كالشعاعِ

وأسلم أغصانهُ للحقول!

يلاحقك العطرُ؟

هذا زمانٌ قديمٌ

وتلك فضاءاتُ كونٍ توارى

ونقشٌ على الصدرِ،

منعقدٌ

ونداءٌ

يردده هاجسٌ لايريمُ

وحسبُ الأزقةِ أن تمسكَ اللونَ

فى طلعهِ الشفقىِّ

وأن تحبسَ الشجنَ المتناثرَ

عبرَ الشقوقِ

وعبرَ النوافذِ

يصعدُ فى لغةٍ من سنابلَ

مضفورةٍ

لجميع الفصولْ

وأنتِ غزالتها ..

هل تحممتِ بالركضِ؟

شاردةً فى انعتاقِ الصدورِ

ومارقةً من شراكِ الهواجسِ

موغلةً فى انعقاد الظلالِ

وفى فرح اللونِ باللونِ

ساطعةً فى بهاءِ اليقينِ

وداخلةً ..

هاَ أوان الدخولْ!

تعودين للماءِ؟

ـ يا حظةُ الماءُ..

يا جَسدًا يشتهيهِ

ويا لهبًا فى الضلوعِ

وفاكهةً لجميع المواسمِ

أيقونةَ الندِّ والزعفرانِ

وأغنيةً بحّ فيها الحنينُ

ونجمًا بعيد المدار

ووعدًا..

لهذا الفؤادِ الملولّ!

وها أنتِ

ذائبةٌ فى المكانِ

وهاجعةٌ فى الزمانِ..

وممسكةٌ بموازين يحملها القلبُ

هل يرتضى قسمةَ الغرماءِ؟

وهل يستجيرُ إذا فسدَ الكيلُ؟

وانطفأت نجمةُ الروحِ
فاعتصمتْ وردةٌ فى الدماءِ
ومات ندى العشبِ فى الماءِ
أيقنت الأرضُ..
أن انتظار السماءِ يطولُ!

سيدة الماء

تحت جلدى سكنتِ

فانتشرى الآن..

ولاتقنعى بمسرى الشرايين

ولابانطلاقةٍ

فى عروقى

ما الذى أرتجيه أكبرَ من عرشكِ:

عمرٌ يضيئنى..

وامتدادٌ من المسافاتِ..

يطويهنَّ وعدٌ،

ـ يا طالما الوعدُ يغرى..

ومهجةٌ فى خفوقِ

هل تحسين جلوةَ الروحِ بالروحِ،

خلايا تصطكُّ..

فى ساعة الومض

ودنيا

موسومةٌ بالشروقِ..

أنتِ نجمٌ مقابلٌ لاندلاع الحلمِ

فى دارةٍ من النور،

تزدادُ ائتلاقًا

وعطرها الفاغم البوح

يوافى..

من الفراديس نشوانَ

وينهلُّ..

من زمانٍ سحيقِ!
عبثًا يحتويك صدرٌ..
ويلفيك زمانٌ
فأنتِ سيدةُ الماءِ
تشكلت من عناصره الخضراءِ
أبدعتِ فى اكتمالِ معانيكِ
وفى جلوةِ اللظى..
والحريقِ
ما الذى تضمرينَ؟
هزى إليك النخلَ
واستمسكى
بما يلدُ الرملُ..
وعودى إلى الفضاءِ الطليقِ
إن ميعادك القريبَ يناديكِ
فلَا تفلتيهِ،

ساعةَ يأتيكِ،

ولاترضخى..

لصخرِ المضيقِ

رحلةٌ أنتِ بين ماءٍ ورملٍ

عبثًا ترتوينَ!

لا أنتِ موفورةُ الغمرِ

ولا فى الوطابِ غيثٌ

ولا الغيمةُ توحى..

ولا السرابُ يوافيكِ

فتعرّينَ..

فى المسيل الدفوقِ

تحت جلدى سكنتِ..

هذا هو المأوى

فكونى دمى،

وكونى رحيقى

مثلما تحلمُ النباتات فى الأرض

بــرىٌ

يأتي منَ الغورِ دفاقًا

وســرٌ

من الصفاء العميقِ

موكبٌ فى الثرى

وعرسٌ على الماءِ..

وعرشٌ قامت رواسيه كالطودِ،

ومزمار عابرٍ فى الطريقِ!

لاتقولى غفوتِ..

هذا الذى يحدثُ فى برزخ صحوى

وفى تلافيف حلمى..

يدعوكِ أن تستفيقى!

رحيل النوارس

النوارسُ فى ثبجِ اليمِّ مشرَعةٌ
ومدى الأفقِ مزدحمٌ بالشعاعِ
ورائحةُ البحر مغريةٌ
والإسارُ الذى فى الحنايا تفتتَ
والصبواتُ الحميمةُ تشعلُ ميراثها
وتجاوزُ حدَّ الفراغِ
فيوشكُ يحترقُ الرملُ
ينسربُ البصرُ المتحللُ

فى قطراتٍ،

غشاوته؟

أم نداوتهُ؟

أم هو الحلمُ؟

يخلعُ بعضَ الأمانِ من القلبِ

بعضَ السكونِ

فيشتعلُ البحرُ،

يشتعلُ الكونُ،

تأتى النوارسُ

تحملُ أجنحةً من لهيبٍ

وتقلعُ باحثةً عن فضاءٍ جديد!

* * *

للوجوه الحزينةِ أقفالها..

منْ يفكُّ طلاسمها؟

ويلامس أشجانَ عرىٍ تكشفَ

فى حدقاتٍ يزلزلها البوحُ
وهى تسيلُ،
دموعُ حكاياتها تتناثر عبرَ الرمال
- الرمال السجينةُ عطشى -
وذاكرةُ البحرِ متخمةٌ
والقلوبُ التى تتراجعُ عند الوداعِ
تراجعُ أحزانها
وتلملمُ هذا النثارَ البديدَ
من الوقتِ
والصيدِ
والجزرِ
والمدِّ
والصبواتِ
فمن يتجاسرُ؟
يخطو..

وهذا هو الموعد الآنَ..
منقسمٌ أم متاحٌ؟
وفى خطوةِ العابرين الثكالى
تجلجلُ أثقالها!

* * *

فى الهزيع الأخير من الليلِ
ها أنتِ شاخصةٌ..
كالفنارِ الوحيدِ مع البحرِ
تعوى لديكِ العواصف
يلطمك الموجُ..
إنّ المرافىءَ ليست تُنيلُ
ولا السفن الغائبةُ
ترتضى لحمولتها
شفقًا ذائبًا
ومسيلا من الحسراتِ

وعاصفةً من شجنْ

فى الصخور ملاذك

صخريةٌ أنتِ..

لا،

لاتبوحى

فقد تحملُ الريحُ سركِ

أو ترتديه النوارس وهى تغادرُ

قد يتقاذفه الموجُ

أو تترامى به نجمةٌ غاربة!

ساعةً ويُطلُّ الصباحُ

فلا أنتِ جاهزةٌ للرحيل

ولا أنتِ مشدودةٌ للبقاءِ

ولا أنت مفصحةٌ عن محطاتك القادمة

هل هو البحرُ؟

يلغى المسافاتِ والأزمنة؟

هل هو العمرُ؟
ينفرطُ الوقتُ
تسقطُ حباتُهُ فى الرمالِ،
وتدركها وحشةُ الأمكنة!

* * *

النوارسُ فى ثبجِ اليمِّ
نورسةٌ أنتِ، شاردةٌ فى البحارِ
وهائمةٌ فى المدارِ
وممعنةٌ فى الفرارِ
فهل آن أن تستريحى؟
قرارِكِ موتٌ
سكونكِ فوتٌ
حياتكِ أرجوحةٌ وانفلاتٌ
خيوطٌ بها الوهم مشتبكٌ
وفضاءٌ

كألوانِ قوسِ قزحَ..

هل يعودُ الفرحُ؟

للعيون التى من زجاجٍ تسيلُ

وأنتِ مواربةٌ بعضَ نفسكِ

لن يهدأ البحرُ،

إنك لاتنتمينَ لهذى الشواطىء

فانخلعى

واستديرى

الأسئلة

إنها ساعةٌ ويحطُّ الرحيلُ
فبا وجع القلب كنْ لى علامة موتى
وشاهد وقتى
وخارطةً بدؤها فى دمى
ونهاياتها في المدى المستحيلِ
إلى أين تمضى؟
وكلُّ البلاد سهامٌ مُصوّبةٌ
والفضاءات فاغرةٌ،

والهواءُ المدمّى ثقيلٌ
كانت الأرضُ متكأً
والسماءُ جدارًا
وهذى المياه المحيطةُ تتهلُّ شعرًا
ولؤلؤةً
ونجومًا تميلُ مع الموج حيث يميلُ
إنّ قافلتى بالعراءِ،
ووجهىَ للشمسِ منشعبٌ،
والمدائن شاخصةٌ كالقبورِ،
وفى حبة القلب ذاكرةٌ للدمارِ
ونارٌ مدوّمةٌ
وسحابةُ زيتٍ
وطيرٌ على شاطىء اليمِّ مختنقٌ
وزمانٌ ذليلٌ!

* * *

هذه الأسئلةُ

مطرٌ أسودٌ،

مطرٌ كالرصاصِ،

فيا وجع القلب لستَ الطريق الذى أبتغيه

ولستَ الجوابَ العصىَّ

ولاأنت منقذ رأسى من المقصلة!

إنَّ هذا الفضاء الذى كان متسعا قد تراجع

والأفق المستدير تناثر،

واللحظة الفاصلة

شطرتْ هامة العاكفينَ

على الساحة المرسلة

إنهم يحلمون بأن غدًا قادمٌ

وشراعًا يلوّح عند المضيقِ

ووجها تضىء بشارته للحيارى

وصوتًا جديدًا يطلُّ

فتخرسُ الطلقة القاتلة!

* * *

ياصحابى الذين أعود إليهم غريبا
أداورهم عن مدارى
وأحملُ وجها كئيبا
وعينين فى الرعب عاكفتينِ
على جثثٍ فى العراءِ
وعاصفةٍ فى الدماءِ
وفاجعةٍ تشبه المهزلة!
إنها الأسئلة
حين تفلتُ منا: لماذا؟
وتفلتُ بعد لماذا؟ متى؟ ثم أينَ؟
وتهتزُّ فى بوبؤ العينِ
ساريةٌ فوقها علمٌ يتفككُ
تهوى نجيماتهُ فى قرار الخليجْ

ما الذى سوف نحكيه بعد ليالى النشيج؟

حين تسألنا أعينٌ للصغارِ

توقف فيها الزمانُ المخيف

ما الذى نحن فيهْ؟

ما الذى نرتجيهْ؟

حين تفجؤنا ساعةُ الزلزلة

حين تنهمر الأسئلة!

طائر الصباح والمساء

هل آثر الرحيل حين أُحمد الصممُ
وطاشت السهامُ فى أيديهمو.. مصوّبة
إلى مواطن الصفاء والجمال!
تصيدُ طائرَ الصباح والمساءْ
وتقتلُ انبلاجة الضياءِ،
فى عيون الطيبين الوادعين

* «فى رحيل الموسيقار محمد عبدالوهاب»

وتملأ الفضاء بالعدم
فأين جلوةُ الزمن؟
وأين فورةُ اللحن الشجىّ
وانطلاقة النغم؟
تحملنا إلى القمم
تغسلنا من الألم
تردنا إلى ينابيعَ من السحرِ المصفى
والمدى مدندنٌ
والصوت يفرش المكان،
بالأمانِ، والحُلُمْ
كانت «هالو» على فمهْ..
تفتحُ أبواب القلوب الموصدة
تنسابُ رنةُ الكلامِ،
مثلما
رفت طيورٌ فى السما

مفردة

قرارةُ الرخيمُ مفعم الشجى
ودفؤهُ
يشعُّ فينا موعده
وكلما أفاض فى آهاتهِ
تتاوح الليلُ الصَّدِى
وأدرك الجرحُ الدفينُ موعده
كانت «هالو»
تعلنُ عنهُ،
حين يصطفى مؤانسَة
وحين يمتدُّ به الليلُ،
ويجفو مرقده..
يحلقُ الفكر الشرودُ فى المدى
ويسبقُ العقلُ المشعُّ
جارفًا

وسابقًا مع انطلاقهِ غدهْ
كانت «هالو»
نداءهُ عند اللقاءِ..
وانحناءةَ القلبِ الملىءِ بالصفاءِ
وانطلاقةَ العمرِ السخىّ بالغناءْ
كانت جبينهُ...
مُرحّبا
كانت سلامهُ..
كانت يدهّ!

* * *

الدوحة التى ارتوت جذورها فى طين مصر
مثقلةً أغصانها تحت عناقيدِ النغم
كم عششت فى صدرها،
أشواق عاشقين ذائبين فى انهمار ماء النيل
وفى امتداد زرقةِ السماء

الدوحة التي نَمتْكَ ـ ما تزال
تهتـزُّ للنسيم، والأنداء
حالمةً
بطائر الصباح والمساء!

القـزم

أيها القزم الذى يعرف نفسه

مثلما يعرف دودُ الأرض رمسه

أنت لن يجديك أنْ صعّرتَ خدكْ

لا،

ولن يجديكَ صوتٌ يملأ الشدقَ،

ويستعرضَ مجدكَ

لا،

ولا عصبةُ إفكٍ

تتراءى لك جندكَ
لستَ إلا شِسع نعلٍ يتدلى في الهواء
كلما طرقع فوق الأرضِ أطلقتَ العواء
وتحليتَ بسمتِ العلماءْ
وحديث الأصفياء
رخصَ العصرُ،
وهان الناس،
واشتدَّ العفنْ
فتجشّأ
كلما هرولت في سيرك المآدبْ
علها تطفئُ جوعًا فيك لا يَرْوَى
وغلاً ليس يهدأ
كيف ترجو أن يراك الناسُ صِدِّيقًا نبيا
وشريفًا، وأبيا
فتأملْ وجهكَ القابعَ فى المرآةِ،

كم تبدو خسيسًا ، ودنيّا

واغتتمْ عصرًا زريا

كم يوازى قامتك

وزمانًا لاترى عيناهُ رجسك

أيها القزم الذى يعرفُ نفسه

والذى يجرفهُ العارُ،

فلا يرفع رأسه

عَرِيتْ ذاتك من ذاتكَ

فاستجلبتَ حمدَ الأدعياءْ

ولجاجَ السفهاءْ

ما الذى تجمعُ حوليكَ

خواءٌ فى خواء!

لا تصعّرْ خدكَ التيّاهَ

إنا

لم نزلْ نذكرُ أمسك!

وقت.. لاقتناص الوقت

إلى

لؤلؤة

نادرة

تزين

صدر

حياتى

فاروق شوشة

عصفور الحلم

من يطلق عصفور الحلمْ؟
من كوة هذا الليل المطبقِ
والأفلاك المستلقية على جنبات اليمّ؟
الأفق براحٌ للمعنى
والوقت السّاجى نزفٌ يسكن موسيقى
وهواجس هذا القلب بشائر غبطتنا الأولى
من يشعل هذا الكون حريقًا، ودخانا
ويناطح صخر الجبل الأجرد حيث يُطاولُ عنق الليل؟

حتى يتدفق زمنُ السيل

من يطلقُ عصفور الحلم ويصمدَ فى واجهة الويل؟

عصفور واحد

يخلع عنا هذا الزمن الجهم!

نيرانى تصنع أسلاكًا ممتدة

وأنا أتشابك فى دائرة الشوك وأمضى

يثقلُ رأسى إذ يحملنى

وينوء بكابوسى الليلىّ،

وهذا السعف الأجرد بعد حريق النخل

أخطو،

هذا زمن العمر المحل،

وهذى شرفةُ بركانٍ يثمرُ عدمًا أسودْ

هل تتفيأ هذا الظلَّ

وتمعن فى حبل غَوايتك العجّلى

حاذرْ

قد ينقطعُ الحبلُ!

الأسلاك الممتدةُ،

والبركانُ،

وهذا الكابوسُ الليليُّ،

وهذا السعف الأجردُ

هذا العدم الأسودُ

هل تملكُ تفسيرًا لهواجس هذا الليل الممتدّ

وخيطًا مشدودًا للفهم؟

من يطلق عصفور الحلم؟

عن القمر والعصافير

للعصافير أن تستريحَ،
وأن تتأهب ثانية لاحتواء السماءِ
وأن تتطاير فى الأفقِ
مثل نثارٍ بديدٍ من الضوءِ
يسقط فى شرفات الفضاءْ
ولها أن تصفق حتى النخاعِ
وأن تستثير حناجرها
مرةً للغناءِ

وآنا لشوط البكاء

إنها الآن تمتلك اللحظة الفاصلة

وتجرب موضعها فى المسافةِ

بين السقوط إلى حافة الأفق المُترنّحِ

حيث يموت الشعاعُ

ودفع الجناحين صاعدةً

فى مدار الهواءْ

ولمن هذه الغابة المشتهاةُ؟

ومنْ ساكنوها؟

ومنْ؟

ليس غير الرياح تجيبُ

وفى البعد عاصفةٌ تتجمعُ

ليلٌ قديمُ يهلُّ،

وأعشاش طيرٍ تمادىَ

فأسرف فى زقزقات التفاؤلِ

حلمِ الأمانِ
وإسعادِ أُلاّفِه باللقاء!

* * *

والقمر...
ماله ساهمًا!
والسحابات ترتاحُ فوق الجبينِ
الذى لا يبينُ
وتعبرهُ حين تقلعِ فى اليمِّ،
فى زرقة اللازوردِ
وتترك من خلفها شفقًا ذائبًا
وبقايا حديث قديم
إنه موعدٌ للصباباتِ
تفرحُ فيه النسورُ
وتنشقُّ فيه الجحورُ
ويرحل فيه الجَسورُ

وراء النداء المراوغِ

خلف الزمان المقيمْ

وفضاءٌ - كما يعشقُ اللهُ -

صيادهُ شاخص لا يريمْ

فى يديه الرصاصُ

وأنشوطة اللهو جاهزةٌ

والمنايا تحوم

وترفرفُ،

حيث مضت تستحمُّ النجوم!

يا قمرْ..

هل تظلُّ يؤرّقك العدلُ

ينتابك الذعرُ

فى زمن شائهٍ

ورجيم...؟

دع مكانك،

واهبط إلى حيث تأوى العصافيرُ
لاهثةً
واصطدم بالتخوم!
إن هذا الذى يتشكلُ
عبر امتداد شعاعكَ
موقد جمرٍ
وحفريةٌ من سدوم!.

بينى وبين البحر

بينى وبين البحر واجهةٌ مخضَّبةٌ
وأفُقٌ من رصاص
وروائح البارود مازالت
وأصداءُ المعاركِ
تحتها الألغامُ كامنةٌ
وأقبيةُ اللصوص الوالغينَ
الغارسين بلحمنا وطنًا
لأحقاد التواريخ التى سلفتْ

وقد بات اغتصاب الكونِ والأزمانِ،

وقتًا للقصاصْ..

من يُسْقط السد المنيعَ

وقد تراكم بامتداد العمرِ؟

إن دم الضحايا يستحيل حجارةً

وجماجم الموتى تطالعنا

وتنبت فى حنايانا شجيرات من الشوكِ العصىّ

ويدلف الوعد المراوغ بالسلامِ

ليسحر الحمقى،

يهرول نحوه الجمعُ الشتيتُ

وقد تمرغ فى الرغامِ

ويسقط الشرف الرفيعُ

ولامناص!

* * *

هذا طريق الموتِ

مفتوحٌ على لغةٍ تعرّى ساكنوها
فالهوان بلاغةٌ
وتراجع المدِّ الجليل زعامةٌ
وخيانةُ الموتى
سبيل للخلاص!.

كلام عن السلام..

(إلى العدو الذى كان... وما يزال)

كم تكابرُ؟
بل تتوقع منى الذى لا أطيقُ!.
تدقُّ على البابِ
ينفتح البابُ
تصبح من زمرة الأهلِ،
متشحًا بالأمانِ
ومختلطا بنجاوى العروقِ

ومتكأً حيث كان لجدى مكانٌ

لتشرب قهوتنا

وتغنى حكاياتنا

ثم تحمل أسماءنا

وتسابقنا فى الحنين الذى لا يجفُّ

وفى فوحانِ ندًى لا يفيق!

تتوقع منى الذى لا أطيقُ

وقد صرت فى داخل البيت

تلقى سماسرة يُهرعون

أدلّاء للركب يستبقون...

وتلقى الذين يبيعون أوطانهم

جاهزين

وقد شربوا سلفًا دمها..

واستذلوا جرانيتها

ثم عاثوا فسادا..

وتلقى أشاوس كانوا

وقد أصبحوا

خدمًا

يؤمرون فيأتمرونَ

ويلتمسون إشارة هذا الغريب الدخيل

وأنت تمارسُ أقنعة الضيفِ

لعبة كل اللصوص العتاةِ

وتلقى علينا السلامَ

فيا للزمان الغريب الصفيق!

* * *

الفضاء الذى لا يُحدُّ

الوجود الذى لا يُمدُّ

السؤالُ الذى لا يُردُّ

هو الزمن الغادرُ المتسلّلُ

فينا،

ووجه انبعاث الرمادِ السديمِ
وأنت تصاولنى وتراوِغُ
أنت تقاربنى
وتخادعُ،
تكسبُ فى خطوتيكَ
اقترابا، وبعدًا
مراوغةً، وانعطافًا
تعاودُ..
أرثى
لكل الأولى أُكرهوا
كى يكونوا جلوسًا معك
ها،
وهم يجهدون لكيلا تلامس أقدامهم موضعكْ
ها،
وكيلا تشمّ أنوفهمو

عطر هذا الدمار الذى كلما سرتَ
أقسم أن يتبعكَ
هاهمو فى موائد هذا السلامِ العجيبِ
يرون الألاعيب منك،
وأنت تدبّر صيدًا
وتحكم كيدًا
وتشتط جدًّا
أليس الفضاء فضاءك
والماء ماءك
والزمنُ المستبدُّ زمانك
من يملك الآن للبغى ردًّا؟

* * *

طللٌ عابرٌ
ورمالٌ تطاير من تحتها جمر ذاك الزمان القديمِ
وعاصفةٌ فى الضلوعِ

ودمع من الجمر منعقدٌ

وكلامٌ له لغة لا تقول!

وأنت تلاحقني..

وتحاول غرس السلام الذي لا ينيلُ

تحاول صيد القلوب التي تستميلُ

ليمتدَّ في الشرق ملكٌ ظليلٌ

ويخلو لك الأوسطيُّ..

ومن قبلُ

تخلو العقولُ

فكيف نصدق أنك وجهُ الزمان البديلُ

وما بيننا ما تزالُ الدماءُ

الدماءُ التي ما تزال تسيلُ

وما بيننا

قاتلٌ وقتيلُ

وما بيننا

فخٌّ شكٍّ،
وسدٌّ،
وخارطة تستطيلُ
وها أنت، ها
تتوقع منى الذى لا أطيقُ
يدا لك تمتدُّ،
أو بسمةً فى العيونِ،
ولمعةَ ود تألقُ فوق الجبينِ
وفنجانَ شاىٍ يدور عليه الكلامُ،
ومتكأً لك فى بيت أهلى
فيحلو السلامُ
وهذا هو المستحيلُ!.

إنها تعبر المسافة

لم تعد مستحيلةً،
إنها تستحمُّ فى نهرها الآنَ
وترخى جدائلَ الليلِ
من حول جياعٍ
وفى نهارٍ مراوغٍ
ثم تمضى لوجهةٍ
يعلم اللهُ مداها
ـ وقد تجىء ارتجالاً ـ

محفوفة بالأقاويلِ

- وقد لا يكون ثمة ما يغرى -

وحدُّ السنان فى القلب والغّ!.

هل تريدونها؟

تعالوا..

أريكم أين كانت..

وكيف صارت..

وماذا يتبقى من عطرها

حين تمضى..

إنها تعبر المسافة ما بين انطفاءِ السماءِ فينا

ولهو أرضٍ بأرضِ

لو رأتنا.. أغضت حياءً

ووارت وجهها

عن بشاعة الكونِ فينا

وعن ملاحمِ بغضٍ!

السباعُ العطشى إلى مرقِ العظمِ
تنوش الذين فى خدر الوهمِ
يرون الأمانَ مازال ممدودًا
وحبل الحياة يُرخى ويمتدُّ
علىَ حالتىْ قبولٍ
ورفضٍ..
كنستهم عواصفُ المشهد الدامى
هباءً يطير فى الريح كالذرِّ
نِثارًا..
يرمون بعضًا..
ببعضٍ
لم تعد مستحيلةً..
إنها الآن تدلّتْ
فأصبحت قاب قوسينِ
وغامتْ..

فلم تعد تتقراها

عيونٌ منهومة اللمحِ

جوعى..

لكنها طيٌّ غمضٍ!

حسبُها الآن أنها وقفت حيث ترانا

وحيث شاء هواها

وحيث ضاق مداها

وحيث ترنو..

وتُغضي!.

احتجـــاج

لقيتهُ يصرخُ فى البرية
مناديًا بالويل والثبور
عيناهُ كومتا لهبٌ
وملء شِدقيه نثارٌ من مراجل الغضبْ
ورأسهُ منحدرٌ إلى الوراء
يوشك فوق ظلّه يقع
الخطوُ يضطرب
واللغو يقترب

وفورة الزحام تفتلى

وتنسحبْ

لكنه ـ كأنما بلا سبب ـ

يخوض فى عظائم الأمور

والنفس المهتاج فى الضلوع يصطخبْ

وتبرق العيون حوله، كأنها رقعْ

تفحصه، تصنّفه

سرعان ما تدوسه وتجرفه

ويستحيل ومضها المندهش المذهور

إلى بقع

تنداح فى دائرة الفراغ والسكون

لكننى رأيتهُ

كأنما فى ذاته المهملة المنسيَّة

تسكنُ ما تزال

بقيةٌ من نفسه الأبيّه

مشرفةً على الجنون!

* * *

أمسِ اختفى،

ولم يعد..

هل مات؟

لا يدرى أحد

أم أن حُبْسَةً أصابت صوته المشروخَ،

فانعقدْ

كأنما احتجاجهُ الطويلْ

مضى سدى

من غير أن يزلزل العباد

أم أنَّ شرطة الطريق أوقفوه

حرصًا على نظافة المدينة التى فى عارها

تجوعُ أو تلدْ

مهما يكنْ..

فإن صوته هناك ما يزال
مختبئًا فى الطلقة المنكتمة..
والصيحة المنبهمة
يحلم أن يحرّك البلد!.

الذبح والسكين

فى البدءِ كان الذبحُ والسكينْ!
فهل تحسستَ عروق الرقبة؟
وهل تعقبت دماءً فى الثرى منسكبة
وخافقا منسحقًا
ينساب كالبخار صاعدًا من الوتينْ؟
وخيط ماءٍ من بكاء الروحِ
من تململِ الشجونِ

* (إلى نجيب محفوظ: المبدع والإنسان)

فى الفرائص المشتبكة!

القشرة التى ظلت تخالسُ الوجوه ساعةً من الزمانْ

سرعان ما تشققتْ

وانحسر النقابْ

فجلجلت شريعةُ الذئابْ

وانطفأ السلام فى العيونْ!

* * *

يا أيها الشيخُ الذى تئودهُ خطاه

الطعنةُ التى تخيرتكَ عمَّدتك بالدماء

وجمّعت أنفاسنا المذعورة المضطربة

وشملنا البديدَ فى مآدب الكلام!

يا أيها الشيخ الذى تحملهُ عصاه

أىّ ظلامٍ قابعٍ تشقهُ عيناكْ؟

وأىُّ عطرٍ نافذٍ ينثرهُ شذاك؟

وأى فصل فى رواية الحياةِ

لم يزل هناك؟

الدربُ مثلما عرفتَ،

لا تظنَّه اشتبهْ

ومثلما وصفتَ،

من سواكَ يعرف الداء المقيمْ

ملء النفوسِ الخربة

ومن سواك يسترد الآن وجهَهُ المضىءْ

من بين أكوام الوجوهِ الكذبةْ

منارةً

لا تشجب الحروف عندها،

أو تلتبسْ

فلم يعد يجدى تسكعٌ على الضفاف

ولا تمسّحٌ فى حائط المبكى ولغوهِ المبينْ

ولا انتظارُ البركات فى أكفّ الطيبين الحالمينْ

فمنذ غاب الوحى عن سمائنا

وانبتّ حبلُه المتين

ما عاد يجدى أن يقالَ:

اشتعل الغابُ،

وعربد الجنون!

* * *

هل نحن ذابحوه؟.

نحن المنافقين والأوغادَ واللصوص..

والقابعين فى رهان الخلط والتخليط، يُفتون ويعبثونْ

والمارقين فى دهاليز الكلامِ..

أو مباخر النصوص

والباحثين عن شريحة من جثة الوطن

ليصنعوا وليمة الذئاب

لعلها أن تُشبع البطون!.

والصامتين..

لم ينافحوا..

ولم يحركوا السكونْ

لكنهم، بدورهم، يراهنون!

....

فى البدءِ

كان الذبحُ والسكين

وفى الختام،

كلنا المضرّجُ الطعين!.

وقـت لاقتنـاص الوقـت

وهجٌ يسطعُ من ياقوتةِ الليلِ
ونهرٌ شبقٌ يركضُ فى برّية الحلمِ
ووقت صاهلٌ بالرغباتْ!
أنتَ فى المرآةِ...
والمرآةُ فى عينيكَ
هل ثمّ اختلافٌ واتفاق
فأعرها ما تُعيرُ الريحُ للفوضى
وبادرها عناقًا بعناق

إن هذا الطل الشامخَ

مرصودٌ..

وفى أيقونة العمرِ

حياة تتصبُّى

وموات

والذى يلقى به النهرُ

أراجيفُ..

وفى الشطئانِ مازالت تئن الصبوات

وهج يسطعُ!

أم فجرٌ من الشك مراوغٌ؟

دعه ـ لا بأس ـ يمر الآن من خارطة الوهمِ..

وأطلقه، كما ينساب سهم الموتِ

من قبضة صيادٍ

بهدا الليل والغّ

ما الذى يبقى لكى تخسرَ..

والموجُ إلى الأعناقِ بالغ!

لن يعودَ الوجدُ للنهرِ

ولن ترجع للقلب النبوءاتُ

ولا النخل الذى طالَ وشيّخْ

قادرٌ أن يحنىَ الهامَ

ويرتدّ وئيدًا

مثقل الخطوِ

يعزى فى جناز الريح

فالموت الذى نلقاهُ

موتٌ محكمُ الأطراف سابغ!

فتدثّرْ..

قبل أن يزحف فى القلبِ

شتاءُ العمرِ..

والليل يبالغْ..

إنه وقت افتناص الوقتِ

إطلاق الخيول الدُّهْمِ
فى قلب فضاءِ النّزوات!
وتلفّتْ..
ليس ما ترجوه من حولك.
والفائز فى الحلبةِ
عِنّينٌ
يسوقون إليه الكلمات!

لـؤلـؤة المجـوس

في شبق الأرضِ،
وفي لؤلؤة المجوسْ
قصيدةٌ مريبةٌ تجوسْ
طـلٌّ يذوبُ،
دمعة تنهلُّ
ماردٌ بِثقْلهِ يدوس
وجثث تطيرُ في الهواءِ
تحتها تحملقُ الرؤوس

من أنت يا نجمًا يُطلّ
مثلما تختالُ فى جلوتها عروس؟.
نذير شؤم أنتَ؟
أم وشايةٌ
أم صاحبٌ أنيس!
وما الذى يُطلُّ فى يديكَ؟
حريةٌ
أم وردةٌ ميتةٌ..
تعافها النفوسّ..؟
حذارِ يا نجمُ...
ففى المدار ضجةٌ
وفى زحام القومِ..
قاتل يئوس!

* * *

فى شبق الأرضِ

وفى تعاقب الفصول

ثَـمَّ نهارٌ واسـعٌ

وثَـمَّ صدرٌ واجفٌ

وخطوةٌ ملول

وسـاحة..

لذلك الذى يقول وهو لا يقول!

وأنت كونٌ هـائل..

ونقمة توقدتْ..

وعـاَلمٌ ملول

وأنت وحدك الإلهُ والتبيعُ والرسـول

مندفعٌ فى لغةٍ..

يمشى بها الفضول

عجّلْ

طقوس الذبح قد هـاءت

وهذى سـاحةٌ...

ولا دليل..

الوقت شاخصٌ

وأنت شاهدٌ

وقاتل.. قتيل!

والزمن المحنىُّ غائرُ الخطى

مرتطم بغيرهِ

وحائط يميل

هل أنت مَنْ أحببتَ!

واستجرْتَ

عندما عبرْتَ

وانطفأْتَ..؟.

أم تُراك ظلٌّ خادعٌ

وموعدٌ مراوغٌ

ولاِ سبيل!

تراجــع

أتجوّل فى ذاكرتى

أتراجع؟

- لا أنوى أن أتراجع -

يهدل فى سمعى صوتٌ ملتاع

وترفرفُ أجنحةٌ لطيورٍ غاربةٍ

ويغيب شعاع..

أستغرق..

لا أنوى هربًا..

وفرارًا من أسنِ الكونِ

مذاقِ اللحظة

طعمِ الخيبةِ

أو إحساسِ ضياع

لا أنوى...

أنوى أتراجعُ

حيث براءة حلمٍ وئدت..

هل تنفخ فيها من روحك؟

تبعث فى الأعضاء حرارتَها

فيسيل الماءُ!

وتصهل ـ فى الصدر ـ الأشياءُ

هل أنت جديرٌ بالمسعى

وطواف البيتِ

وحمل الصخرةِ باستمتاع؟

مثلك لا تُربكه الفوضى

لا يقهره شجنُ الناسِ
ولا يُغريه أىّ قناع..
فاغرز سكينك فى لحم الليل العارى
ناولنى بعضًا مما أعطاك اللهُ
واسكب خمرك فى كأسى
وتولَّ بعيدًا عنى
ـ كى لا أنظر فى عينيكَ ـ
فأجبنَ
أو أتراجعَ
لا،
لا أنوى أن أتراجعَ
ثَمَّ طريقٌ يفضى
ونهاياتٍ أقربُ مما أمّلت
وجهٌ يقبع فى ذاكرتى
أنهضُ

هـأنذا أتقدمُ

لا أتعثرُ..

أخطو..

ماذا..؟!

ثَمَّ فضاءٌ يُعولُ فىَّ

أزيزُ رياح غضبى تسكننى

وصريرٌ يعلن عن أبوابٍ راحت ترتجُّ

وتوشك أن تتهاوى

أعدو مذعورَ الخطوِ

وأُحكمُ من نافذتى

أُدرك أنى منسحبٌ

خاوٍ

أتكفّفُ بعض فُتاتِ الوقتِ

....

وأفقدُ ذاكرتى!.

انشطار

فى عصر الانشطارْ
ها أنت طرفٌ حائرٌ
شتته المدار
وكلما استدار ناشرًا قلاعهُ،
أو مغمِدًا فى صدرِ حلمه اليدا
أصابه الدوار!
فهل مضى اليقينُ، حينما احتسبْتهُ - سُدى؟
وهل توقعت زمانًا أسودًا؟

عليك أن تراجع الذى عرفتٌ
وأن تجاوز الذى أدمنتَ فاسترحتٌ
وأن تغوص فى البحارِ
أو تطير صُعُدا
بحثًا عن الذى فقدته، أو اكتسبْت
من قبل أن تصير بددًا
لأنّ فى نصفيكَ
- حين انشطرا -
جرثومة الدمار!.

* * *

ترفض ما تحبهُ
تحبُّ ما ليس موافقًا هواكَ
أو متابعًا نجم سراك
ها أنت بين اثنينِ،
نشوةِ الجنون،

وانكسارةِ الهلاك..

هل حكمتانِ حكمتك؟

وخطوتان خطوتك؟

لا تستريحان إلى نهاية

أو تفضيان - مرةً - إلى قطيعة مؤكدة

تحميك من ترددٍ

ومن عِراك؟

فما الذى دهاك؟

أدمنت هذا الفخَّ من تقلب المزاج..

وأنت فى المابين..

يستهويك صيادٌ

وتُدميك شِباك..

وحينما أوَيتَ للفراش،

حينما أحكمْت خلفك الرتاج

وانبطحت رغائب عاتية مدمرة

كانت تتوشُ فى دمك

كأنها أزيز حائطٍ من الزجاج

ينهار تحت قبضة الفولاذ

أو تناطح الأفلاك..

تنهار حكمة لم يدرها سواك..

هل كنت عاريًا؟

فخفْتَ من نُجيْمةٍ رصينة تراك؟

* * *

لا تكتئبْ..

دع عنك ما يريبُ من دوائر الخجلْ

وستّر ما تظنه الفضيحة..

فكل ما تفعله، يفعله الجميع

لا الآبق الوحيد أنت..

ولا الذى عيناهُ فى الجنة والنارِ معًا

والآخرونَ ـ مثلما عهدتَهم ـ منشطرونَ

فارغونَ

زائفونَ

والغونَ فى الفضائل القبيحة!

يسعون سعيك الحثيث لالتهام هذه الذبيحة

والفوز باللذائذ المحرمة

فمن يعفُّ؟ لا أحدٌ

والعاجزون استسلموا للحكمة المريحة!.

* * *

أحلم باكتمال تلك الشجرة

هذا التوحد الحميم فى وداعة النسيم وانطلاقةِ العواصف

والنزقُ المشبوب فى عروقها

يمور مثلما تدمدم القواصف

سَكينةٌ مريبةٌ، ودمدمة

وفورة عتية، وهيْنمة

وأنت فى ظلالها ملتحفٌ، ومرتجفٌ

تظنها متكأً..

ما عاد يجدى الاتكاء

ولا انحناءة فى فيئها الممدودِ

باحثًا للقلب عن سقيفةٍ، وعن غطاء

وللعيونْ المُشرعاتِ

عن سكينةٍ، وعن صفاء

وحين أسدلت شعورها

وانساب صفصاف ينام وادعًا على الكتف

أدركْتَ ما بين السحاب والبروق

ما بين جلوة الغروب والشروق

ما بين سكرة الصبِوح والغَبوق

من حكمةٍ جذلى

يئودها الترف!

ومن تناغم يزفه الثرى إلى السماء

فى صدر عاشق يداه تغرقان فى الدماء

ونجمة قتيلة

أودى بها الحياء!

من يوقف الحمّى

ومن يصادر الرجاء..

ومن يطامن الغلوّ والصلف؟.

وهو الذى لم يقض منها وطرَهْ!.

ولم تزل مساحة لطائر أو حشرة

يُولدُ

أو يموتُ

فى اكتمال تلك الشجرة!

ممعن فى اليقين

داخل فى يقينهِ
كلما أوغلَ..
فاضت سماؤه بالعطايا
تستضىء الحروفُ من قبسٍ منهُ،
وينثالُ بَرْقهُ كاندلاع الجمرِ
شبت نيرانهُ..
فى الحنايا...
رحمُ الأرض مائجٌ..

والذى يسكن فيه
مشوّهٌ،
وانتسابُ السماء ما عاد يجديهِ
«الثريا» تناثرت
و«سهيلٌ» فى ساعة النزع مخنوقٌ
وفى الأفقِ هاجسٌ...
وشظايا
فى عروق الشتاءِ تنتفض الرغبةُ
حبلى
وتستفيقُ أساطير عجافٌ..
وشاعر القوم أعمى:
ربابةٌ وحكاية
هاك وقت اليقين..
لا تسألِ الآنَ..
ولا تعترفْ بغير خطاياكَ..
فالأرض مملوءة بالخطايا

أىّ ماءٍ وردتَ؟

أىّ طريق سرتَ فيه؟.

هذى دروب القهر تسعى

محفوفة بالمنايا

لا تُشحّ..

واستدر إليها

وبادرها بطعنٍ..

لكى تشق الخفايا

واتخذ من ظلال رمحكَ إيقاعًا

ومن جلوةِ السنان مرايا

وانتبهْ..

إن فى أصابعك الجمرَ

ومن حولك غاصت مدائنٌ

فاستحالت..

جواريًا وسبايا..

* * *

شجنٌ نازفٌ

وعزفٌ على أوتار دنياك مشدودٌ،

وفى قبضة ريحٍ

تجمعت كلُّ فجاجِ الأرضِ

سُدتْ جميعها فهى تقصيكَ

فتنأى

وفى صدركَ يقعى مضرجٌ

يتعايا!

هل تقيمُ الحدادَ؟

لا القوم يبغونَ...

ولاأنت طليقٌ

ولا الساحة تغرى

ولستَ تدرى النوايا

ممعنٌ فى اليقين

هيهات يرضيك احتمالٌ..

وتستبيكَ مواعيدُ

لها طعمُ افتضاضِ السرّ

ها أنت منهكًا قد حملتَ الكونَ

وسّدته فوق قرنيْكَ

وفاخرتَ..

من تفاخر؟

هل تدرى؟

جماجمًا . ..

وضحايا!

ليتنى أرتضى الذى قد تعشّقتَ

وأمعنْتَ لديهِ

غَوايةً...

وانعطافًا..

كنتُ أعليتُ رايتى..

وركزت الرمح حولى

وقلت للريح هبّى

فلن تعوقى مدايا

كنت أطلقت ما تكتمتُ

فانهارت سدودٌ...

وحلّق البوح فى الجوّ

نسورًا تخطفت عصبة الإفكِ

وطوفانَ رجومٍ

يجتثُّ هذى الرزايا

ليتنى!

ليتنى!

فهل أملك الآن يقينًا

- كما ملكْتَ

وحرفًا مستبدًّا

وشاطئًا

ونهاية!.

عاشـق اللـون

هل لأنك مختلفٌ

لم تشأ أن يضمك هذا السكونُ البليدُ

الذى ضمنا

فانتويْتَ الرحيل؟

أم لأن يديكَ

ـ اللتين تجسدتا فى فضاءِ الغواية

فامتلكتّكَ النهاياتُ ـ

شاغلتاكَ

فحلَّقْتَ تَنْشدُ

حلم السكون الجميل؟

أم هو اللونُ طارحكَ العشق

حين تصبّتك عيناهُ

أغواك أن تستقلَّ الفراغَ

وتبحث فى دارةِ النجمِ

عن مرفأٍ..

أو مقيل؟

لم تكن واهمًا..

حين عاينْتَ وجْهَ الفسادِ

فأشعلت فى الكون نار الجمالِ

وأضرمْتَ فى الكائنات اشتهاءَ التحولِ

والحلم بالمستحيل!

فى يديك الخلاصة..

هل تريدُ طريقًا إلى الحلم؟

إن الجمال الذى يحتويك
هو المرتقى
حين تزمعُ..
وهو السبيلّ
يا خليلى الذى لم يُتَحْ لى اكتناه فضاءاتهِ
أو قراءة أورادهِ
وهو يسكبُ فى لغة اللونِ
معزوفةً
وانتفاضة قلب عليل
كنت أحسبُ أن الذى نشتهى
أمدٌ قادمٌ..
والذى ننتويه
زمان طويل!
حين أسلمت للريح وجهكَ
وابتلعتكَ المسافةُ

هل كنت مغتربًا .. بيننا ..
فامتطيت المدى
باحثا عن بديل؟
ممعن أنت فى جلواتِ الصعودِ
وفى دورانِ الشموسِ
فمن يستطيع إليك الوصولّ؟
أنت مستغرقٌ ما تزالُ
ومندمجٌ فى العناصرِ
محترق بالجمالِ
ومنبعث فى الفصولّ!

وجــه الكــون

لا الليلُ ليلٌ حقيقىٌّ
فنخشاهُ..
ولا النهار.. نهارىٌّ
فنحياهُ
وبين هذينِ.. تيهٌ مد قامتهُ
واستحكمت فى نواصينا مراياه
ظلٌّ على الأفقِ
ممدودٌ ومرتعشٌ

وخافق يصطلى.. ترتجُّ شكواهُ

لا الليلُ ليلٌ.فنأوى

ثَمَّ متكأٌ

وثَمَّ مدفأةٌ،

وسامرٌ جاهزٌ

صُفت حكاياهُ..

نحن العراةُ

تغطينا وتسترنا صفائحُ الليلِ،

تغوينا خفاياهُ

نفضى إليهُ

فبابُ السرِّ منفتحٌ

والمتعبون حيارى فى زواياهُ

قفر هو الليلُ..

خاوٍ

شائهٌ أبدًا

ومعتمٌ وجههُ الكابى..

فهل أذنت عيناهُ بالدمعِ؟

إن الدمع تياهُ..

ليلٌ ويمضى

وليلٌ قادمٌ أبدًا

وساهرٌ لم يعدْ فى الليل مأواهُ

الصحو ينفحُ فينا بعض جلْوتهِ

وفى العروق شظايا من حُميّاهُ

الصحوُ موعدنا يا ليلُ،

دع جَلَدى

ودعْ مسيرة يومٍ سوف ألقاهُ

كابوسكَ الأطلسىُّ السمتِ مفترسٌ

كالأخطبوط،

قد التفّت ذراعاهُ

ما عدتُ وحدى

وقد أقبلتَ متئدًا

مستوثق الخطوِ..

والأهوال أشباهُ

ضيفًا ثقيلاً..

ويأبانا

ونأباهُ

فانفض عباءتكَ الشوهاءَ

يا لَيدٍ تسعى

وعينٍ لم تنمْ كمدًا

ورفٍّ وعدٌ قديمٌ

هل نُلَقّاهُ؟

فى جوفنا الملح يغلى

وهاتفٌ من فضاء الروح منطلقٌ

ونستميتُ..

فوجه الكونِ فى حجرٍ

يُشعُّ فينا..

ويُشقينا مُحيّاهُ!

هـو الليـل

هو الليلُ:

صوتى،

ونطقى وصمتى

وميلاد وقتى

وريحانتى

وانطلاقةُ زهوى

وأرجاء بَهْوى

إذا ما رحُبْتُ اتساعًا لهذا الوجود

فمارستُ لُعبة صحوى،

وموتى

وموسم نوّلى

وفوتى

وإيقاع عمرى الجديد!

* * *

وينطلق الحلمُ..

تزهو الفصولُ

وتغتسل الأرضُ

هذا ربيعُ الحقولِ

وهذا أوانُ العناقِ

ولفح ائتلاقِ الزمانِ الجميل

وناهدة من عذارى القرنفلِ

تنصبُ فخَّ الشباكِ

لذوّبِ النسيم العليل

وتحكم شدَّ الإزارِ
لمتكأٍ..
عند ومض الشروقِ
ومغتبقِ..
فى ضفافِ الأصيلْ
هو الليل يفصحُ..
فى لغة العطرِ
فى قطرة الطلّ
فى فَوَحانِ الرغائبِ
مشعلةً صهدها
فى جذوع الصبايا
وصدر النخيلْ

* * *

هو الليلُ
طاشت خطى الكائناتِ

وأعولَ عزفُ الرياحِ
وفاضتْ دموعُ النجومِ
وطارت حكايا القرنفلِ
وانداح رجع النداء الطويلْ
وما زلْتِ غائبةً
والفضاء حصارٌ ومنفى
وهذا الزمانُ البخيلْ!
هو الليل
أشرعةٌ أُحكمت للرحيلِ
وفاكهةٌ مشتهاةٌ
ووجهٌ جميلٌ تناءى
وما من دليل!

وجه لا يطمسه غياب

كلُّ شعاب الأرض تُراوغهُ
ـ لا يكترثُ ولا يتراجعُ ـ
وهو يُغذُّ خطاهُ
ويسبق صحْوَ الطيرِ
لوطنٍ ناءٍ
ومدى أبعدَمما كان يظنُّ
وحلمٍ لا يتحققُ
لكنْ

كانت عيناهُ ترودانِ خبيئًا
يوشك أن يتشكّلَ
لـمْـعَ سـرابٍ
قربة ماءٍ،
أو صحراء..
يلدالوقتُ بديلاً منهُ،
وتبحرُ فى الظن الأشياءُ
ويظل يراوده المجهولُ
وتقفز بين يديه الصبواتُ
وتصهل فى الذاكرة الرغباتُ العجلى
وتئن الأعضاء
ها قدرك مرسومٌ فى طوقِ حمامة
أو مدفونٌ فى بطن الحوت
أوسارٍ حيث تجوبُ العاصفةُ الفلواتِ
وحيث الذرُّ السابح فى الريحْ

فانظر قَدَركَ

واتبع هذا النجم التائهَ

حيثُ يغيبُ

وحيثُ يلوحُ!

أمسك بزمامِ اللهبِ الجامحِ

حتى لايشتعل العمرُ

وأغلق نافذةَ الأسماءِ

فوجهُ الزمن قبيحٌ

مثلكُ لا يبعدُ عن غايتهِ

فارحلْ..

هذى أرضُ الجدبٍ

وهذا الغيث شحيحٌ

واحملْ..

- فيماتحمل من تذكاراتكَ -

وجهًا

لم يطمسه غيابٌ
لا تلغيه شواغلُ
أو تقصيه مغانمُ وفتوح..
يسطع فى لحظاتِ اليأسِ
ويورقُ فى صحراء العمرِ
ويمسحُ من وجعٍ
وجروح..
لولاه،
ولولا بعضٌ منه تسرّبَ فيكَ
ملامحَ،
نبْضَ خلايا
رفّةَ روح
كنتَ ضللت المسعى
عِفْتَ العيشَ الخاوىَ
ما بين شتاتٍ
ونزوح!

وجه أبنوسى

إلى الوجه الذى يضىء لى رحلة الحياة

وفيه من «الأبنوس»

صفاؤه ونعومته

أصالته وعنفوانه.

فاروق شوشة

بدايــــات

مفتتح

أنا الآنَ أُبحرُ فىَ لغةٍ
لم تكن لغتى *
وأخرجُ من لغةٍ
لم تعد لغتى
تخففّت مما حملتُ،
وأثقل ظهرى،

وشلّ لسانى

فلم يكن الصوتُ صوتى

ولا مفرداتُ البيان بيانى

ولكنها صدمةُ اللغة الكاشفة

أكان الذى كُنّتهُ

غيّرَ ما صوّرتْ ذات نفسى لنفسى؟

وحين تكشّف عنى القناعُ

انكشفّتُ

تُحركنى الدهشة الواجفة

وتُسقطنى الكلمات على أفقٍ لا يُحدّ

بعيد المدى

لم يكن ذات يومٍ مداىَ

ولا وجهتى!

منحنى القوس

هل أنتهى كما بدأتُ؟

أنتِ أنتِ منحنى القوسِ

وأنت الدائرة!

وهل هناك - ما تزالُ -

نجمةُ الشمال فى مكانها؟

من شُرفة البيت الذى

كان سياجُه المأوى

وكنتِ الذاكرة!

تفجؤنى برودةُ الوقتِ

قريبٌ من يدى بابُ السماءِ

قابعٌ فى عُشه المقرورِ

عصفور الليالى الماطرة

هذا عويل الريح

والأشجار تعّرى

والنخيلُ ينحنى

وبحةُ الناى الذى

كنتُ أظنه ابتدا

فهل لديك ما يصون الهاجسَ

الذى تبدّدا!

يُرمّمُ القلب الذى

تنوشهُ الملامحُ المغادرة

من قبل أن يندلع السعيرُ

فى عشبِ الجروح الغائرة

من قبل أن يشتعل الفضاءُ

بالذكرى

ويخفت الصدى!

القصيدة واللـون

فوق ظهر القصيدة يرتحلُ اللونُ،
والأقحوانُ المُنوّر مرتعشٌ فى البياضِ
ومنجذبٌ نحو قاطفه عنوةً
واليدُ القاتلة
تتقرّى ملامح هذا الفضاء المراوغِ
تُمعن فى سبّر ما يحملُ الظلُّ
من جلواتِ الشرودِ،
وما يتشكُل عند ارتطام العبارةِ

باللحظة الفاصلة

المطايا القصائدُ يوسعْن فى السيْرِ

متكأً للحنين

ويسعفْن عند انتهاء البكاءِ

وعند انطفاءِ الرجاءِ

وعند ابتعاد السماءِ

ويجدلْن من حَسكِ البرِّ

أُنشوطةً للنجاةِ

ولوْحًا..

يُردّدنه،

ويعاودنَ فاصلة فاصلة!

هل تريدُ سبيلاً إلى اللونِ؟

إن المنايا تسارعُ بالأبيض المَتغضّنِ

والأسودِ المُتمكنِ

فانفذْ إلى عتّمةِ السرِّ

واغمسْ بوجهك فى اللازوردِ

وعانق شهيق البنفسجِ

قل للسماءِ تُهيل ثريّاتها

آن للبحر يخلع لون جسارته

والبلاد البعيدة تحجبُ سحر غواياتها

فيضىءُ قُزح

باسطا فى المدى خطوه المرتعش

لن تعود السماء لعينيّكَ بيضاءَ

سوداءَ

والأرضُ قاحلةً،

والنسائمُ مخنوقةً فى المدادِ

فثمةَ لونٌ يضئ

وعاصفةٌ تتجمعُ

قلب يغادرُ أضلاعهُ

ويسير وحيدا

يظن المواسمَ تفصحُ عن قاطفيها

ويحسبُ أن البلاد لأصحابها
والسماءَ لطلابها
والمرابع مأهولة بالصبايا
ويمضى
يظلّ وحيداً يغنى
ويقبع مؤتنساً بالحكايا
فتفجؤه الطلقةُ القاتلة!

وجه أبنوسى

وجهٌ «أبنوسىٌّ»

يسطعُ فى ليلٍ مرتعشٍ

فيشيعُ الدفءَ

ويُطلقُ عاصفةَ الأشجانِ

ويشعلُ صهد الشوقِ

ويُذكى جمّرًا

تأكلهُ النيران!

* * *

وجه «أبنوسىٌّ»

يضفرُ عنقَ الليلِ

بوهج الشمسِ

ويسكبُ فى آبار الروح العطشى

حُلمَ الرىّ

وعطرَ الغابةِ

تسبحُ فيه روائح آفاقٍ مشتعلة

تتقصّف فيها العيدانْ!

* * *

وجه «أبنوسىٌّ»

ينطقُ لا يتكلّمُ

لكنْ

تومضُ فيه الشّفتانِ

وتنطلقُ العينانِ

ويُشعل فحمة وعدٍ كالبركانْ!

* * *

وجه «أبنوسىٌّ»

وجهُكِ..

هذا الوجهُ الصافى

مثلُ نسيمُ البحرِ

ومثلُ دبيب الجمرِ

ومثل رحيقِ العُمرِ

تقطّر فى شفتىَّ ظمآنْ

ياسيدتى

ضُمّى هذا الوجه وصُونيه

لكنْ...

أبدًا لا تخفيه

هذا وجهٌ يُبعد عنّا الأحزان!

وجه يمنحنى الغفــران

كان الأفق الغائمُ

لا يفصحُ عن بارق ضوءٍ

أو قطرة طلٍّ

تروى عطش القلبِ

وصحراءَ العُمر الصّدْيانْ

أُفق لا يفصح عن وعدٍ

وسماءٌ لا تلدُ ربيعا

وخيوط سود تلتفُّ
كما التفّت أفعى
فى فحمة ليلٍ مرتعشٍ
تتراقص منها عينانْ
أفق مسدودٌ
وكآبات حبلى
وزمان يتكسّرُ فوق زمان!

أهذا قلبُ الوقتِ...
تَقلَّب فيه النجمُ السّاهرُ
وهو يتابعُ خطْوَ الفَلكِ
ثقيلاً فى أعماق الناسِ
خفيفا حين يضلُّ العقلُ
وعصْفاً تأكلهُ النيرانْ
الجبُّ سحيقٌ،

يا مَنْ تُدْلى طرفَ الحبلِ

وتطمعُ فى جَلواتِ الوصلِ

وهذا قاعُ البئر تكشّف

جاء زمانُ البوْحِ

فحطّمْ سجْنَ الروحِ

وحاذرْ دمدمة القضبانْ!]

وطلعْتِ،

كما ينقضُّ شهابٌ،

ومضُ شهابٍ

كان يدورُ غريباً

ملْءَ فضاءِ الكونِ

يفتّش، لايدرى، عن مأوى

ومدارٍ يسبحُ فيهِ

أخيراً..

كفَّ عن الدوران!

ماذا كان؟

هل ضفّرَتِ ذوائب شجر الصفصافِ
فصار الشجرُ عذارى
والغُدران مسيلاً من ياقوت
والآفاقُ الممتدّةُ عِقداً
فى عُنق النّخل الفينان!
هل حرّكَتِ الكونَ
بلمسة كفٍّ منكِ
بنقرةِ إصبعك المشوقِ
كعازف موسيقى لا يُخطىءُ
صارت هوجُ الريح رُخاءً
وانساب نسيمٌ
ملء حنايا الصدرِ!
وجاشت دندنة العيدانْ!
هل لامس صوتُكِ سمْع الكونِ

فلما اهتزّ فؤاد الكونِ

بكى..

فبكينا..

انساب الدمع شجياً

يسطع فيه فيروزُ الألحان

ويغنى لغة البوّح اثنانْ!

[من يدرى ماذا يحدثُ

حين خلايانا تصطكُّ

ويمرقُ شرر فى العينينِ

وتصغى نفسٌ وجدت إلّفاً

فاخترقت حاجزَ عزلتها

وتخلّت عن ذاكرةِ الموتِ

لتفُصح عن مولدِ إنسان!

هل ثَمّ جنونٌ

أكبر من قفزٍ فى اليمّ

مُخاتلةِ الأمواج الغضبى
حين تجيشُ بها الأنفاسُ
ركوبِ العاصفةِ الهوجاءِ
ورشقِ الزورقِ
فى الطوفان؟
الوحشةُ تسكنُ هذا البيتَ
وتوغلُ بين شعِاب القلبِ
فعجّلْ وارحلْ
لا، لا ترحل
ابْقَ وصارع سقفَ الليل
وشارف مدناً أخرى
مُدناً أجملْ
وانفذْ من خَلَلِ الجدران!
هل أنتِ كما اشتعلَ الوهجُ الشمسىُّ
فكان الطقْسُ الأبنوسىُّ

تضئُ سبائكهُ

يتقصّفُ فيه شجرُ الغابةِ

تتشجُ إيقاعاتُ طبولٍ

تسبح ملء روائحها لغةٌ

لغةٌ عارية لم نعهدها

ودفينٌ يطفو

آتٍ من أغوار البئرِ

وكان الظنُّ بأنَ البئر انطمرتْ

والأيامَ انطمستْ

فإذا الأعماقُ تكشّفُ

حين انشق الليلُ

انكسر الحاجزُ

ثارت ثائرةُ البركان!

يا لِلدهشةِ!

كيف اختلط سعارُ الرغبةِ
ـ وهو يدمدمُ فينا ـ
بالأحزان؟ .
[ياعينى، بكّى يا عينى
فرحا أو حزْناً سيّان!
أتطهر بالدمع، وأمضى
لزمانٍ كفّ عن الدوران
لاغيرُكِ يُحكم أشرعتى
ويُغطى الصدر العريان
لاغيرك يملكُ أسئلتى
ويجيبُ القلب الحيران
يا وجعاً أخشاهُ، ولكنّ
أترقبُ موعده الرّيان
وجُنونا أهواه لأنى
من غير جنونٍ سأمان!

ناقوس يقرعُ، إيقاعٌ
خالف مألوف الألحان
فى لغةٍ تتساب وتمضى
كالنهر السّاجى الجريانْ
ونسيم منك يُرطّبنى
ويُروّى عطش الظمآن
آثام زمانى قد رحلت
يا وجهاً يمنحنى الغفران!

الوعدُ يقول: غداً
ومدائنُ هذا الليل تقولُ:
غداً..
لكنى أعلمُ أن العمرَ
جميعَ العمر،
يقول: الآنَ
الآنْ!

بين طائــرتين

بين طائرتينِ..

عرفتُ انتظار المطاراتِ

معنى اندلاع الزمن

شجنٌ ذائبٌ

يُساقطهُ الوقتُ

وجوهٌ شتيتة اللّمحِ

وأفُق بغيمه مرتهن

حين أسندتُ مرفقيَّ وحدّقْتُ

تواريْتِ
وقلبى مُثبّتٌ بالفراغ
ومغرورقٌ بانهمار الشجنْ!
المطاراتُ
والدُّوارُ
نداءاتٌ توالت
وعينانِ تتَزّانِ
لظِىً صاعدٌ
أجلٌ آزفٌ
وانتظارٌ طويلٌ أَسِنْ
كيف أرتجُّ هكذا..
كالهشيم الذى يتطايرُ!
كيف أعيدُ اكتشافى
وأنى بهذى الهشاشةِ
هذا الوهَنْ؟
ربّ لم يبْق مُتّسعٌ للخيالِ

تزاحم حولى الفضاءُ
وأغرقنى فيضُ هذا الجمالِ
فأغفيتُ
مُستعصماً بالمحن
بيْن طائرتيْنِ
عرفتُ انتظار المطاراتِ
جرّبتُ أن أقتلَ الوقْتَ
فى وحشة الأعين الراكدة
راحلٌ فى الدروب التى
انبهمتْ فى المدارِ
أُعاودُ ضبْطَ المسارِ
فأعرفُ أين اتجاهى
وأدركُ معنى الوصول إلى المستحيلِ
أُسافرُ فيكِ.. وأمعنُ..
مُتّجهاً للوطن!

تـراجــــع

أتجوّل فى ذاكرتى

أتراجعُ..

لا أنوى أن أتراجعَ

يهدل فى سمعى صوت ملتاعٌ

وترفرفُ أجنحةً لطيورٍ غاربةٍ

ويغيبُ شعاعٌ

أستغرقُ

لا أنوى هرباً

وفراراً من أسنِ الكونِ

مذاقِ اللحظةِ

طعم الخيبةِ

أو إحساس ضياع

لا أنوى..

أنوى أتراجعُ

حيث براءة حلمٍ وُئدتْ

هل تنفخُ فيها من رُوحك

تبعث فى الأعضاء حرارتها

فيسيل الماءُ

وتصهل فى الصدر الأشياء!

هل أنت جدير بالمسْعى

وطواف البيتِ

وحمل الصخرة باستمتاع؟

مثلكَ لا تُربكهُ الفوضى

لا يقهرهُ شجنُ الناسِ

ولايُغريه أىُّ قناع

فاغرزْ سكّينا فى لحم الليل العارى

ناولْنى بعضا مما أعطاك اللهُ

واسكب من خمرك فى كأسى

وتولَّ بعيداً عنى

كىْ لا أنظر فى عينيكَ

فأجْبُنَ

أو أتراجعَ

لا،

لا أنوى أن أتراجعَ

ثَمَّ طريق يُفضى

ونهاياتٌ أقربُ مما أمّلتُ

ووجه يقبع فى ذاكرتى

أنهضُ،

هأنذا أتقدمُ

لا أتعثرُ

أخطو

ماذا؟

ثَمّ فضاء يعولُ فيّ

أزيزُ رياحٍ غضّبى تسكنني

وصريرٌ يُعلنُ عن أبوابٍ راحت ترتجُّ

وتوشكُ أن تتهاوى

أعدو مذعور الخطْوِ

وأُحكُم نافذتى

أدركُ أنى منُسحبٌ خاوٍ

أتكفّفُ بعض فُتاتِ الوقتِ

وأفقدُ ذاكرتى!

شــوقى

هل يأذنُ لى مولاىَ أميرُ الشعر؟
وقوفى طالَ..
وخطوى اللاهثُ مرتجفٌ
ويدى للقيا ممدودة
خلّفت ورائى سّيل ركاكة هذا الزمن الشائه
عُجمةَ غربانِ الشعرِ
وعُقم الأيامِ
وأوراقاً سقطت من بين الصفحاتِ

فداستْها الأقدامُ

تحاولُ أن تتزيّا برداءِ الشعرِ

انطمستْ فى اللّوْحِ

شظايا

وبقايا كلمٍ مردودة!

شوقى..

هذى سُدّتك العُليا

باذخةٌ

والرايةُ فوقك معقودة

أتحسّسُ خطوى عبْر مدارجِ ساحاتكْ

أتلمّسُ بعض يقينى فى كلماتكْ

وأطالع جلوة رُوحى فى شُرفاتكْ

ياقوتةَ هذا الفردوس السابحِ فى موجاتكْ

والليل السّاجىَ فى آهاتك

والنَّفسَ الممتدَ إلى أبعد نجمٍ
ينبضُ فى كفَّيْكَ
فيصُبح لؤلؤةً
وقصيدة!
أتسمّع عَبرَ الريحِ
بقايا من إيقاع الدهشةِ
من أنوار الحرْف السّاطعِ
حين تُحلّقُ عيناك المستغرَقتانِ بعيدا
خلف تخوم الرؤيا
ها أنت تُحدّق فى ومض الغيبوبة
تُلقى بشباكِ الشعرِ
وتمُعنُ فى مسراكَ
تُحلّقُ
ثم تُحلّقُ
ثم تحدّقُ

ترجع بالصيد النادرِ

كوْناً

ورُؤى

ومدائن حُلمٍ مشهودة

يُعيينا هذا الصرحُ الشامخُ

ننبشُ فيه، ونحن نطوّف

حجراً، حجراً

نتقرّى لوناً

زيْتاً،

ودهاناً

ومسالك سحْرٍ مرصودة!

شوقي..

هل تملك وقتاً لتحاول أن تقرأَنا

تحنى هامتك الشّماءَ

على كراسة أحفادك

وتُنقّب فيها عن سطرٍ كاد يميلُ

وحرفٍ كاد يقولُ

ولونٍ كاد يحولُ

فتدركُ أن الزمن اختلفَ

فصار نثاراً من أزمنةٍ معوجّة

تتداخل أو تتقاطعُ

تتقاربُ أو تتباعدُ

لكنْ..

نصلُ الشعر يُناجزها

فى أيدى الشعراء المنسلخين

مذاقاً وهُوّية

ينكسر النصلُ

وينكسرُ عمودُ الشعر

وتأتى

لغة بالسحر جديدة!

شوقى..
اغفر للأحفادِ تجرّؤهم
وتطوّلَهم
ظنوا أن سياجك مخترقٌ
وزمانك عبءٌ
ورحابك منهوبة
أو لم تسبقهم أنت لإشعال النار الشعرية
ها هم يمشون وراءكَ
يحمل كلٌّ منهم جذوة ناره
يُضرمها فى قلب الهيكل
تشعل أيديهم فى الكون فضاء الوقت
ويندفعون لشىءٍ لم يُعرف بعد
وغاياتٍ فى أقصى البعْدِ

تشاغلُ

ثم تُراودُ

والأحلامُ عصية

حاول أن تقرأهم

تمنحهم بعض الوقتِ

وبعض الصبرّ

تدرك أن الشعر اختلف

وأن عباءتك الواسعة الفضفاضة

ما عادت تدفىء أحفادك

ورياح الرعب تُلاحقهم

وخواءَ القلب

وبرودة أزمنة القهر

فاغفر للقادم دهشتهُ

وخروج الناس على المألوف

بحثاً عن آنية أخرى

وسلافٍ للقوم جديدة!

شوقى
فى قلب الوحشة نفتقدك
صوتاً
وشراعا،
وخيوطاً تجمعها فى قبضة كفٍّ مقتدرة
ونسيج بيانٍ
عُروته الوُثقى مشدودة
تشدو،
يتدفق نهر التاريخِ
وتنطلقُ الصبواتُ
ويصبحُ وجهُ الشرقِ بلون الشوقِ
ووجهُ الأرضِ
بحجْمِ العرضِ
ويسرى فى لغة الصحراءِ

يقينُ الماءِ

وتنبتُ فى الوديانِ عروقُ الملح

فتنتصبُ القاماتُ

وترتفعُ الهاماتُ

تعانقُ فيك زمان الجمرِ

سماءَ الشعر الموعودة!

شوقى

الشرق انطفأت فيه الشمسُ

استأسد فيه بنو الأفعى

وانتصب جدارُ الخوفِ

وليلُ الرعبِ

فهل نستسلمُ للأحزانِ

نهادنُ ليل الذلِّ

ونعصرُ عنقوده؟

شوقى

لاغيرُك يضرمُ وقْدَ الثأرِ

ويجهرُ باسمِ الشعرِ

ويُبدعُ لحن الموتِ

ويبكى الأندلس المفقودة!

•

باريـس

بردُ باريس لا يُردُّ
فلا تحمل عليه،
وقلْ لباريس : أهلا
أنت مُغرًى بها،
فبادرْ
وخلِّ الروح تَعْرَى
وفتنة القلب تَرْوَى
وزحاماً من الرؤى يتجمعن

ويشعلنك صهدًا

سحابةً من شواظٍ

صبواتٍ ينتابهن تشهّيكَ

فيقطرن

فى حناياك طلاّ !

تلك باريسُ

أسرع الخطْوَ

لا تلتفتْ ثَمَّ حوليْكَ،

وعجّل،

ضاع الكثير الذى ضاعَ

وعمرُ الزمانِ

يبطئ مَهْلا!

عن قليلٍ، تنسى برودة ساقيْكَ

وتلتف بالجمالِ الذى يُدفئ

تمضى مع النجومِ إلى الحُلْمِ

وتصطادُ ماسةً زيّنت جيد باريس
وتمضى
تتقرّى يداكَ جسّراً على «السينِ»
وأيقونةً تسبّحُ للربِّ،
جداراً معاندًا
ـ تظنُّهُ سوف ينقضُّ ـ
وصوتاً يضج فى ساحة «اللوفرِ»
فتلقى التاريخَ
وجهاً مُطلاًّ!
لسْتَ فى عتْمة الزّقاقِ
ولا فى زحمة الريح والروائح، والليلِ
وحيدًا،
فثمَّ من يتشهّوْنَ،
ويسعوْن للوليمةِ والفتْكِ
ويُغروْنَ بالسجيناتِ فى الضوءِ

وفوق الرصيفِ يعرضْنَ للسارين جوعى
بضاعةً لن تُردّا..
ثَمّ من يعبرون مثْلى خِفافاً
يتشهّوْنَ أن يروْا
ليقولوا : قد رأينا
سَطحَ الوجوهِ التى ليست تُتيح الغوْصَ فيها
ولا تُنيلُ سوى اللّمحِ
عيوناً محملقاتٍ، غليظاتٍ
ولوناً
مُصبّغاً، مُريدّا
لا تُسارعْ بالاتهام،
وحاذرْ،
ليست النسوةُ التى عِفْتَ
باريسَ..
وليس الذى تأملت فى اللوحةِ

إلا سحابةً تعبرُ الآنَ

ووجهاً مخالساً سوف ينزاحُ

لتَتَلقى سماءَها وهى تنداحُ

مدًى رائقَ السريرة والعطرِ،

وأفْقاً مضمّخاً،

مُستبدّا!

* * *

ما الذى أنت حاملٌ فى وطابِكْ؟

أيها القادمُ الذى جاء مسكوناً

بوهمٍ يظلُّ يبحثُ عنهُ

وسطورٍ قرأتَها ذات يومٍ،

تظل تحلُمُ لو كان زمانٌ من أجلها

يُستعادُ،

لتراها بعيْن حاضركَ الآنَ،

ولكن هيهاتَ!

باريسُكَ شيخوخةُ عُمرٍ
برودةٌ فى شرايينكَ
خَطْوٌ يهتزّ حين يُواتيكَ
فضاءٌ تضيعُ فيه معانيكَ
طيورًا مرفرفاتٍ بعيداً
وحنينٌ لغامضٍ
ليس يَهَدا!
سائحٌ أنتَ؟
لا،
ولا جئْتَ مُضيفاً حكايةً
للذى قيلَ،
ولا مشهدًا
لما دار بالأمس،
فهذا الطريقُ مزدحمُ الشوقِ
ورُوّادهُ

يزيدونَ عدًّا

إنهم سابقوكَ للمنهلِ العذبِ

ووُرادهُ الذين تمنّوْهُ طويلاً

فلمّا عرفوهُ،

ذابوا التياعاً

ووجْدا

ثم عادوا بقبْسةِ النارِ

فانداح حريقٌ فى ظُلمةِ الليلِ

وانجابَ زمانٌ

- طيرُ الخرافةِ يشدوهُ -

وشُقَّتْ أسدافُ وهمٍ مقيمْ

ثم عادوا..

تحرّكَ الماء فى النهرِ

وأضحى المسارُ

جَزْرًا

ومدّا!

قادمٌ أنت كى تردّدَ يوماً:

أنا باريسُ..

وهذى عجائبى وفنونى

فاتبعونى..

الفُتونُ الذى يُضلّكَ

يُرْديكَ..

فحاذرْ!

إنّ باريسَ لن تُصنِّفكَ اليوم إليها

ومصر لن تستردّك!

* * *

ما الذى أنت حاملٌ فى وطابك؟

أيها القادمُ الذى سوف يرتاعُ

إذا قيل: ليس هذا هو الوقتُ

ولا هذه الحقيبةُ مسموحٌ

ببعض الذى هو فيها
فعُدْ بهِ لبلادكْ
وتخلّصْ مما حملْتَ
وعاودْ !
تلك باريسُ
لم تزلْ ماءَ عينيْكَ
وفى القلبِ بغْيةَ المتمنّى
فتدفّأْ بها
وطاولْ صِيالها بصيالكْ
واغتنمْ ساعةً على صفحةِ «السين»
وقلْ:
آن للنيلِ أن يُحرّكَ ساقيْهِ
وأن يستفيق من دمع «إيزيسَ»
وألاّ يرتدَّ
فالليلُ حالكْ!

سوف تبقى مدينةُ النورِ فى القلْبِ
وتبقى عيدانُها
فى رمالِكِّ!

أبـى

كيف أغويْتَنى؟

حين صدّقتُ أنك باقٍ،

وأنّ زمانك يمتدّ فى الأفق المستحيل!

كنت تفلتُ منى..

ذراعاكَ لا تقويانِ على ضمّ صدرى إليكَ

ولا أتبيّنُ..

أنك تمعن فى البعد يوما فيوما

ويأخذك الجزّرُ شيئا فشيئا

ويسحبُ للقاعِ..

هذا البهاءَ المهيبَ الجليلْ

كيف صدّقتُ فتنةَ عُمرى،

وزهْوى بأنك لى

- كالنخيلِ الذى قد غرسْتَ -

امتدادٌ إلى آخر الدهرِ

يسطعُ فوق الحقولِ

ويوغل مخترقا فى السّديمِ

ويوغلُ -

لا يعتريه الذُّبولْ!

* * *

الجليلُ المسُجّى، أمام العيونِ،

قليلاً... ويبحرُ فى الشفقِ الأرجوانِ،

ونبحرُ فى الدمع،

ها، لحظةً

وننوء بأحمال عبءٍ ثقيلٍ

تغيبُ لتشرق فينا

ويسطعَ وجهك عبر ملامحنا

ويواكب نهر تضاريسنا

حين نطوى مسافة عمرٍ

ونعلنُ عن خطفةٍ للفراقِ

وعن زمنٍ للغياب الطويلْ

ها أنا أرتجيكَ

أنادى عليكَ..

وأشتاقُ وجْهَكَ..

أصغى لعلك...

أقبعُ فى حافّة الليلِ

منتظراً..

كاليتيم الذليل!

* * *

دع رداءك لى

أتشممُ فيه زمانكَ،

أغمسُ وجهى به إذ يُلامسنى

وأشُدُّ خيوطاً بك امتلأَت

صاحبتكَ طويلا..

وكانت تلاصق هذا الإهاب الصقيلُ

واقفٌ مثلُ سدٍّ منيعٍ غيابُك -

لا أستطيعُ اختراقًا

ولا أستطيعُ التقدمَ

لا أستطيع الرجوعَ إليك

ولا أستطيع انفلاتاً من الحزنِ

لا أستطيع إليك الدخول!

* * *

كان نهرا من الضوء ينسابُ

فى حلكةِ الليلِ،

والظلمة الداهمة..

كان يأخذنُا من دبيب الطفولة فينا

إلى حيث نُقلع فى لجّة الحرفِ

نركبُ متّنَ السؤالِ

وتحملنا موجة عارمة!

لم يكن يتوقف يوماً ليسأل:

أىَّ الحظوظ أصبّتُ؟

وأىَّ البلاد سكّنتُ؟

فقد كان يكفيه أنّا له الحظُّ..

نحن جَنَى الأرض

والأوسمة!

كان يحملنا ملّءَ عينيه

وهو يُغلق جفنيّهِ

يخشى علينا انداح الفضاء

ويخشى علينا المروق من الوقت

يخشى علينا التفرّق

واللحظة القادمة!

هو ذاك الذى كان يجمعُ زيتونَهُ

ويُقلّمُ نخلتَهُ

ويضئُ بساتينهُ

ويُجمّع فى قبضة اليدِ

ما أبقت العُسرةُ الداهمة!

كم نودُّ لو انّ الجبين المهيبَ

اطمأنَّ..

ولو أنّ وقع التراب على قدميْهِ

استحال غناءً

ولو أنّ هذى المسافة بين العصافير والحُلْمِ

كانت رُخاءً

ولو أنّ نهر العزاءِ الذى قدّمتهُ السماءُ

تفجَّر فى الأرض

فاخضوضل العمرُ،

وامّحت اللوْحةُ القاتمة!

* * *

ياأبى

ياأبى

ياصديق السّنين الطوالِ التى

شكّلتنى على صورةٍ منكَ،

صرْتَ قريناً لنفسى

وصوتاً لصوتى

ومتكأً حين تقتلع الحادثاتُ

فضاءً به انسكبَ الضوءُ والعطرُ،

والسيرةُ الفاغمَة

اليتيمُ يلوذ ببابكَ

جاء يدقُّ على جذع صبّارةٍ

نبتتْ حولهُ

واستحالت مدًى من عروقِ اخضرارِكِ

حين انسكبْتَ علينا

زماناً، وحُلماً، وطيفاً تباعدَ

ياليتهم يدركونَ

- الذين ألاقيهمو شبحاً هائماً

غارقاً فى الذهولْ -

أننى أتعزّى بأنك فىَّ

وأنى أديرُ الشريطَ الطويلَ

أطيرُ لمثواكَ بين الحقولِ

وأسكنُ تحت السكونِ الظليلِ

وأقنعُ من زوْرتى بالقليل!

لوركــا

المغنى العربىّ بالإسبانية

لوركا ..

حين وُلدْتَ.. أطلّ الموت معك

لم تبعُدْ خطواتك يوماً عن حدّ الموت

كنت تشاغب بالكلمات

وهو يُخايل من خلف التلّة

يومض ملء عيون الجبناء

لكأنّك لم تتوقف يوماً

حتى تسأل: ما معنى الموت؟

إلا فى مصرع إجنازيو[1]
فى الخامسة مساءً
فى قلْب الحلْبة
تحت قرون الثور الهائج
هذا موت تعرف معناهُ، وتبكيه
نُبلا وكرامة
ما دار بخلَدِك
أن رصاصا يمرقُ من جلباب الليل
يأتيك من الخلف
يمرقُ من ضفة جبلٍ صوب الأخرى
فى غرناطة
لا تدرى منْ صوّب غدّارته
من أين أتتكَ الطلقة
فانقبضت عيناك على جمرات اليُتْم

---

(١) إجنازيو سانشيث مصارع الثيران الإسبانى المشهور، رثاه لوركا بقصيدة من روائعه.

وانحفرت فى سيماء الوجه، لوجه الموتِ، علامة
أنت المتقمصُ روح الأسطوريين
من فرسان الحلبة..
لكن..
ها هوِ ذا موت يأتيك
لا يمنح وقتاً
لمبارزةٍ منكَ
مصاولةٍ
أو بعض نِزال
يمرقُ من فُوّهة الغدر
ومن أقبية الليل الأسود
فسقطْت حزيناً
حزنَ شهيدٍ
يدفنُ هامته فى قلب الصحراء
بحثًا عن قطرةِ ماءْ!

* * *

لوركا

حين اشتعل الحرف العربىُّ

يُغنّى الوجع الأندلسىّ

ويسرى فى عيدان قصائدك المفعمةِ

بكاءً وأنينا

شجناً، وحنينا

توْقاً للمجهول الغاربِ

والمترسّب فى الوجدان

كان نشيجُك يُحْيى وجهاً غابَ

وأفقا تأكلُه النيران

وغناءً حُرًا يتردّدُ

فى الجبل الأجردِ

- حيث وُلدْتَ وحيثُ قُتلتَ -

وفى الوديان

يتصاعد فى العزف المجنونِ

ويسرى فى شدو الرعيان

هل كنت تسافرُ فى ذاكرة الزمن العربىّ

بحْثًا عن لؤلؤةِ الفردوسِ

وعن عينيْن مُكحّلتيْنِ

وعُرسٍ كان دمشقيًّا

وهو يعومُ على مُرتجّ الموجِ

وثَبجِ الأوْجِ

يسوقُ إلى بستان الشام جدائل غرناطة

ويُعتِّق صهد الأندلسيين

سُلافةً عشق وصبابة

يترشفها فتيانُ الليلِ

وفرسانُ الصبوة

والندمان

لوركا..

خذ ناصية الحلم

ومُتّسع الأفق الأندلسىّ

وحلّق

اضربْ بجناحيْكَ،

فأنت شرارةُ هذا الفجر القادمِ

أنت نبُوءةُ هذا العالمِ

تخرجُ من بين ركام الفوضى

وتغنى أغنية الإنسان!

لوركا ..

هذا سيفُ الوقتِ

وهذى أغنيةُ المقْتِ

طغاةُ العالم مازالوا

والسّاحة ملأى بالأحزان!

«لوركا..

برق يسطع فى أوردةالسّحب الحبْلى

وحصان برّىٌّ يركضُ فى العشب الأندلسى
ولحن غجرىٍ يتدافعُ فى حنجرة الجبل الأجردِ
فى غرناطة»

لوركا
هل جئت من الزمن العربىّ
وعانيْت الكون الشائهَ
حين انكسرت فيه القاماتُ
انخلعتْ فيه الصّبواتْ
فتلبّستَ الإسبانية وجهاً وقناعاً
لغة الفلامنكو إيقاعا
صدراً عُرياناً
وروائح بحرٍ مشتعلة
نقّبْتَ طويلا فى أبهاء الزمنِ العابر
لم يْسعفك بغير شراعٍ يغربُ فى اليمّ

وبكاء ينعى الفردوس المفقود

ونوارس تُبحر شاردة حاسرة الرأسِ

فأجفل شِعرُكَ

قَفَّ

وقلتَ : أُجرّدُ سيفى

أخرجُ لا أبغى مُلّكا

وأُخوّضُ فى قومٍ هلكى

أبحث عن موطئ قدمٍ فى غرناطة

تسكنهُ روحى

أحملُ تاريخًا يُثقلنى

غرناطة تُبحرُ فى طوفان الدمعِ

وتبكى العائد من رحلة فوضى وشتات

عُرياناً

يضرب فى تيه الكلمات!

لوركا

هل تدرى..

حين عرفتك

كان «وحيد النقاش» يُقرّبك إلينا

- نحن المفتونين بزهو العمرِ

ولغْوِ القول،

ووهم القدرة والتغيير -

كان «وحيد» جميلاً يعشق كلّ جميل

فإذا اكتشف جمالا

أصبح يحملُه ويغنّيه

ويدور به

يسقَى كلّ الأحبابِ وكلّ الأصحاب

كان يُحدثنا عن «يرْما»

عن روح عاقرةٍ

وزمانٍ بالخصْب شحيح

كان يحدثنا عن «عرس الدم»
عن شعرٍ فيكَ
وقامة عشقٍ وبطولة
ويحاول صيدَك
وهو يصوغ بهاءك فى جلوات الحرف العربى
حتى يقرأك المفتونون المأخوذون
فإذا أُتْرِعنا
وانحسر الكيْلُ وفاض
ألقى فينا بعض بشارته ونبوءته
أن ننتظر القادم من مكنون السحر،
ومملكة الشعر
كان «وحيد النقاش»
هذا الطيرُ المسكونُ بوهج السحر،
وأجمل ما فى لغة الطير،
وفرح الكون، وموسيقى الأشياء،

ووجع الكلمات
يسكبُ فى أعيننا خُضرة عينيْه
ينبت فى صحراء قساوتنا
أشجارًا وارفةً
وظلالاً من حُلُمٍ
ومواكب ألوانٍ ونغمٌ
ويُعيدُ نوافذَ ألق الروح إلى الأحياء
الزمن عقيم
والطيرُ المسكون بوهج السحرِ،
الطيرُ الأجملُ فينا، طار .
من زمن طار
خلّفنا نبحثُ عن عينيه الخضراويْنِ
ونَعْرى فى صفرةِ هذى الصحراء
وجدّبِ الليل المتراكم فينا ليلَ نهار!

لوركا
الآنَ وقد عاينْت..
هل ينحسرُ بعيداً ظلُّك
عن شبهة هذا الوجع العربىّ
وهذا العارِ المُنْشبِ فينا أنيابه
الموغلِ فى قهوتنا كلَّ صباح
القابع فى أعيننا كلّ مساء
والسّارى فى ألواح العشقِ
وفى هدهدة الأطفال
وأناتِ الغجر الجوّالين
العربِ المنفيين
وراءَ الزمن القادم كالإعصار!
لوركا
حاذر أن تلقى بعد الموت الدامى موتاً آخر
هو موتُ الزمن العربى!

نخبُ للعـائلـة

هل لى أن أقترحَ الليلةَ
نخْبًا تشربُه العائلةُ
وآخر ضوءٍ فى شمعتها يخبو،
ساعة يصفو الحفل،
وتأتلقُ الكعكةُ،
فى عينىّ من يتلمّظُ
وهو يدور على استحياء!
حفلٌ لجميع العائلةِ

اكتمل الشملُ

تلاقت أطراف الحىّ الشرقى

وأطراف الحىّ الغربىّ

وصارت دائرةً واحدةً

ونجوم سماء

والأعداءُ الإخوةُ

يستبقون لهذا الحفلِ

خناجرُهم تحت عمائمهم

وعمائمهم فوق رؤوس يملؤها الغدْرُ

جيوبهمو فوهات بنادق محشوّة

يسطع منها وجه شائه

وضراوة أحقادٍ

طالت..

لا تتخلّف عن موعدها

فى كلّ لقاء

انطفأ الضوءُ
فأهلاً بالظلمة قادمةً
والأنياب المسنونة تحتشد لساعة فتْكٍ
ونفاذ الطعنة قبل حلول الفجر الكاذب
حتى لا ينكشف السّمْتُ أو السّيماء
الحفل الصاخب يُغرى
بمزيدٍ من قُبلاتِ الأهل
مزيدٍ من طعناتِ النَّصلِ
ويُغوى العابر أن يتلكأ وهو يُطلُّ
فليس كهذا المشهد متعة عيْنٍ
أو ذاكرةٍ
أو عِبرة
للمتأمل فى أحوال العائلة المنفرطة
عقدًا كان،
وزمناً كانَ،

وقطرة ضوءٍ فى الظلماء
العائلةِ، المتآكلة، المتصارعةِ
على شبرٍ من أرضِ
أو برميل من نفطٍ
أو قبضة حسكٍ فى صحراء
والمنشغلة عن زلزال فى قلب البيت
جحيمٍ يبتلعُ الأهل،
وغُولٍ يُبدل شكل الأرض
ويكسو بالعبرية وجه الكونِ
ويطمسُ ذاكرة الأسماء!
هل يُصلح هذا النخبُ العابرُ ما أفسده الدهر
وما دشّنه الغدرُ
وأصبح ثأرًا يتنزّى
وبحار دماء؟
ولماذا حين يثور الأعداءُ الإخوةُ

يحتربونَ،

ويفترسونَ

البأسُ الكامن فيهم لا يتجلّى

إلا حين يكون عليهم

لكنّ قلوبهمو شتى

إن نُدبوا يوماً للجُلّى!

والعقل خواء!

هل يُصلح هذا النخبُ العابرُ

لغةَ الغافلِ والسامرِ

فى ملهاة العصرِ

وفى قارعة الدهرِ

وفى جبروت القوة والخيلاء!

العهُر الكامن يكشف عن سوءته

يفضح بعّض سريرته

ما عاد ستارٌ يتدلى

أو ثَمّ غطاء

والأعداءُ الإخوةُ..

ترتحل حقائبهم

وتسافر من عاصمة حتى عاصمة أخرى

تستأذن أو تستعطفُ

ترجو أو تتعهّد

تطلبُ أو تستغفرُ

لا تحمل، مهما حملت

إلا أشلاءً

ونوايا عاجزةً

وقلوباً صُمًّا عمياء!

هذا زمن الحفل الباذخِ

يُعمى بالذهب الرنانِ

ويغرى الحمقى بالدولارِ

ويُغوى الموتى بالدينارِ

ويقتلُ باثنيْن:

الرهبةِ،

والإغواءْ

زمنٌ لا يصلحُ إلا للسوقةِ

أو أشباه رجالٍ

يفترشون الحلْبة -

دقّ الطبلُ،

فطاروا مذعورين من الأصداء

أو فرسانٍ

يقتحمون الليل لساعة حظٍ

فإذا طلع الصبح عليهم

صاروا ملء الجوّ هباء

منخوبين من الإعياء!

مَنْ لسياج الأمةِ

يكشفُ وجه الغُمةِ -

يحمل عنها العبءَ
يُبدّلُ ترتيب الأشياء؟
من لسياج الأمةِ
يقرأ فاتحة الأقدار
ويمضى، نحو مصير دامٍ،
لا يتبدّلُ،
لا يتخلفُ
يُمعن، يُمعنُ فى الغُلَوَاء؟
الحق الأعزلُ .. حقٌّ ضاعَ
يليق بأحلامِ الجبناء!
واليوم الراهن موقوتٌ
لصراع بقاءٍ وفناء
والزمن الآتى زمن رهانٍ
فليختَرْ كلٌّ ما شاء!

هل لى أن أقترحَ الليلةَ

نخْباً للعائلةِ

ونخْباً لأشقاءٍ كانوا

طلع الفجرُ عليهم

فانتبهوا..

لكنّ أعداءا

نبوءة العراف الأعمى

أرى شررا قادما

يتطاير أعمدة من شواظٍ

ويسقط فاكهةً من جحيمْ

أرى جائعين

تهرول أعينهم خلف كسرة خبزٍ

وتصطكُّ أحشاؤهم

فى انتظار الهباتِ

وتغشى العيون سحابةُ يأسٍ

ويظلم وجه الزمان العقيمْ
رجالاً غلاظاً..
يسوطون جيش عُراةٍ
وليلا عتىّ الملامحِ
ينشبُ أظفاره فى الشعاع الأخيرِ
فيلفظ أنفاسه
وهو يُغلِق عينين مُجفلتينِ
على مقدم الرعبِ والفاجعة
أرى شرراً طالعاً
يتصاعد أعمدة من دخانٍ
سحابةَ ليلٍ دميمْ
هو الهولُ ينتظرُ الذاهلين
ويفترسُ الصاغرين
ويذبح فجْرَ البراءةِ
فى أعين الشاردينَ

ويفتح باب العراءِ

وأقبية الموتِ

للهاربين!

* * *

أرى شجرًا حائلاً

ورقا ذابلا يتطايرُ

مذبحةً للغصون الهشيمْ

وعاصفة لاقتلاع الجذورِ

أرى سحنةً للخريف المُباغتِ

تنثر صُفرتها فى الوجوهِ

وتضرمُ نيرانَها فى الظلالِ

وتعلنُ عن بدء ذاكرةٍ للغبار

وقارعة لالتهام السّكينةِ

والفوز بالمقعد الحجرىِّ

لقد هُزم السّدْرُ والسّنديانُ

إذا اشتعل الماء فى السّاقِ

جفّت ينابيع هذا الفراتِ
ورنّق يومُ الشتاتِ
وضلّت خُطى الكائناتِ
وجاء زمان بحجم المواتِ
أرى شجرًا شاخصًا لا يريمْ
فضاءً تأسّنَ
والبومُ منتظرٌ
والشقاءُ المقيمْ

* * *

أرى منشدًا يتنقلُ بين الجموعِ
ويُبحر بين الدموعِ
يُحذّر من هجمةٍ للوباءِ
ومن ساعةٍ لانهمارِ الفناءِ
ومن صمم شاخص فى الخنوع
ويضبط أوتارَ أحزانهِ
على شجنٍ نازفٍ فى الدماءِ

تسمّمت الرئتانِ
وحشرجةُ الصوتِ
غرغرةُ الموتِ
شهقةُ خيط الحياةِ الأخيرِ
فمن يوقفُ الآنَ سيْلَ الدماءِ
سنابك جيْش الشقاءِ
ووطأة هذا البلاء العظيمْ
ويُرجع صوت الغناء
ويُبْدل وجه الزمان الذليل
ليزهر فى القلب نوْرُ الربيع
وتعتصمَ الأرضُ بالكبرياء!

* * *

أرى عجباً
وفجاءة يومٍ قريب
أرى سُوقةً فى لباس الملوكِ

ملوكاً عروشهم من هواء
وأيامهم حُزمة من دماء
وتاريخهم بُقعةٌ من هوان
وأحلامهم من لحوم الجوارى
وركضهمو لاقتناص المزيد!
أرى عجباً
ونبوءة يوم قريب
أرى الأفق يمطر مُهّلا
أرى الأرض تقذف عاراً وذلا
أرى العيّن تذرف شوكاً ورملا
أرى هاتفين بروعة هذا المصير البليد
ومنطلقين لمائدة من لحوم العبيد
وممتثلين لإمرة هذا الإله الجديد
فويل لمن لا يرونَ
وويلٌ لمن يُبصرون!

الشـــهيد*

مدّ يدًا، وسلّما

فارتاع طيرٌ،

طار من ضلوعه،

وحوّما

كان يريد أن يقول، إنما

لم يتسع وقتٌ،

تبّدد الذى يودُّ لو يقولهُ،

إلى شهداء الجنوب اللبنانى

فغَمْغما

وانهار مُسرعاً،

كما يثورُ عاصفُ الرياحِ،

عاتياً مدمدما

لم يلتفت وراءهُ،

ولم يُطلْ

كان يخاف صوت طفلتَيهِ

لو تكلّما

وشدّتاهُ،

عندما تعلّقت بثوبه الأكفُّ،

تسألان عن رحيله،

لما؟

عارٌّ عليه أن يردّ بسمتيْهما

بوجهه الذى تجهما

وهو الذى يذوبُ

كلّما رستْ عيناهُ،

فى مدارج الطفولة المسكوبة الصفاءِ

فى الملامحِ المنمنمة

واسترسلت أحلامه الطليقة المزقزقة :

«عصفورتانِ،

تكبران،

تكبرانِ

فى وداعة السنين

تصير كلّ منهما

قُمْرِيةً مطوّقة»

متى، متى

ورفرف الحنين

أبناؤنا قيدٌ إذا الشوق همى

وصاح هاتف الجهادِ، داعياً

فأقدما

لم يلتفت وراءه،

ولم يُطلْ

الآن يرتجُّ الحمى

لينطلقْ

فى صدره قذيفةٌ،

تحُيل صدره جهنّما

وموعدٌ يشدّه

وقسمٌ قد أقسما

وربوة خضراءُ،

يسكن الخلود عندها،

تُشير للذى يريد أن يذوق كرْمها

ذقْ مرّةً أو مرّتين

من قبل أن تضيع فى الصدى

وتندما

لكنه تقدّما

وأغمض العينين حين صوّب اليديْنِ
ولم يمتْ مستسلما!

* * *

ياخاطرا مطوّفاً
وطائرا مُحوّما
يانازلا ملء العيونِ
فى سبيكة الحمى
ليس سواك الآنَ،
من يضئُ ليلنا
بيارقا وأوسمة
ومن يظلُّ فى لهاتنا
نشيدَنا الشجىَّ، كلما ترنما
الآن لا مناصَ
أيها المسافرُ الذى يصيدُ أنجما
والوالهُ الذى يطاردُ الحلم البعيدَ،

مُغرما

والفارسُ الذى بكبريائه احتمى

معانقاً مصيرهُ المحتما

كيف أتاك لمحُ طفلتيكَ

حين أطبق الليل البهيمُ

والحصارُ،

والدوارُ،

صاعقاً، ومعتما

كيف استحال وجه طفلتيكَ

ومضةً

وغام فى البعيد،

ثم صار خيطا مُبهما

لم تلتفت

ولم تُرعْ

ولا انحنيتَ للشّجَى

يسيلُ فى الضلوع، مثلما
صَبارةٌ تغوصُ فى الرمالِ
تبسطُ اليدينِ
علّ عابرًا أن يرحمَ الغضَى
وأن يُسلّما
لم تتذكر غير أن طيفاً عابراً
تبسما
وأن وجهاً فى الجنوبِ
لوّحت يداهُ
قبل أن يغوص فى المغيب
غارقا،
ولوحت يداهُ مرّة أخرى
وحاولت ساقاهُ أن تجُرجرا الخطى
وأن تزاحما
من قبل أن يسّاقطَ الليلُ البهيمُ

عاتياً، ومُحكما
من قبل أن يندفع الرصاصُ
والموتُ الذى رقيْتَ فيه
سُلّما، وسُلّما
معراجُك الجمالُ والبهاءُ
واكتمالُ هالة البرق المثيرِ
وانعقاد كوكب ينوِّر السماء والمدى
فى وجه طفلتِيكَ قد تجسّما
فقل لنا
ياأيها الوجهُ الجميلُ
أيها العمرُ الذى تقصّفت عيدانهُ
وصوّحت أوراقه
وأصبحت ثمارُهُ
جماجماً، وأعظُما
كيف ارتضيْتنا
- نحن القعودَ، القابعين ها هنا

أبعدَ ما تكون عن حفائر المنونِ
واحتدام لحظة القرارِ
نحتمى بزهونا الرخيص بالحياة
كالدّمى -
كيف ارتضيْتنا عنك بديلاً
ثَمّ،
وافتديْتنا؟
وكيف أصبح الموتُ الكريهُ
شهوةً،
تذوبُ فى أتونها مُتيما؟
وحينما أيقنْت أنْ ليس سواكَ
ليس ثَمَّ عودةٌ،
وإن تعدْ،
فلن تعود سالما
تتداح فى عينيك ومضةٌ، فومضةٌ

بكاءُ طفلتيك فى العراءِ
شيئا فشيئا تسكنُ الأنفاسُ
فى يديك حفنةُ الترابِ
جذوة الجمرِ
استحال وقدُها كنْزًا من الرؤى
ومنجما!

* * *

مدّ يدًا وسلّما
فانبجستْ عينُ السّما
تبكيه مسْكاً ودما
وخاطرًا مُطوِّفًا
وطائرًا محوّما
فى عطرهِ
تفحما!

الفنـــار*

ما بين ومضةٍ تضئ، وانطفاءة
عبرْتَ شاطئَ الزمانِ
وانتهى بك السُّرى
إلى وجوهٍ لم تعدْ وجوهَكَ القديمة
الراكبينَ البحرَ والمغامرينَ فى العُباب
بحثاً عن اللؤلؤةِ اليتيمة
الآن حين يُؤْذن الصّحاب بالرحيل

---

* «إلى الإسكندرية: عروس الماء»

هل صرتَ تخشى لحظةً مُباغتة
يسكنُك التوحُّد الملول
وتعتريك رعشة المشاهد الحميمةِ
وأنت صامدٌ،
فى موقف الفراقِ،
والهزيمة!

* * *

ما بين ومضة تضىءُ، وانطفاءة
سكنْتَ فى خواطر النوارس المهاجرة
وفى حكايا موجةٍ مسافرة
ترتجُّ فيك صبْوةُ البحار
وانطلاقةُ المغامرة
تُراكَ حينما اعتزلْت..
آثرّتَ أن تظلّ مقلتاكَ فى البعيد
تائهتين فى المدى

تُحدّقان فى فضائه سُدى

مُعتصرًا ببرودة الشتاء

وارتعاشة الخريف

مناديا.. ولا صدى

صوتٌ يُهيل الأزمنة

مُنتزعاً من الرّكام

لحظةَ انتصبْتَ شامخًا وبازغا

تضئُ عيناك الوجودَ

هاتفاً بالأفق المغيّم البعيد:

«اسكندرية.. الشعاع والشراعُ والمدى

اسكندرية.. الفضاءُ والمدارُ والنّدا

اسكندرية.. الحياةُ والردى»

وأنت وحدكَ الجليل والمهيبُ

ما انحنيتَ مرةً ولا انخلعْتَ

لكنما بقيتَ شامخاً،

وسيّدا

ياسيّدى الفنارَ.. نمْ

فلم تعد مقبولةً شهادتُك

لا البحرُ بحرُنا

ولا الزمان - حينما أتى - زمانُنا

ومالنا فى لحظة المواجهة

زادٌ ولا مددٌ

ولا الذى نبكيه أو نرومُه

يُعْنَى به التتار فى البلد

سيّانِ صمتُنا أو احتجاجُنا

إيغالنا فى الوخزِ،

أو مواتُنا

فدُرْ مع الفراغ دورةً أو دورتيْن

ما بين ومضةٍ تضئُ، وانطفاءة

وقل لهم:

ياصحبتى..

رأيت هؤلاءً قادما

رأيت رُعبًا جاثما

رأيت عمرًا نادما

ناديتكم..

فلم يُجبْ أحد!

إلياس أبو شبكة[1]

فــيم احــتــجـابك؟ لازهدٌ ولا ورع!

وأنت ســرٌ بقلب الجــمــر يندلعُ

الكأس مترعة، والصحب ماسكروا

فليس فى الكأس إلا الصابُ والوجعُ

كيف الخلاصُ؟ وسجن الوقت منغلق

وأنت فــيــه نبىٌّ مــا لهُ شــيعُ

---

(١) فى الاحتفال بخمسين عاما على رحيله، فى بلدته «زوق مكايل» فى لبنان.

توقف الوحى لم يُكمل رسالته
وأنت تُزمعُ معراجاً وترتفعُ
كأنّ فى صمتك المسنون حدّ لظًى
يغلى، ومعجزةً فى الأفق تلتمعُ
وأنت تبحرُ فى دُنيا مُلبّدةٍ
الموت عمّدها والشك والجزَعُ
عوقبتَ بالصمت والنسيان، فانهزما
خمسون مرّت، وهذا الصمت ينقشع!

* * *

فيم احتجابُك؟ هذا عطرك ازدحمتْ
به الدروبُ، وهذا الشملُ مجتمعُ
ياناصباً لعناقيد الرؤى شَركًا
وأنت تُمعن فى سحرٍ وتخترعُ
يداك ترتجلانِ اللحن، فانطلقت
قيثارة لك، تُشجينا وتبتدعُ

ليلاك ما برحت فى «الذوق» شاخصة

ترنو، لعلك آتٍ، أو هو الولعُ

تجسّم الوهم أطيافاً وأخيلةً

ونحن بالوهم كم نحْيا وننخدعُ

لعلّ لمح محياك الذى عَرفتْ

يُطلُّ، لو كان للأيام مُرتَجعُ

تستنطقُ الحجر المعروقَ بعض لظىً

وتستثيرُ فضاءً كُله لُمَعُ

وتستديرُ ومن كفّيْك شاردة

تَنْدى، وقلب من الأوجاع يُنتزعُ

عجّل وبادرْ، فكم بادرْتَ مُفترعًا

هذا الوجود الذى بالشعر يُفترعُ!

* * *

مَنْ سلْسل الحرف إيقاعا ولوّنه

نقْرًا على الروح تهواهُ وتندفعُ

هذى بلاغتُهم قد عِفْتَ شِرْعتها

فليس مثلك من يمضى ويتبعُ

فى أمةٍ لم تزل تجترُّ حكمتها

شاخت فكلّ جديد عندها بِدعَ

وإنما أنت نار الله موقدة

وذاك فردوسك العالى وما يسعُ

أطلق أفاعيه، إنا أمة بَشمت

فهل سيوقظها من عجزها الهلعُ؟

صدمْتهم فأفاقوا، ثم عاودهم

من بعد صمتك ما يُغرى وما يَزَعُ

أبقوك فرْدا، غريباً، نائياً، بَددًا

كصوت عيسى، خفيضًا، ليس يُستمعُ

لم يعرفوك، ولو ذاقوا ظلالكَ لما

باتوا على الوخم المأفون أو هجعوا

ولا رأوا لوْحَك المسطور، تحمله

فى راحتيك، وقلباً فيك ينخلعُ

هذى الغوايات كانت من هوًى وصباً
وأنت فى الجمر لا تُبقى ولاتَدعُ
هذا الخلود طريق أنت مُبدعه
من الفتون، ووحى ليس ينقطعُ
عبادةً لجمالٍ أنت باعثهُ
فى الحرف يورقُ، والأحجار تنخلعُ
فاهتفْ به عين ماءٍ شئت أو جبلاً
فأنت فى الحالتين الرىُّ والشّبعُ
واجمع مريديك من أقصى البلاد، فقد
أفضوْا لبابك مسحورين، واندفعوا
للعبقريين سمْتٌ أنت تعرفه
وللسماء جبين فيك ينطبعُ
ياقاب قوسين من سلوى ومرحمةٍ
يا مبحرًا فى المدى والبحر متسعُ
ألقى بك المدُّ يوماً فوق شاطئنا
فما رأى مثلك العشاق أو سمعوا

يتـيـمـة من غـوالى الدرّ سـاطعـة

يُزهـى بهـا صـائد فى اليم مُـبـتـدع

غـواصَ لبنان، والأمـواج عـاتيـة،

حـاذر فـإن العـذارى فى الهـوى تقعُ!

* * *

هذا فـضـاؤك خلْوٌ مـا به أحـدٌ

هذا غنـاؤك، لكن.. من سـيـسـتـمعُ؟

إلا نثـارا بديدًا من زمـازمـهـم

يزقـو بهـا زامـر فى الحـىّ مُـتّـضعُ

كيف الغناء؟ ووطْءُ الرعب يسحـقنا

وكلنا بالذى نلقـاهُ مـقـتنعُ

كـيف الغناء ووجـه الذل يلبـسنا

وجه كئيب، خفيض الرأسِ، ممتقعُ

فى موقفٍ ليس إلا فارسٌ ومدًى

وليس إلا جـبـانٌ دأْبُة الفَـزعُ

الطامعون بنا لم ييأسوا أبدًا
وكيف ييأس من دستوره الطمعُ
ودّوا لو اقتلعونا من ضمائرنا
وأننا تحتهم نُطوى ونُبتلعُ
هبْهم نَفَوْنا، وغاصوا فى حناجرنا
فكيف لبنان من لبنان يقُتلعُ؟

* * *

شبرا فشبرا تضيق الأرض، لا تسعُ
ضدّين، بينها التاريخ يصطرعُ
ونحن نُمسكُ وجه الأرض فى لهفٍ
والأرض - من نخوةٍ - تعصى وتمتنعُ
قالوا: سلامٌ، فقلنا: علّ، ثم أتى
أنّى يكون سلامٌ وجهة بشعُ
وهل طلبنا مزيداً من مكائدهم؟
إنّا نَغصّ ولمّا تنتهِ الجُرَعُ

لو أدركوا يوم «قانا» ماجريمتهم
وأىّ هولٍ أتوا، أو باطل وضعوا
إذن لراحوا، ووجه الأرض يلفظهم
والله والناس والتاريخُ والبِيَعُ
ثاراتنا لم تزَلْ تُذكى مواجعنا
والجرح يوغل فى صمتٍ ويتّسعُ
وأنت بالشعر تعلو كلّ سارية
وسرٌّ حرفك مرصودٌ وممتنعُ
غَواص لُبنانَ - والأيام تجمعنا -
هذا الخليج[1]، وهذى الشمس ترتفعُ
الشعر ما بيننا حُلمٌ نلوذ به
وليس كالشعر حبل ليس ينقطعُ
من مصر صوتى وإنشادى وقافيتى
ومن سما «الذوق» وجه الله يطّلعُ
يامانحاً وجه لبنانٍ جسارته
لبنان يبقى ويحكى، والورى تَبَعُ!

(١) المنطقة المواجهة لبلدة إلياس أبو شبكة علي البحر واسمها: الخليج.

زحلـــة[1]

كيف ألقاكِ مثلَ لُقياىَ حُلْماً؟

وطريقى إلى الجمال مُدمّى!

أنا أسعى إليك، والحزن ميراثى

وطعم الأشياء قد صار سُمّا

ملء كفّىَّ وردة من دم الشعر

وخطوى يجتاز لغماً فلغما

(١) في الاحتفال بمهرجان زحلة السّنوي.

عـاقـداً منك حـول صـدرى وشـاحـا

أتـزيّـا بـه وأخـــتـــال نـظـمـــا

وأباهـى مـواطن الحسن، مَنْ غيـرُكِ

يـومـــاً بـحـــسـنـه يـتـــســـمـىّ؟

زحلةَ السحر والجمال عروس الأرز

يـا نجـــمـــةً تُـوائم نجـــمـــا

الغَـوايـاتُ ملْءُ بُـرديْكِ، والأنخـاب

تـتـــرى، وفـــورة الـوجـــد حُـــمّـى

إنهـا زهـوة الجـمـال، فـهـذا الحسن

طـاغٍ والـقـلـب ضـــــــاق ولمّـا!

فـامنحـينى هنيهـةً أرتشفُ قطرة

ضـــوءٍ، فـــقـطـرةٌ منك نُعـــمـى

وعـطـايـاكِ كُـلمـــاً أبـدع الـقـــوم

تـفـوق الخـــيــال حُـلمـا فــحـلمـا

أنت أغـويتنى، فـأوشكت أصـبـو

وأنـا يـوسـفٌ غـــوى ثـم هـمّـــا!

جئتُ أستعجل اللقاء، وأهوِى
فوق هذى الشعاب لثما وضمّا

* * *

كان شوقى هنا، وكانت رؤاهُ
تنسجُ الشعر لأيُدانىَ، ومهما
صائد الفن والجمال، إذا ما
راش سهما، تريش عيناكِ سهما
عانقت ريشة الخلود بكفّيهِ
جمالا يذوب شدْواً ورسْما
يوم كان البيانُ إنجيل عصرٍ
يتصبّى العقول حرْفا ونغْما
والسماء الشماء قبلةُ تاريخٍ
يصوغ الحياة وعيًا وعزما
وبنو الأرز شامخون، إلهيون
أمجادهم إلى الشمس تُنّمى

كان «شوقى» هنا، وفى جارة الوادى
شـــجـــون تفـــرى الجـــوانح، كلّمـى
أنـا فى ظله مــشــيت، وقــد دار
زمـــان الـصـــفـــاء وانداح وهْـمــا
يـازمـــان الـوصـــال إنـى أنـاديك
ولا أغـــتلى اتهـــامـــا ولـوْمـــا
فى فــمى لذعــة المرارات والعبءُ
ثقــيلٌ قــد صـــار ســجْناً وهمّـــا
زحلةَ الشعـر والجمال عـروس الـ
أرز، لازلتِ كـــبـــرياء أشـــمّـــا
أنت صـوت الجمـال يعلو على المو
ت، ويعطى الحـيـاة لـونا وطعـمـا!

* * *

هنيهةٌ، أَنعمْ بها يا زمان
واستلّ أحزانى
هذى الفراديسُ، وهذى الجِنان

ميراثُ ألحانِ

وربوة شامخة فى المكان

صهباءُ ندمانِ

يا من تُساقينى، وملءُ الدنان

أغرودة الحانِ

إنا سكرنا من فتون الحسان

وسحر لُبنانِ !

* * *

المدى باذخٌ

ووجه من الشرق حفىٌ

واللون يفترعُ اللونَ

فضاءٌ مُعلق بالمسافاتِ

نثارٌ من النجوم البديداتِ

توشّحْن

شفيفاً من الغلائلِ تندى

لوحةٌ يرتمى بأهدابها الضوءُ

ويُلقى ظلاله فى الفراديسِ

انهمار السّنا

وجلوة أقمار

وصوتا من عالم الأمس ينداحُ

ورؤيا تعيدُ بعث الرواية

أنتِ من عالم بعيدٍ ترفّينَ

بكاء السماء يمتحنُ الوقت

وومض فى العين يشبه برْقا

وهَوانا

رهن بيوم من العمر جديدٍ

وشاطىء يبحر القلب إليه

فى نقطة اللانهاية!

فى بلادى لاموعدٌ للصّباباتِ

ولاوقت لابتداء الحكاية

إنه الموت كامنٌ

طلقة الغدر تُدوّى

طفولة الحلم تنهارُ

وراعى الجنوب يفقد نايه!

لم تزل هجمة التتار تُدوّى

عبّأوا بالرصاص آنية الوردِ

يصيدون طائر الليل والفجرِ

يدوسون برعم النور والطلّ

يسدّون جلوة الشمس والريح

يقيمون حائط الغلّ فى القلب

يظنون أنه اليوم قد جاءَ

وهذا..

طريقهم للنهاية!

زحلةَ السحر والجمال أعيدينى لنفسى

وطامنى من خطايا

أنت صوت الحياة يعلو على الموتِ
ويُدنى رغائب العمر للعمر
ففى كلُ لفتةٍ منك آية
أغرقينى فى روعة الحلم
هل أجمل من نشوة المحبينَ
غاية؟
رايتى رايةُ الجمال
غنائى شدوُ العصافير والبوح
شعابى تُفضى إلى العطر واللونِ
وتُدنى مرافئى ومدايا
الجمال الفريد عبءٌ
فهل تنزلُ فى مائهِ المقدّسِ
حاذرّ
أو انطلق فى الغَواية!

أوراق لنـــدنية

على باب لندن كانت بانتظارى قصيدة

قصيدة حارّة فارعة

علقتنى فى ذراعها

وحملتنى

تحت سماء رمادية

ينثالُ منها مطر دافىء

كالندى

قلت لنفسى: يا نفسى

لن تكونى وحيدة

ولا غريبةً

ولا ضائعة

ها أنت معلقة فى ذراع أمينة

قادرةٍ على اختراق ضباب لندن

ومنحُ رماديتها ومضة حانية

قادرة على الحديث إلى الأشجار بلغتها

وتركيز حواراتها فى قارورة عطر

* * *

الصباح اللندنى

جديد، ومختلف

يكفى أن تشاغلنى - عبر النافذة الغربية -

شجيرات الياسمين المغتسلةُ بالمطر

وتشرئبَّ أغصانها وتمتد

كأنها تحاول الولوج إلى الركن الحميم

من الغرفة

وتسارع يدى إلى التحية بأحسن منها

والإمساك بذؤابة غصن،

ذائبة فى طلع زهرة

ليتنى أستطيع الاقتراب أكثر

وعناق الأغصان البعيدة الممتدة

فى زهو وكبرياء!

الصباح اللندنى..

جديد، ومختلف

أصواته المتداخلة

شديدة الاتساق والانسجام

على اختلاف عناصرها

مطر

وريحٌ

وقعقعة أغصان

وانسكاب لونٍ رمادى

متفاوت الدرجات

قلقٍ.. لايقرّ

وقصيدة قادمة.. لم تخلف وعدها أبداً

بعد قليل

يصبح لموسيقى القصيدة حلولٌ وعزف

ولإيقاعاتها امتداد واحتواء وتثنٍّ

يصبح للقصيدة حضور غامر

وأنا فى هذا الصباح اللندنى الاستثنائى

أبدأ يومى بالغناء!

* * *

فى الريجنت بارك..

ثمة شجرة شاخصة تصلى وهى مستغرقة

كأنما مرت عليها دهور وأزمنة

لكنها لاتسأم صلاتها ولاتملّ

بعد أن أتاح ركوعها للعابرين ظُلّة كافية

ومساحة لاثنين

الشجرة قائمة تصلى

والعابرون الذين توقفوا

واستظلوا

لمستهم أمومة الشجرة

وطوّقتهم صلاتها

فاختلطت أصواتهم بصوتها

فى صمت خاشع

وسكون مفعم

والتقت عيونهم قبل حلول الغسق

معلنة عن ختام يوم مختلف

كانت فيه القصيدة تشحن القلوب

وصلوات الشجرة تتحلُّ وتتبدّد

غماماً يتطاير بالبركة والأمان

فى الريجنت بارك

يمكنك أن تصاحب الغمام

وأن تلامس السلام

يمكنك أن تُصلّى!

* * *

اصطحبتنى القصيدة إلى حفل موسيقى نادر

بينى وبين الموسيقى جدول صغير

يعبره العازفون من فوق الجسر

قبل أن يأخذوا أماكنهم فى المسرح الشجرى

على بساط أخضر فى كنف حديقة باذخة

ينتصب فى قلبها قصر تاريخى

الموسيقى من حولنا فضاءٌ نشوان

وسماءٌ قريبة الاحتمال

وفوق العشب شباب يستلقى

ثملا بروعة اللقاء

تدفئه تموجات صهد ونغم

وجرعات متقطعة من شراب

وأيدٍ متعانقة

تحت أغطية مُسْدلة

تجاهد كى تردّ المطر المباغت

الموسيقى أرض للمشهد وسماء

تلتمع فيها بوارق من إيقاع

وشهب من جلوات العزف المشدود

وسيمفونية «شهر زاد» تفرش ظلها الظليل على المشهد

وهى تدغدغ فى سامعيها نشوة شهريار

وتأخذ بخيالاتهم إلى باحة قصر تاريخى مهجور

لعله هناك مايزال

لم يغادر موقعه

فى طهران

أو بغداد

وقبل أن نحلم بالهجوع والرجوع

مثل طفلين وادعين فى حنايا شجرة ملتفة

أطلْنا عندها الوقوف والتأمل

حملتنا القصيدة برفق

إلى وسادة أحلامنا الأولى

* * *

فى طريق العودة

متجهين إلى بوابة لندن

تاركين وراءنا جسدَ الحُلْم

لم أتمالك سحابة دمع تهطل

وأفقا رماديا جديدا يُطلّ

الطريق الطويل، تحت السماء المُودّعة

تتدافع معالمه المصاحبة، وتركض بنا

وكأننا نندفع إلى هاوية

والقصيدة إلى جانبى

ذاهلة، تحدق فى الفراغ الذى يتسع
والفضاء الذى لا أثر فيه لبنيانٍ أو شجر
هذى إذن خاتمة المطاف!
وبداية العودة من مدينة الحلم الرمادى
المغتسل بأمطار يوليو الصيفية
والمشرئبّ
بكل ما يملكه من هاجس الفضول
لقراءة أوراقنا القادمة
بحثاً عن مكان حميم
تسكنه القصيدة!

الجميلة تنزل إلى النهر

إشارات

ملكْتُ نفسى مذ هجرتُ طمعى　　اليأسُ حرٌّ والرجاءُ عبْدُ

(مهيار الديلمى)

إنى وإن لُمتُ حاسدىَّ، فما　　أُنكر أنى عقوبةٌ لهمو

(أبو الطيب المتنبى)

تلوْا باطلا ، وجَلْوا صارما　　وقالوا: صدقْنا، فقلتم: نعمْ

(أبو العلاء المعرى)

يا أهل مدينتنا

هذا قولى:

انفجروا أو موتوا

رعب أكبر من هذا سوف يجىء

لن ينجيكم أن تعتصموا منه بأعالى جبل الصّمت

أو ببطون الغابات!

(صلاح عبد الصبور)

الجميلة تنزل إلى النهر

كانَ بحرُ الصبابةِ
يقطرُ من مقلتيْها
ويقذفُ درَّ مدامعها
ثم يُغرى بها الموجَ،
حتى تلينَ ...
وكانت على شطِّه عاكفة!
النوارسُ من حولها تتقافزُ
وهى تحدِّق فى يمِّها المترجرجِ

لا تستطيع التجرّدَ
حتى تعاين عُرْىَ حقيقتها
واكتمال بهاء الأنوثةِ فيها
وها هى ذائبةٌ فى العناقِ
ومشفقةٌ من دبيبِ المحاقِ
تزلزلها هزّةٌ راجفة!
الجميلةُ فى نهرها تتوضأُ
ها،
نَهَرٌ من حليب
نَهَرٌ من شعاع
نَهَرٌ من حليبٍ شعاعٍ
وظلال من السَّروِ
تبسط من فوقها راحتيْنِ
وتعلنُ
ـ فى جلوة الجسد المتحفّزِ ـ
عن ساعةٍ للبقاء

ومفُتتح للسّفر

والنَّهَرْ

ـ ذلك المتربّصُ ـ

مغتسلٌ بالجميلة

يخلعُ عنه الحياءَ

يمدُّ أصابعه فى انعقاد البهاءِ

وتُغريه فتنتُها بالحوارِ

فلا تستجيبُ

ويقنع باللمسة الكاشفة!

هى ذى تستحم بضوءِ النهار

وترجئ تجفيف بَشرتها للمساءِ

وتدهن بالمسك كلَّ مواعيدها

وهى تحلمُ بالفارسِ الذهبىّ

وتسترجع الومضةَ الخاطفة!

* * *

ملء أيقونتى جسدٌ مُصمتٌ

جسدٌ شاخصٌ

تتردد أنفاسُه فى الفضاء المُدلّى فتُشعل زيتاً

وتُطلق طيراً يرفرفُ

يُسقط ريش قوادمه

فوق ياقوتة القلْب

ينطفىء اللهب المتأرجحُ

تَبْقَى من الضوءِ

نظرته الواجفة!

أنت كافورةٌ؟

أم زمانٌ قديمٌ؟

وعيْناكِ...

هل كانَتا ذات يومٍ

ذؤابة كأسيْنِ رجراجتيْنِ

تقافز ضوؤهُما بالرحيق المُصفّى

وباح بعبء الجمال
ومكنون توّق الرجال
ولذع احتراقِ البروقِ
الجميلة تقترح الآن نخْبًا
لمن يستديرون حول نوافذها
فى انتظار مواقيت صحْوتها
ودهاليز صبْوتها
وانطلاقِ الشعاعِ المحلّقِ
يُعلن أنّ البهاء البديع أطلّ
وأنَّ الرقاب اشرأبّتْ
تحاول أن تدرك اللحظة الآزفة!
هل دروْا
أن خطْو الجميلة للنهرِ
مرتعشٌ
أنها رغم تاج الجمالِ

مفزّعةً

وحده النهرُ يدركُ

عند انغماس معالمها

واحتضان مفاتنها

أنها نزلَت ماءهُ

خائفة!

* * *

يالها!

آهِ ..

قامتُكِ الباسقة!

هل تمد جُذور تضاريسها

فى الثرى العنبرىِّ؟

وهل...

حين تلتحمُ السّاقُ بالسّاقِ

أو تشرئبُّ إلى موعد الليلِ

ـ يُسدل سحْرَ ستائرهِ
وحُميّا مواجيده ـ
حين ترشفُ من عسل النهرِ
جَلْوتها
وتضىء عيون قناديلها
وغصون عناقيدها
وهى تهتزُّ فى شطّها
واقفة!
هل رأتْ ما رأى عاشقوها؟
وهل سمعتْ ...
ما تضجُّ به الريحُ للريحِ
فى الخلوات البعيدةِ؟
هل أدركتْ ..
أنها هدفُ للوشاياتِ
حين انحنى النخلُ للنخلِ

والغاب للغابِ

يعلن أن الجميلة

ـ عاشقةَ النهرِ ـ

خائنـةٌ

وطقوسَ عبادتها زائفة!

* * *

فى الصباحِ الذى لم يجىءْ، ودَّعتْ

قيل :

كانت على الشطِّ حائرةً

تستديرُ كأنّ البلاد تُطاردها

والعيون تُلاحقها

وهى واقفة ترتجف!

قيل :

كانت هنالك عاريةً

خرجت من فم النهرِ

وانفلتتْ من عناق الحبيب المراوغِ
تبحثُ فى ورق التوتِ
عن ساترٍ
وتغطى بكلتا يديها
وتخشى الفضيحةَ
قيل :
استبد بها الوقتُ
فانطلقت لاتُبالى بمن يهمسونَ
ومن ينظرونَ
ومن يلعنونَ
وأصغت
لعل صباحاً جديداً يجىءُ
تُبدّل قوماً بقومٍ
ووجها بوجه
وتلعن كلَّ المريدينَ

طائفةً

طائفةٌ!

ما الذى غيّر النهرَ

صار بلون الدماء!

وماذا تبقى لها غير طعم المرارةِ؟!

عبّأتْ رئتيْها بفيض النسيمْ

ومضتْ نازفةً!

وطن أم امـرأة

وطنٌ أم امرأةٌ؟
تداخلت الملامحُ
فالسبيل إليكما اتّحدتْ
وناء بعبئِه القلبُ
الذى احترف الغوايةَ
والجنونَ المستثارْ
لا حدّ يفصل بين معشوقيْنِ
لا خيطٌ،

ولا زمنٌ،

به تتوقف الأعمارُ

من ركْض

ويندلعُ الأُوارْ

ميلى برأسكِ

ينسدلُ ليلٌ

وتنطلق الرغائبُ من مكامنها

وينزلُ فَوق شُرفتنا ستارْ

وطنٌ بحجم الكونِ

مبسوطٌ على الكفّينِ

مغسول بماءِ العيْنِ

يُبحر فيكِ أشرعةً

ويقتحمُ البحار

ها أنت تقتعدين لجّتهُ

وتغترفَين لؤلؤهُ

وترمين الطحالب،

والمحارْ

قد ذابَ فيكِ

وذبتِ فيه

فلا ضفافَ،ولا شطوطَ،

ولا قرار!

وطن بحجم الكون

مشدودٌ إلى عينيْكِ

يشرقُ منهما

ألقُ النهارْ!

* * *

وطنٌ أم امرأةٌ؟

لعّلكِ حينما عُمّدْتِ

كان المسكُ ينضحُ

والزمان يسيل أنهاراً

ولونُ الشمس منسكبٌ على الوادى

ووجه الأرض يسطع بالغناءٌ

لم تبخلى يوماً

ولا أغلقْتِ بابَ الرحمة الكبرى

وأقبيةَ الدعاء

هُم عند بابك..

يُرهفون السَّمْعَ..

علّ إشارةً تأتى

وبارقةً تضىءُ

فيُهرعونْ

من منهمو سيفوزُ؟

يُترع نرجس الرغباتِ فيه

ويجعلُ السّاعات أُلهيةً

ودائرة انتشاءْ؟

أشرقْتِ!

ـ تلك جديلةٌ
مدّت ظلال أراكةٍ
وتفرّقت أغصانُها كالدّوْحِ
يعلنُ عن مواسمهِ
ويفترعُ السماءْ ـ
الموكبُ الملكى متئدٌ
نفرتيتى الجميلةُ قد أتت
فتهيأوا للحفل يا قُصّاد ساحتها
فها
وطن بأكملهِ يسيرُ
وهؤلاءْ:
كهانُ وادى النيلِ،
والصلواتُ،
والخير العميم يفيضُ،
والدنيا يُظللّها الرجاء

مُدّى يداً

تُحيين جدْبَ الروح

- حين تشقّقت عطشاً -

ألستِ النيل حين يفيضُ؟

وابتسمى

العبادُ عيونُهم ظمأى

وسحرك كاندلاع الجمرِ

والصبواتُ حاشدةٌ

ومثلك لا يليقُ به الزحامُ

ولا القرابينُ التى حملوا

ويمتلىء الخلاء!

أَخفْوكِ؟

لا ..

لا يقدرونَ،

تدافعى فيهمْ

وسيرى

ـ الأرض جائعةٌ ـ

كأنك نصفُ تمثالٍ

نُخمِّنُ نصّفه الخافى

ونخترعُ البهاء!

* * *

وطنٌ أم امرأةٌ؟

وأنْتَ تلاحقُ الوجهيْن

يختلطانِ

يشتبكانِ

كيف تداخلت فيك الخطوطُ

فأصبحت قوساً

وأوتارا تُمارسُ حدَّها الأقصى

وتنفرُ

حينما تمتدّ من خلف السياجِ

أصابعٌ تتحسّسُ الوجْهَ القديمَ
وتستريحُ إلى نُتوءٍ فى الجبينِ
وحافةٍ تلدُ المخاوفَ
هل رأيْتَ غزالةً تعدو
تسحُّ
تُجاوزُ السّهمَ الذى لم ينطلقْ
لكنما الصياد يُمعن فى غَوايته
وينتظرُ الذى يأتى ..
وحين يجاوزُ المرسى
تُلحُّ عليه خاطرةٌ
بأن اليوم قد ولّى
وشمْسَ حياته غَربتْ
فيفترشُ الأديمْ!
وطنٌ أم امرأةٌ؟
سكنْتُ إليكِ

هذا بابُكِ العالى

ومتُكئى،

وسقف رغائبى

ما عادت الدنيا تُرقرق أنْسها الحانى

وما عاد الصحابُ همو الصحابُ

ولا الوجوهُ هى الوجوهُ

فهل لديْكِ الآنَ

ما يدحو الهجيرَ

لتستظل قوافلى!

حَسكٌ على حسكٍ

وأنت أراكةٌ

فتهدّلى

خضراء باسقةً

تعشش فيك أسرابُ اليمامِ

وواصلى

صوّبَ الغمائمِ

وامتلاءَ جداولى

الآنَ،

هل من قارئٍ للنجمِ

علّ النجم يكشفُ سرّ طالعه

ويختصرُ المحالْ

ها أنت بعضٌ من سديم الكوْنِ

يسبحُ فى انهمار الضوءِ

مُرتعشاً

ويفهقُ بالسؤال:

من ذا يمدُّ يديْه للآتى

يُهدهدُ مولد الدنيا

ويفترشُ الجمالْ؟

أيها الصيف الذى ولى سريعًا

يرحل العشاقُ،
والسّامر ينفضُّ
وضوء شاحب فى الأفْقِ
ينسابُ حييّا وخجولا
واصطخابُ الموجِ مازال
على الشاطئ يَنداحُ
ويُلقى عنه عبئاً
ظلّ يرعاهُ،

عَزوفاً

وملولا

كلَّ عامٍ حين يأتونَ

يجيئون خفافاً كطيور البحر

ترتاح إلى أول وكْرٍ أو شَرَكْ

ثم يمضون،

ثقالَ الخطْو والروحِ

يجرُّون الرهانَ المستحيلا

لم تزدْنا

ـ أيها الصيفُ الذى ولّى سريعاً ـ

خبرةً بالوقت

أو وعياً بما سَوف يجىءْ

من لُغات الليل،

أو كشفاً لما يزحَمنُا

من وَجلَ العمر

وأحزان البحارْ

كم تمنينا
لو انهلّت علينا
بنثارات من الأُنسِ الذى تَحملُ
كى يُشرق فينا
والتجاريب التى تدفنُها كفاّكَ
ما بين الرمالْ
بعد أن داس عليها العابرون
- يطمسُ الرملُ الخطى
والناسَ،
والصبْوةَ
والأحلامَ
والفتْكةَ
واللهو البرىءْ -
ثم لا يترك فينا
غير إحساسٍ غريبٍ

ودُوارٌ!

دون أن ندرى

بأن الشاطىء الممتدَّ يبكى حظّهُ

خلف أستار لياليك الطويلات القصارْ!

رحل العشاق..

وامتدت سحاباتٌ من الغيم الذى حلّ

وغيمٍ رفّ فى صهد الحنايا

واستدارْ

لم تزدّهم أيها الصيفُ الذى ولّى

سوى بضع غُضونٍ

وخطوطٍ نسج العمُر عليها

- دون أن يدروا -

نسيجاً عنكبوتيا

ودمعا جامداً فى نقطة فوق العيونْ

آه كم يسرقنا الوقتُ

وكم تُنتهبُ الأعمارُ

لا نقوى على الإيقاعِ

والركضِ،

ولا نحن تُواتينا السنون

لا،

ولا نحن استرحنّا

من جنون وانبهارٌ!

* * *

أيها الصيفُ الذى ولّى سريعا

قفْ

تمهلّ..

أنت لاتدركُ ما أهدّيتَ لى!

حين لاقيتُكَ

فى يوم من العمر الذى ولّى

وقد جئْتَ خجولاً،

وحيبا
كان ما أعددْتَهُ حُلْماً بهياً
أملاً مخضوضرًا،
أعبرُ منه للخريف
غيْرَ خائف
من شتاء قادمٍ
يعتصرُ القلب
ويُبقيه وحيداً
وشقيّا
أنت لا تدركُ ما حجم عطاياكَ
ولا مقدار ما أوليَتنى من أَنعُمِك
أيها المغدقُ من غير حساب
فيضكُ الغامرُ قاتلٌ
فترفّق
أعطنا الفرصةَ

أن نرتشفَ الشهد المصُفّى

قطرةً

من بعد قطرة

ونعيدَ الرشْفَ،

حتى النشوةِ القصوى،

ونحسو مرة فى إثْر مرة

فالذى أعطيتنا كنزٌ وفير

يملأُ العمَر

ويبقيه فتيا ونديا!

* * *

قفْ تَمهل..

إنّ فى القدْس شتاءً قادما

أثقَل من كلّ شتاء

وعيوناً - رغم عصْف اليأْس -

فيها ومضةُ من كبرياء

ترقبُ اللعبة فى الأيدى بلا أى انتهاء
وترى الباغينَ أقزاماً
وما يبنونه تلاًّ على الرمل،
هواءً فى هواء !
فليصوغوا الكون للزيفِ،
وللعهرِ،
كما شاءُوا، وشاءْ
لم نزل نملك حُلْما
فى غد يأتى
- سيأتى -
حُلْمَ تصحيح الموازينِ
وترويض القضاء!
قفْ تمهل أيها الصيفُ المُولّى
إن فى بغداد طاعونًا
وأسرى مُستذَلِّين

وأنصافَ سبايا،

وإماءْ

ورجالاً أسلموا للصبر أعمارا

وليلاتٍ بحجم الرعب والموت

تناثرنَ هباء

وجحيماً ماجَ فى «دجلةَ»

يشوى الأبرياءْ

قد تشظّى قمرُ «الكَرخِ»

على جسر «الرّصافة»

و «الفراتُ» العذبُ مخنوقٌ

ولا قطرةُ ماء!

فمتى يرحل عن بغدادَ

طاعونُ الوباء

ومتى يرتاح فى بغدادَ

شعرُ الشعراء!

ومتى يُرفعُ مقْتُ اللّه

عن هذى السماء!

* * *

أيها الصيفُ الذى ولّى سريعا

قفْ ، تمّهل

ما الذى سوف تقول

لألوف القادمين

من فجاج الأرض،

- يا صيف الأمانى الخادعات -

تفتح البابَ إلى الحلم الذى

شاَغَلهم دهرا طويلا

ليروْا فى وجهك الغامض سيماءَ الوطن!

إنهم فى قبضَة الصحراءِ

يرجون نهايات المطافْ

أملاً فى صدرك الواسعِ

حنّانا ظليلا
مدن الأحلامِ لم تُفْتح لهم
والنهاياتُ - التى كانوا يُرجّون -
بعيدة!
والوطن..
- ذلك المعنى الذى يكبرُ فى الغربةِ فينا
وهو يمتدّ عميقاً وجليلا -
لم يزوّدهم - وقد جاءوا -
بما يرجونه ، إلا قليلا!
فاسمع الآنَ غناءَ الناسِ
شجْوا وعويلا :
ألهذا أيها الصيفُ تَجمَّلْتَ طويلا
وتواريتَ سريعاً وحزيناً وذليلا
تاركاً فى القلبِ عبئاً
ضاغط الهمِّ،
ثقيلا؟

حائط الوطن العارى

مُطفآتٌ عيونُ يومكَ كالأمسِ
فأشعل بريق عينيْكَ
جوّابا
وبادر إلى الفُجاءات
وارحل
لا تقفْ،
لاتقف،
فما ثَمّ منجاةٌ

ولا تلتمس سواك دليلاً

فليس غيرك للوقت

ولا ثَمَّ حائط للتوسّل!

أنت والريحُ واحدانِ

فمن يقوى؟

ومد الحريق عاتٍ

وهذا القلبُ بالموتِ والكآبات

مُثقل..

انطح الصخرةِ الكئودَ

وجاوزْ ضفة النهرِ، والسؤال

وقُل

هذا أوانُ حسم الإجابات

فما عاد بديلٌ

وكيف!

والكون كله قد تبدل

والزمان الذى يُداجيك بالعدلِ

سراب من الخرافة والوهم

زمان مخادع ..

ويرى فيك غاصبا

ويرى أرضك حِلاً لقاتليك

وأنفا سك بغيا

ونور عينيك ذنبا

والعيشَ

موتا مؤجل!

أضرمِ النار

تقتلِ النار بالنار

وفجّر فى لحظة الموت والبعث

خلاياك ..

تناثرن فى الفضاء الذى انداح

وشكّلن حروفا ..

لطلعةٍ تتهلل!

* * *

يا صغيرى الذى بكيتُ

وكم أبكى..

غداة أصبحتَ ذراتِ جحيمٍ

- لعله يوقظ الموتى -

وأنفاس نسيم

بعطر أرضك تخضلُّ

وعمرا من النبوءات أحفل

أنا ذا أحتمى بظللكَ

يستشجر قلبى

تمتد فيك فروعى

يُضحى يقينى سماءً

وجمر غيظىَ معراج بهاءٍ

ويأسُ روحى ينحلّ!

صاعدا فيك سلما

من مراقيك

تجاوزتُ فضاء مسيّجا

وجدارا يتداعى

وثكالى يهزجن للرعب والويل

رجالا يجرجون نعوش الصبر

يسعون

فى مصير مُكبّل

أنت لم تمتلك سوى جسمك الغضّ

وطوقٍ يلتف حولك مزموما

وقلب يُشع فى هالة الضوء

يقينا ..

مضى له ، وتوكل ..

لم تُرع .. لم

حين جسّت يداك مفتتح الفجر

وكان الزنادُ أقرب للقلب

والقلب فورة من أهازيج
وفوْحُ الربيع
أندى
وأجمل!

* * *

أيها المسرع الخطى
أيها الصاعد فى فردوسك الرحب
شعاعا
وجها من النور والطهر
هتافا
من الذرى يتسلسل
الشظايا تناثرت..
فانحنى الرمل يُسجّيكَ
وودّت زيتونة لو تغطيكَ
بأهدابها
والسماء لو تترجّل!

أمك الأرض تحتويك
وقد عدت جنينا
يظل فى رحم «الكرملِ» جمرا
نيرانه تتشكل
هذه الساعة التى يُسعف العمر
بميقاتها الذى يوقظ الحُلْم
- تجيش الصدور بالوعد ينهلُّ -
ودقاتها التى تبلغُ النجم
وتُغرى الشباب..
كى يتجمل ..
فتجملتَ ..
ليس أجمل من سعيك
والجسرُ عبور
وبرزخ بين عُمرينِ
ونهر ينساب ما بين كونينِ
وخطوٌ

إلى المصير المعجّل!

قد كسبنا الرهان باسمك

فالموت صغير ..

وحائط الوطن العارى :

جدار يقوم إثر جدارٍ

وخيام تدق بعد خيامٍ

وسماء تمتد بعد سماءٍ

ومنايا مرصودة للطواغيتِ

وشعبٌ أقوى ولو كان أعزل!

يا صغيرى الذى بكيتُ..

وكان الدمع جمرا

والقلب قبرا

وكان الكون يجتاحنى حريقا

فلا أبصر..

إلا دخان عُمر تجعّدَ

مفردٌ أنت ..

ساطع فى تجلّيك

سؤالا يظل يوغل فينا

وموعدًا كم تأجل!

الرماد أمامك ..

الرمادُ أَمامَكَ

والبحرُ خلْفكَ..

فاتركْ ـ لمن خلعوك ـ الخلافةَ

هذا زمانٌ لدهماء هذا الزمانِ

يعيثون فيه فسادًا

ويرجون منه امتدادًا

ويحيوْنَ ..

يرتكبون صُنوف الخطايا

وفى طيشهم يوُغلونَ
فلا يستديرُ إليهم أحدٌ!
الرمادُ يسودُ ..
تقدّمْ ..
وكن واحدا لا نصيبَ له
فى الرهانِ
ولا شوكةٌ تَستفزُّ،
وإلاّ ...
فأنت الحصاةُ التى تُفسدُ الزيْتَ
فى آلة الناهبينَ،
وأنتَ البلاءُ المُسلّطُ،
أنت الدمارُ المُسيّطرُ
حاذرْ
فرأسُكَ أولُ ما سيطيرُ
إن ارتفع الرأسُ عن شبْره المُفْتَرَض

أو تجاوز أبعدَ من كتَفِ القَانصِ

المُعترضْ

أو تأمّلَ بعّضا من اللوحة المُدهشة

مشهداً ،

مشهداً،

كازدحامِ الأفق..

بالجياعِ الذين يبيعون أعمارهم

لاقتناء رصاصة

والصغارِ الذين يسيرون

تحت النّعوشِ

لكى يكبروا فى القبور

والشيوخِ الذين يُؤهّلُهم عجزهم

لابتلاع المرارة

حين ينهار حائطُ هذا الوطن

فوقهم،

ينهضون، كأن الجدار خَزفٌ

والمنايا شرف

والبُغاةُ ـ لجهلهمو ـ يحسبونَ

أنّ هذا الذى يحلمُ الشهداء به

ترفٌ

أو خَرَف!

* * *

السباقُ الذى لم تعدْ طرفاً فيهِ

يبدأُ قبل انطلاق الأذانِ

وقبل انبلاج الصباحِ الذى

لن تراه،

وقبل اعترافك بالذنب

هل أنتَ أذنبْت؟

لاتبتئسْ

فالجميع يدورُ مع الدائرة

رغبةً

أو مخافةْ!

طمعاً

أو إضافة

أو دُنوًّا من العرْشِ..

عرشِ الخلافة!

الجميعُ!

ـ الذين تصوّرْتَهم يُهرعونَ

ـ الذين تصوّرْتهم يصمُدون

ـ الذين تصوّرتهم بين بيْنَ ـ

ولكنَّ صوتَك مازالَ..

صوتك يُحدثُ وخْزتهُ

فى ضمائرَ لاتستجيبُ

ولكنها تتجمّلُ ..

إن الرمادَ أمامكَ

عمرٌ بكامله فى انتظاركَ
تُصبحُ فيه الرياح سَموماً
ويشتعل الماء جمرا وغسلينَ
تهرع حتى الشياطينُ
هاربةً من جحيم القيامةِ
قلْ للعداوات هذا زمانُكِ
يُعْشبُ،
هذا فَضاؤُكِ تُفْرِخُ فيه الأفاعى
وينقلب السحر يفتك بالساحرين
ويأوى الصعاليكُ
فى ظلمات الكهوف
وتهْوى الأَوابدُ عبْرَ المفاوز
وهى تُنقّب عن طللٍ فى الرمالِ
هنالكَ..
تُصبح عوْلمةُ الفاتحين شظايا
وبعْضَ زجاجٍ تهشّمَ

فوق الرؤوس المليئة بالكبْرِ
لاتملك الآن غيَر الخشوعِ
لسيّدها الموت
يدفعها فى اتجاه العنادِ
وفى لُوثة الكبرياء
لعلّ الجراح يُرممها الثأرُ
والثأر نارٌ بغيرِ انتهاء!

* * *

الرمادُ انطلقْ ..
هل تُطيقُ لصهيون هيمنةً لاتُردُّ!
وهل تتنازلُ عن قُدْس أقداسكَ
المستباحة؟
هل يُطمعونك حتى تكونَ شريكاً
وأنت الذى يتحلق حوْلكَ
كل الذين يروْنك خيْطَ الرجاءِ

إلى وطن مُستباح
وأرض بأَحمالها كَم تئنُّ
وخاتمة - حُرة - للمطاف؟
هل تخونُ دمك؟!
إنه وطن ساكنٌ فى شرايين قلبكَ
ملتصقٌ فى وتينكَ
مشتعلٌ فى رُؤاكَ
ومُخضوضل فى جبينكَ
مرتسمٌ فى يقينكَ
منطلق فى جناحَيْكَ
محتشدٌ فى قرارةِ ذاتكَ
مُستمسكٌ بالضلوعْ!
فانطلقْ ..
لا رجوعْ !
الرمادُ أَمامَكَ
والنيل خلفكَ..

يغلى

وفى الصدر أنفاسهُ من لظىً

والضفافُ بما حُمّلَتْهُ

تفورُ!

إنه مددٌ من عُيون السماءِ

على كوكب الأرضِ

ـ فى قبضة الباطشينَ العُتاةِ ـ

وعمرٌ بحجم الدهورْ

هو ذا شاخصٌ ..

ـ همْ يظنّونه يتراجعُ ـ

ها ظلّهُ يترامى ..

وموجاتهُ تتدافعُ ..

فى موكبِ الغضبِ المستطيرْ

فاضَ من دمع إيزيسَ

مُنحدراً فى الزمانِ

ومخترقاً للشّعابِ

ومُستلْقياً بالأمانِ
وها نحن نغسل أوزارنا
ونُصلّى ..
ونُقسمُ أن نحفظَ العهدَ :
«كيف أكون جديرا بقطرة مائكَ؟
إنك أسمى ، وأنقى
تأملتُ وجهىَ فى لمحَةٍ منك،
فى صفحةٍ من بهائك
فارتعْتُ ..
هل هذه صورتى فى مراياكَ ؟
كيف أكون غريباً إلى ذلك الحدِّ!
أُصبحُ مختلفاً عن يقِينىَ
مُبتعداً عن صفاتىَ
مرتبكاً،
أتخاذلُ ..
هذا أوان التطهر فيكَ

لعلِّىَ أصعدُ

تمنحنى من سجاياكَ

مرتبةً ،فأُشيحُ عن القهْرِ..

لا!

بل أُطاعنهُ ما حييتُ

ولو متُّ جُوعاً

وهُدِّدْتُ دهراً

ولو لم يعدْ لى صديقٌ سواىَ

ولا حائط غيرُ جلْدِى

ومتكأٌ غير مائلكَ

مَسْرجةٌ غير وجهكَ

أنت الرفيقُ الذى لا يخونُ

وأنتَ المَعينُ الذى لا يضيقُ

وأنت الدليل الذى لا يُضلُّ

وأنت الزمان القديمُ الجديدُ

الزمانُ الذى ليس عنه بديلْ!»
فلْتطُلْ هجماتُ الرمادِ القبيح
وليضعْ مرةً واحدة
ما بدا واهناً من رجاء شحيحْ
وليفزْ بالغنيمة من يُهرعون
ومن يؤجَرُونَ
ومن يهتفونْ ..
لا يهمّ!
وحدَكَ الآنَ..
تبقى مدى الدهرِ
أنت الحقيقىُّ،
أنت الصحيح
وأنت الجميلُ الجليلْ!

قلــبى معـــك

قلبى معك...

يا أيها المعقود مثل الضوءِ

فى فجر جديدٍ أطلعك

قلبى معك ..

يا أيها المنحوتُ كالتمثالِ

من غضبٍ

ومن حزن نبيلٍ

من ذُرا حُلم بلون المستحيلِ

ومن ثرى وطنٍ بحجْم الكونِ

فيه ألوفُ أعناقِ الرجالِ

تطولُ

تصعدُ فيكَ

ترقبُ فى جبينك فخْرهَا العالى

وطلّعتها الوضيئةَ بالجلالِ،

وأنت تبدعُ فى مساركَ

فى عروق الكبرياءِ

بمثْلِ لفْحِ الكهرباء

مُحمّلاً قلباً يظلّ يذَوبُ

فى وطنٍ عظيمٍ أبدعكْ!

* * *

قلبى معكْ

فى «بيْتنا العربىِّ» حين تجوسُ فيه

وأنت تقصدُ موقعك

حاذرْ

فآلافُ العقارب والأفاعى كامناتٌ

واحترسْ

فالسوسُ ينخرُ فى العمائمِ

والشوارب واللّحى

والإخوةُ الأعداءُ

يُخفون الخناجرَ فى الجيوب

نصالُها تهتزّ فى وقت العناقِ

وتنتشى بعد الفراقِ

تطلُّعًا لدمٍ يُراقُ

فلا تُرعْ ..

كم عاصف واجهْتَ

كم لغمٍ مرْرتَ به

وكم ذَنَبٍ تحيّرَ فَيكَ

لا يجدُ السبيلَ إليكَ

مُنحرفاً

وكم زيف كشفْتَ

وأنت تشمخُ باليقين

تُجادلُ البهتانَ

لا الرأسُ انحنى يوماً

ولا العنْفُ المكابرُ روَّعكْ!

* * *

قلبى معك ..

وأنا أطالعُ ـ ملء عينيْك ـ

انهمارَ الحزْنِ

يعتصرُ الضلوعْ ...

وأرى اصطراعكَ حين تأوى فى ظلام الليْلِ

حين تشاهدُ الهَوْل الذى يطغى

فتزدحمُ الصور

وتسائلُ النَفْس التى امتلأتْ

بأحزان البشر:

كم أستطيعُ لهم!

وهل تهتزُّ هذى النخْلةُ العجفاءُ

يوماً بالثمر!

وتفرُّ حبّات الدموعْ

مازلْتَ ـ فى الليل البهيم ـ

تظلُّ تبحث عن شعاعٍ فى المدارِ

وكوكبٍ يُومى إلى السارينَ

أو نجمٍ بعيد قد أشارْ

وأرى يديْك تُنقّبان،

وتضربانِ على الجدارْ

حاذرْ ..

فإن «البيْتَ» من ورقٍ

وأعمدة «الكلام» إلى انهيارْ

وأراك حين تُطالع الوجْهَ الكذوبَ
وقد تزيّا وجه محتالٍ
وأمسك رمْح عنترةٍ
وصال وجالَ...
منشيًا بزهْو وانتصارْ
وأراك تلعنهُ
وتلعن كذْبهُ المفضوحَ
فى وضَح النهار ...
هذا الذى قد جاوز الحمقى
وراح يُطيلُ فى حبل السفاهة
والخَرفْ
لا يستحقُّ إشارةً ... حتى ...
فوفّرْ إصبعكْ!

* * *

قلبى معكْ

وانا أرى فى هجمة الطغيان

طوفانا يزُلزلُ مضجعكْ

السّفْلة الأوغادُ

قد دقّوا طبولَ الحرْبِ..

وانكشف الغطاءُ عن السلامِ

المستحيلْ

فلْيبتنوا مدناً على أنقاضنا

وليملأوا التاريخَ ثارات وأحقادًا

- صحائفَ للغد الآتى -

نُورّثها إلى أحفادنا

ولينصبوا للعابرينَ الآمنين فِخاخَهم

وليجْرموا

فالعابرون همو...

وتبقى الأرضُ للشعب الذى

تتآمرُ الدنيا عليهِ

فهمّهُ همّان:

همُّ السّفلة الأوغادِ من صهيونَ

مُذْ وطئوا ...

وهمُّ الإخوة الأعداءِ

يخترعون فى «لغة الكلام»

مدافعاً

وقذائفاً تُصمى

وموْتاً للبرابرة ـ الغزاةْ!

فلْيسكتوا أو يْرجُموا

لغةُ الكلامِ اليوم من حجرٍ

فقلْ للقوم لا تتكلموا

وليَنْته البلغاءُ من سحْرِ الكلامِ

ووقْعه الرنّانِ،

ألْقِ عصَاكَ يا موسى

وأبَطلْ ذلك الإفْكَ اللّعينَ

مُكاشفاً ،
ومُباغتاً بالحقِّ،
هذا كلُّه ... لن يخدعكْ!
آن الأوانُ لنفخْة فى الصّور
كى ترتجّ هذى الأرضُ كالزلزالِ
ماذا يملكُ الأبطالُ إلا أن يكونوا
فى الجحيم قذائفاً كى تنفجرْ؟
وقنابلاً موقوتةً فى وجه أعداء
الحياة؟
لم يبق فى الأيدى سوى جِلْد
العروقِ
ورجْفة العصب الذى قد دمّروه
آن الأوانُ لنفخَةٍ فى الصور
تدعو أمةً كانت...
تكون الآنَ ... أو لا ... لا تكونْ

وهناك فى «الأغوارِ» شيخ ساهرٌ

كىْ يسمعكْ!

قلبى معكْ ..

وجميعُ من كرهوكَ

ـ تعرفهم لحسْن الحظِّ ـ

لا يدرون أن الناسَ كنزُكَ

شجْوهُم قد دلّهم

ـ ما دلّهم أحد عليْكَ ـ

فكنت أغنيةً وبعض عطاء مصر

ولمسةً من سحْر هذا النيلِ

حين يضخُّ فى روح الرجالْ

هل يدركون الآن معنى ..

أن يكون المرءُ ذا شرف ...

ولم يَعْلَقْ به يوماً سؤال؟

هل يدركون الآن معنى

أن تكون لمصر جنديًا..

وقائدك الحكيمُ يراكَ أجدرَ بالقتالِ

وبالنّزالْ ؟

لو يدركونَ ... لباركوا فيكَ الذى

صاغتهُ مصرُ

ونيلها الحانى

وفيْضاً من هواهُ

أودعكْ!

* * *

قلبى معكْ ...

يا قادماً مثل المسيح

يعيدُ للميْت المُسجَّى روحهُ

فتدبُّ فيه روائح الأرض التى سُلبتْ

وتنبض فيه أصواتُ الذين تساقطوا

بدمائهم تخضوضرُ الدنيا

ويعطى الكرْمُ والزيتونُ موسمه

وينتصب الرجالُ ..

يا أيها المنذورُ للوعد الذى يأتى

وللحلم الذى مازال مُرتسماً

وللوطن الذى لن ينحنى،

قلبى معكّ!

قلبى معكّ!

اللوحة الغائبة

نستطيع ـ إذا غابت الأرضُ ـ
أن نتخيل خارطةً،
وحدودًا،
ونملأ هذى الحدود نقاطًا
لتصبح هذى النقاط دوائرَ
يطلعُ من بينها وطنٌ
ووجوه يُعشّشُ فيها الغيابُ
سنسكنُ ملء ملامحها

نتتقلُ عبْرَ تضاريسها

ونحاول أن نستعيد الذى مايزال بعيدا

وننظر للأفقِ المستحيلِ

هنالك لا صوتَ تُنطقه الخارطة

وهنالك..

لا لون يقفز بين دوائرها

خضرةً،

ورمالاً

وماءً..

هنالك،

لا لون غير الدماءِ

وغير السراب المراوغِ

ها نحن نمتلك الحُلْمَ

نحلمُ أنَ هنا الدار والبابَ والمتكأ

وهنا،

زعتَر الغوْرِ،

والكرْمَ،

والرائحة..

وزيتونةً لم تزلْ وحدها صابرة

فى انتظار الخريف الحزين

ولذْع الشتاءِ،

وأقبية النارِ والمذبحة

ثُمّ،

شيئا فشيئا

تغيب الظلالُ،

وتُطوى المسافةُ

هذى أصابعُنا

لم تَزلْ تُمسكُ اللوْحةَ الغائبة

وتخطُّ خطوطَا

لخارطةٍ فى الغمامِ

وتندى بدمعٍ من القلب يصعدُ

نبحثُ بين النقاطِ

وبين الدوائرِ

بين الخطوطِ

وبين المعابرِ

فنُجْهشُ حين يُخيّمُ فينا السكوتِ

ولكننا

أبدًا

لانموت!

الجبــل

قلتُ :

أستأنسُ الآن هذا الجبلَ!

ثم أبنى من الصخر بيتىَ

- غيرى يُشيّد منه البروجَ

يُدشّنُ فيها مواليدَهُ

ويتابع دورة أفلاكهِ

غانماً

فاتكاً

ويُلفلفُ أحلامه فى الشُفوفَ

وسوانا

- من الهَمَل العابرين -

يلاحق مأمنه فى الكهوف!

الجبالُ تدور مع الوقتِ،

تسطع فى وقدة الشمسِ

فارعةً،

تستفزّ الصعود إليها

وتُغرى بقمتها المشتهاةِ

ولكنها تتحدى الوصولَ

وتلتفُّ هاجعة فى مدى الليلِ

تُطلق أشباحَها فى الفضاءِ

وتُنشد ملحمةً للظلامِ

تتوّجُ سيرتها بالحتوفَ!

الجبالُ،

الجبالُ الرواسى

فضاءاتُ حلمٍ

شُفوفٌ

كهوفٌ،

حتوفٌ

وأسطورةٌ حملَتها الرياحُ

ودارت بها

ـ وهى معولةٌ ـ

تستحثُّ الخطى

وتشقّ الصفوف!

* * *

صاغراً

عدتُ من رحلتى

كاسفاً، أتساندُ

ظلّى يلاحقنى

- من أمامى وخلفى -

وأُوشك أعثرُ

مصطدما بانهمار الظلالِ

ومشتبكا بانعقاد الطيوفْ

ماالذى قد حملْتُ؟

ذؤابة ليلٍ تسرّب منى

- وكان يُزيّن لى صحبةً -

وبقايا رطانٍ

- أحاول تمييزه دون جدوى -

وأخدود حزن بقلبى

- دفنت به ثُلة من رفاقٍ -

وثلجٌ بنفسى

رضيتُ به،

واطمأنت سمائى

فأمطر يأساً، وهمًا مقيماً

وشكًا

رجعتُ إلى حائطٍ، لم أجدْهُ،

ومتكأٍ كان بعض ملاذى

ولكنه مايزالُ.... الجبلَ

شاخصا،

فارعا فى الفضاء المخيفِ

ومقتحما للسماءِ

يخايلُ..

هل أستجيرُ بحرمة هذا الجدارِ

وأسبحُ فى جلوات الكشوف!

المدائنُ مثل سحابٍ

وترحلُ فى الغيْمِ،

لاتستقرّ

مدنٌ كالخيال المراوغِ

تدنو

وتنأى

وتفلتُ مثل السرابِ المخادعِ

هل نحن فيها؟

وهل سكنتنَا؟

وهل شُبِّهت للعيونِ

أم اخترعتْها غواياتُنا

وانطفأنا بهْا

مدنٌ هشةٌ

تتطاير مثل الغبارِ

تغوصُ

وتهربُ فى الذاكرة

مدن للهروبِ

فمن يسعفُ الآن للحظة الحاضرة

آهِ.. كيف نُصدّقها

وهى تقتاتنا

ثم تقذفنا،

لمحالٍ خبئٍ وراء محالْ!

مدنٌ نشتهى

لو تكونُ يباباً..

وأنّا جِبالْ!

رؤيا

رأيتُ الذى لا يراهُ سوايَ..

فقلتُ لنفسى:

لو أنّى نطقتُ بما أسعدتْنى به الحالُ

ما صدّق الناسُ

وارتاب أكثرُهم فى يقينى وظنى

وقالوا: «له اللّه»!

يهذى بما ليس يدرى

ويُبصر ما لا يُرى

ويضلُّ ضلالاً بعيداً

له اللّه !»

....

فعْلاً، لىَ اللّه

- قد لا يكون الذى حرِْتُ فيه جديدا -

وماذا أُرجّى من الغافلينَ!

وهم فى عَمايتهم بينٌ بينٌ

فآناً يروْنَ،

وآونةً لا يروْن!

وماذا أريد من العصبة الفاتكين؟

وقد أمسكوا برقاب العبادِ

ولكنهم فى ختامِ المطافِ

حثالةُ هذا البشر!

وماذا إذا بُحْتُ بالسرّ؟

هل يقتلونك ؟

منذ قديمٍ يباحُ دمُ العاشقين..

ـ إذا نطقوا

أو أشاروا ـ

وهل يُطلقون لسانىَ ـ قسراً ـ

فلا أتوقفُ..؟

حتى يروْا قاعَ نفسى

ومكنون ذاكرتى

ونفائس مقتنياتى

وغيبى وصحْوى

وحتى أُرى عاريًا..

قد خرجتُ كما قد وُلدْتُ..

بلا شملةٍ أو دثارْ

ـ لماذا يريدوننا هكذا دائمًا

أن نكون عراة؟ ـ

وساعتها، يطمئنون لى

ثم يُفسحُ شيخهُموَ لى مكانا

لعلى أُجالسهم..

وأقول الذى لم أقلْهُ،

ـ الذى لا يراهُ سوایَ ـ

فأُحكم إغلاق نافذتى

ـ حينَ أُطرقُ فى داخلى ـ

ثم أبكى !

* * *

رأيتُ على حافة الأفقِ عاصفةً من دخانٍ

ومن حولها شررٌ يتطايرُ

ناسًا تُهرول فى اللا مكانِ

وشيئًا فشيئًا

يصيرُ الدخانُ أفاعىَ

والناسُ جُرذانَ ليلٍ تقَاذفُه الرعبُ

والأفقُ نافورةً من دماءٍ

وشيئًا فشيئًا

تصيرُ الأفاعى حبالاً

تطولُ وتلتفُّ حول الرقابِ

فتختنقُ الكائناتُ

ويشتعلُ الكونُ،

تصهلُ نيرانهُ فى الفضاءْ

وتصطدمُ الأرضُ

- وهى تدورُ -

بذيْل السماءْ

رأيتُ الذى لا يراهُ سوایَ

فهل ما رأيتُ نذيرٌ بشؤمٍ؟

وهل هو قارعةٌ؟

أم دبيبُ فَنَاءْ؟

* * *

رأيتُ على حافة الأفق برْقًا يضيءُ

فيعقبهُ الرعدُ،

قلتُ: ستُمطرُ

ينهمرُ الرزقُ،

والأمنياتُ الحبيسةُ،

ينفتحُ المغلق المتأبىّ

فتَخضرُّ هذى القلوبُ الشحيحةُ

تَرْوَى النفوسُ اليبيسةُ

يمتلىءُ النهرُ

يُرفع مقْتُ السماءِ

وينقشعُ القهرُ

تزدحم السوقُ بالكبرياء..

فواحسرتا!

حين خاب الرجاءُ

ولم يُسعف البرقُ والرعدُ:

برقٌ كذوبٌ

ورعدٌ عقيم

ولكنه الأفقُ يهطلُ مُهْلا

ويوقظ حقدًا دفينا،

وثأرًا،

وغِلاً

وجيشُ المجاعةِ

يفتكُ بالسذّجِ الصابرينَ

وبالخانعينَ

وبالأغبياءِ!

* * *

رأيتُ يدًا من بعيدٍ تُمدُّ

فأدركتُ أنّ النهايةَ حانتْ

وأنى أُشد إلى موقفِ الهوْلِ

فارتعتُ..

يا للغرابةِ!

كيف تضعضعتُ حين أتى ذكْرُ هذا الذى
ليس منه مفرّ؟
وكيف تداخلتُ
مُلتمسًا بعضَ نفسى
وبعض اعتدادى،
وزهوى بأمسى
نسيتُ، فأنكرْتُ!
حين تذكرتُ.. أيقنتُ..
ما عاد متسعٌ للخيال
ولا أفقٌ فى البعيد يُهلّ
ولا وجْهُ أيقونةٍ..
فى حُمّيا صلاتى يُطلُّ
ورؤياك - يا شيخناَ - باطلةٌ
تظلُّ مهوّمةً فى الفضاءِ العريضِ
محلّقةً بينَ بينَ
فلا هى هابطةٌ للعبادِ

ولا هى صاعدةٌ للسماءِ
هى البرزخُ القانصُ العابرينَ
ليُوقعهم فى جحيمِ السؤال!
فأين الخلاصُ؟
وكيف النجاةُ..؟
رأيتُ..
فلملمتُ نفسى..
وسرْتُ!

قطار الوقت

فى زمنٍ يُفلتُ من بين أصابعنا
ـ مثْلَ صفيرِ قطارٍ عابر
يفترشُ محطاتٍ ليلية ـ
أبحثُ مرتجفاً عن مأوى
بعْدَكِ .. لا مأوى
من ليلٍ مجنونٍ كاسح
فأنا مختنقٌ حتى الموت!
تتسربُ الظلمةُ فى روحى

أترنّحُ ،

أوشكُ أن أَهْوِى

منخوبَ القلب من الإعياءْ

يقهرنى سأمُ الوقت اللافحْ

وشرابُ الكأْسِ المسمومُ الطافحْ

أنتظرُ صباحاً فيه تُهلّين

قادمةً من ليل المنفى

تُحيينَ رمادَ الصحراءْ

وجُنونَ الصبوةِ فى الأشياء

ودبيبَ الصحْوِ..

إلى أُفق الأيام الموحشةِ النكراء

وشعاع الرحمةِ

للقلب العارى الصّديان

ها أنتِ تُهلّين الآنْ

فى كفّى وردتُكِ الصفراءُ

وفى عينيْكِ دموعٌ أندلسية

فيعود إلى النهر الجريانُ

وتسرى فى الثلج النيرانُ

ويصبحُ حتى للأحزانْ

طعم ومذاقٌ مختلفان!

من يضمن وعداً ملتبساً

يُزْجيه لنا الزمنُ القادم!

هل يكفينا أن نتلاصقْ ..

حتى يقترب قطارُ الوقْتْ

منطلقا كجوادٍ جامحْ ..

يُغريه فضاءُ البرّية

يتوقف حيناً،

ثم يغادرُنا

ونعود كما كنّا غُرباء!

هل يكفى أن نقتات معا

خبزَ الأيام الملعونة
ونردّدَ أنّ الكون فَسدٌ
والناسَ وحوشٌ مفترسة
تنهشُ أحلامَ الشعراء!
مُدّى حَبلاً من بين الموْج
لغريق يقهرهُ الطوفان
قلبانَا ـ الليلَة ـ مُخْتَرقَان
يلفحُنا إعصارٌ كونىّ
يحمل كلَّ شرور العالم
وفسادَ غَوايته الأولى
عُمرانا ـ الليلة ـ يأتلفانْ
سداً فى وجْهِ الأرزاء
والقُبحِ السّائد فى الأرجاءْ
ولديْنا ـ الليلةَ ـ ما يكفى ...
هذا ميراثُ الأحزانْ !

الفهـــرس

يقول الدم العربى

هئــت لـك

سيـدة المـاء

وقت لاقتناص الوقت

وجـه أبنوسـى

الجميلة تنزل إلى النهر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg